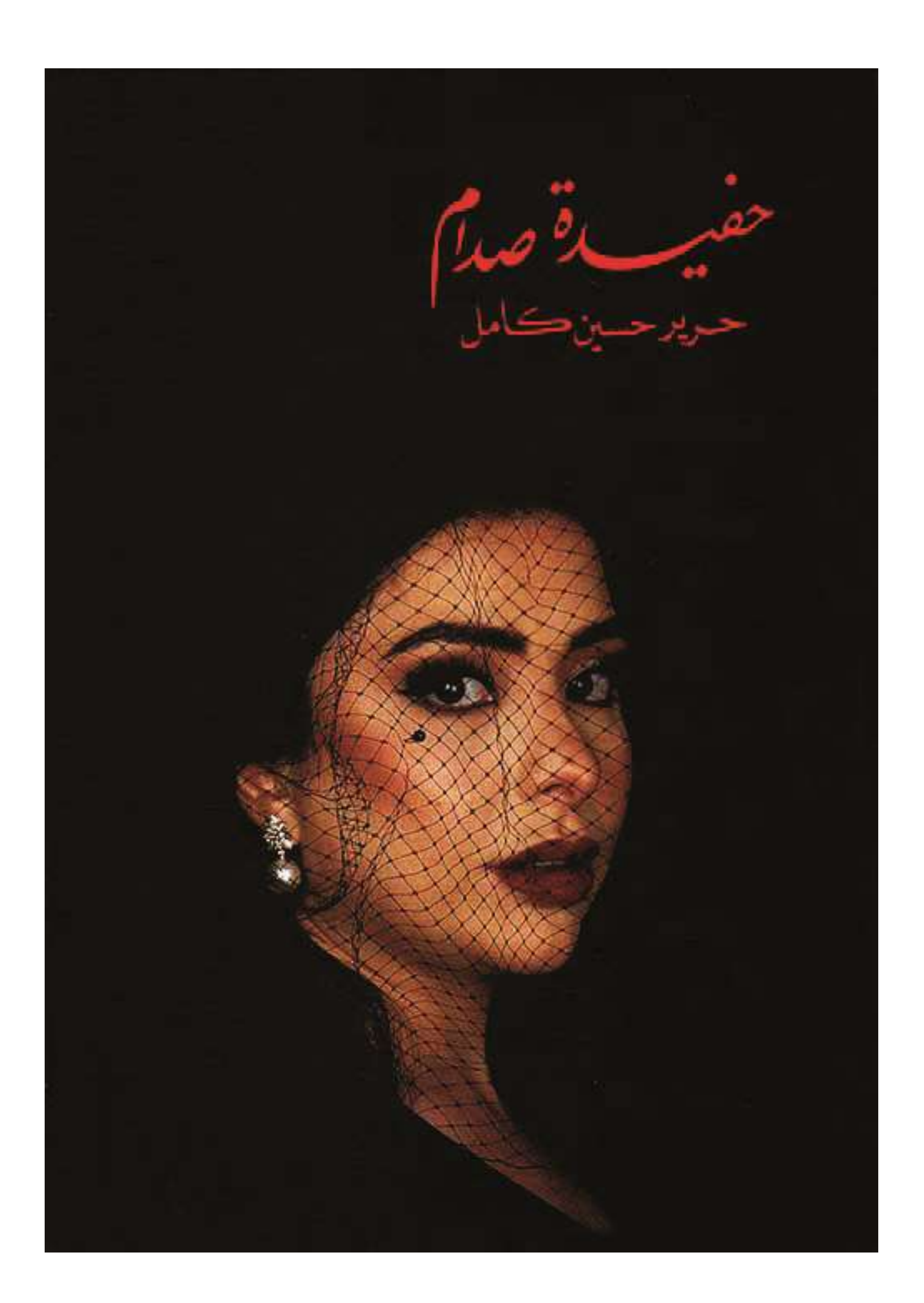

حفيدة صدام
حرير حسين كامل

حفيدة صدام

حرير حسين كامل

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

أهدي خلاصة كتابي هذا إلى كل الأحفاد الذين شاركوني رحلتي الصعبه هذه، هم مثلي.. تألموا.. توجعوا.. تعلموا.. أينما كُنتُم، صغاراً وكباراً لكم مني أصدق التمنيات بالموفقيه والنجاح في كل ما تحبون وتتمنون.. من كل قلبي أهدي لكم محتوى كتابي هذا الذي كُنتُم وستبقون جزءاً من ماضيه والمستقبل الأجمل بإذن الله لأنكم مثلي تستحقون ذلك.. متمنية لكم أن تَشْفِيَ سطور كتابي هذا جروحكم وآلامكم التي أحس بها مثلكم.. وكما طويت صفحة الماضي وقررت أن أكون أقوى، أتمنى لكم المثل وأفضل إن شاء الله.. إلى أبطالي.. رفعة رأسي.. رحمكم الله أينما كُنتُم.. أتمنى أن أكون قد استطعت ولو قليلا إنصافكم..

إلى كل المحبين المخلصين في كل أنحاء العالم.. وإكراماً لمحبتكم وإخلاصكم الكبير.. أهدي لكم الحقيقة التي تستحقونها كما هي..

شكراً لكم جميعا: أهلي.. زوجي الحبيب وصديقي الوفي ورفيق الدرب الجميل على كل هذه الثقه الكبيره التي غمرتموني بها وجعلتموني اليوم أنا.. أنا حرير المحظوظة بكم دائما وأبداً.. وأخيراً إلى كل شخص مجروح وغير محب ومر بالكثير ونسي أن يسامح.. السّماح أجمل هديه يقدمها الإنسان أولا إلى نفسه..

وأخيرا.. الحمدلله على كل ما فات وكل ما مضى..

حرير حسين كامل

الفصل الأول العصر الذهبي صدام يحمل بين يديه الحفيدة الأولى

جاء إبراهيم راكضاً منفعلاً ونحن جالسون حول مائدة الغداء، وصرخ بصوته «المشروخ» المميز: «وصل عمنا الريس.. وصل عمنا الريس».

وكأن قنبلة ألقيت بيننا.. نهضنا جميعاً على الفور لكي نتدارك ما يمكن تداركه قبل وصول الرئيس.. نحن نعلم أن جدي يدخل من الباب الرئيس لقصرنا في الجادرية، وأن المسافة بين باب القصر وبين الصالة الكبيرة حيث طاولة الطعام يقطعها في حوالي دقيقة.. لدينا دقيقة واحدة لإخفاء الجريمة..

في العادة، يأتي لنا عمو إبراهيم- وهو أحد المسيحيين العاملين في القصر- بقامته الطويلة وصوته المبحوح المضحك بخبر قدوم جدي من البوابة الرئيسة قبل وصوله؛ ما يمنحنا خمس دقائق على الأقل.. لكن، هذه المرة كانت تختلف؛ فقد كانت الزيارة مفاجئة للجميع..

قمنا بإخفاء الجريمة وآثارها عن الطاولة كيفما اتفق.. ولكن، بسرعة وإتقان مثل كل مرة.. النقطة الوحيدة هي أن الوقت لم يكن كافياً.. وبالفعل، ثوان قليلة وأطل جدي..

أطل بقامته الطويلة الرجولية.. بنظرته القوية.. بتلك الكاريزما المذهلة التي تُشعرك بأن في الجو كهرباء استاتيكية غير محسوسة تنتشر ببطء في دائرة هو مركزها..

سلمنا عليه، وجلسنا لاستئناف طعامنا ونحن نحاول مداراة ارتباكنا.. وجلس في صدر المائدة كما جرت العادة.. ففي العراق، يترأس صاحب المنزل مائدة الطعام.. وكان جدي بمثابة صاحب منزلنا ومنازل العراقيين جميعاً..

كانت إحدى أقوى مواهب جدي المذهلة هي قدرته على قراءة لغة الجسد.. وفراسته في قراءة الوجوه.. بدأت نظراته تتنقل بين وجوهنا بهدوء شديد وبطء. وحين أتى دوري، أحسست بأن معدتي ستخرج للخارج في أي لحظة من الخوف والرهبة..

.. حتماً سننكشف!!

ولكن جدي جلس إلى الطاولة بهدوء، ما جعلني أعتقد أن الأمر قد مر على خير!!

بدأنا بتبادل أطراف الحديث بشكل اعتيادي.. وشارك جدي بالحديث بهدوء وأدب على عادته.. ثم فجأة وبلا مقدمات، أمسكت يد صدام حسين إحدى الكؤوس البلورية، وأخذ يحركها يميناً ويساراً.. ثم قلب الكأس، ورويداً رويداً.. كانت قطرة ((البيبسي)) الوحيدة في قعر الكأس تتحرك إلى الأسفل بفعل الجاذبية..

قال جدي صدام بصوته المميز: «هكذا إذاً!».

.. توقف الجميع عن المضغ، واستدارت الوجوه باتجاه جدي.. فأكمل:

«حين أصدر قراراً، فعائلة صدام حسين يجب أن تكون أول الملتزمين به...!!».

بدأت النبرة تأخذ غضبها المغلف بالأدب والهدوء وهو يكمل: «من العيب أن يمنع صدّام «البيبسي» عن الشعب العراقي.. ثم يكون حاضراً على مائدة صدّام حسين...». وأكمل طعامه بهدوء...

تعلمنا للمرة الألف ألا نستهين بقوة ملاحظة جدي أبداً!

قاعدة جدي الأولى كانت تقول إن كل ما يمر به الشعب العراقي علينا أن نعيشه، ولا توجد استثناءات في ذلك حتى لو كانت علبة «البيبسي».

كان يكررها علينا كثيراً. وهي أن عائلة صدام حسين تعيش حالة الحرب والحصار كما يعيش العراقيون ذلك، وهذا واجب وطني. ومن هنا، أستطيع أن أفسر أننا لم نهرب أبداً أثناء الحرب إلى أية دولة مجاورة كما كانت الإشاعات تدور... الحقيقة كانت على العكس تماماً؛ مثل الكثير من الحقائق التي تم تحريفها والتلاعب بها، وقد وصل الحد في الكثير من المرات إلى تخيلها. لم تكن عقارب الساعة تمشي سريعاً كعادتها في هذه الجلسة، ولكن مجرد النظر إلى عيني جدي صدام حسين العسليتين كان كافياً لتشعر بالأمان؛ مهما كان الموقف حرجا.

نعم، نحن تماماً مثلكم جميعاً. وكما ترونه نراه؛ بالعين المعجبة نفسها، ونتأمّل هذه الكاريزما الربانية العجيبة، والهيبة الرهيبة؛ حتى لو رأيناه كل يوم. أؤكد لكم أنكم دائماً سترونه بالعين نفسها؛ حتى لو رأيتموه آلاف المرات. نعم، عن جدي صدام حسين أحدثكم.

هذا الرجل الذي كان أصعب ما واجهته في كتابي هذا هو أن أجد كلاماً يعطيه حقه ويُنصفه. كل الكلمات التي حاولت عبثاً أن أصفه بها رأيتها ضئيلة وقليلة في حقه. بالنسبة لي، هذا الرجل استثنائي بكل المقاييس، وكما عبر عنه شاعر العراق الراحل عبد الرزاق عبد الواحد بعبقريته الشعرية

قصيدة في الصفحة أربعة

كان جدي مميزاً في كل شيء..

وبالنسبة لي، كانت له ميزة إضافية؛ وهي أنه هو الذي سمّاني حرير!

كيف أنسى صوته حين كان يلفظ اسمي؟! وحين كان يوجه لي الحديث، ويعتبرني كبيرة الحفيدات...؟!

... كيف لا أعشق هذا الصوت وهو من أوائل الأصوات التي سمعتها في حياتي، وأكثرها تمييزاً؟!

كان ذلك في زمن آخر.. وظروف أخرى..

كان العراق حينها يتعرّض لمؤامرة تختلف عن مؤامرة الحصار وأزمات «البيبسي»!!

كان يتعرّض لبدايات ما يمكن تسميته بالمؤامرة الكبرى..!

الزمان: ١٩ تموز/يوليو من عام ١٩٨٦

المكان: مستشفى ابن سينا الخاص..

الحالة العامة: العراق في منتصف حربه الطويلة مع إيران الخميني. جوّ عام من بقايا الاحتفالات العسكرية بالعيد الثامن عشر الذي أوصل صدام حسين كنائب للرئيس في ثورة بيضاء إلى السلطة..

جاء خالي عدي لزيارتنا، وبدأ بالمزاح مع والدتي والركض وراءها ورشها بخرطوم الماء.. بعد مغادرة خالي عدي، بدأت أمي تشعر بآلام الولادة التي استمرت أربع ساعات أو خمس، وتم نقلها إلى مستشفى ابن سينا الخاص؛ وهو مستشفى قديم تم تخصيصه لكبار ضباط القوات المسلحة العراقية وعوائلهم..

وُلِدْتُ بلون أزرق يغطي وجهي وجسدي بالكامل.. كل المؤشرات كانت تشير إلى أنني أعاني من حالة اختناق غير معروفة.

في ذلك الحين، تم وضعي في حاضنة أطفال مخصصة للحالات الحرجة..

ومن المتعارف عليه أنه في أي وقت بعد الولادة، سيقوم جدي بالمرور للسلام على ابنته والمباركة، والأهم من ذلك... للتسمية؛ فقد كان لجدي طقس لم يكسره منذ جاءه أول حفيد لهذه الدنيا وحتى استشهاده..

الرجال.. يسمّيهم آباؤهم وأمهاتهم.. لهم الأحفاد.

النساء يسميهن هو بنفسه.. له الحفيدات!

"كانت الأسماء التي يطلقها على الحفيدات لها ثلاث خصائص؛ فهي بسيطة وغير تقليدية وقرآنية!

كان يفتح المصحف الكريم على أي صفحة من كلام الله، ويبدأ بالقراءة.

وإذا صادفه اسم يرى أنه يصلح وتتطبق عليه المواصفات سمّى به حفيدتهكان يفرح جداً بولادة البنات؛ على عكس جدتي ساجدة التي كانت تحزن بشدة حين تعرف أن المولود أنثى.. كان يسمّينا كنوع من التكريم لنا واحتفاء بنا..حرير.. وهج.. نبع.. موج.. بنان.. ألق..
مسك....كثيراً ما كان يطربني أن أسمع الناس يقولون لي: «إن اسمك جميل جداً.. "من سمّاك؟». فأرد عليهم بفخر بأن صدام حسين هو الذي سمّاني.. كما كنتُ ،كانت جدتي صفية أم والدي هي من يؤذّن لنا عند ولادتنا..لم يكن أغلب رجال العائلة متواجدين حين وُلِدتُ، فأغلبهم كانوا يتواجدون في الجبهة المشتعلة...عرف جدي أنني أعاني من حالة مستعصية، فأمر على الفور بتفريغ فريق أجنبي متخصص.. وتم عمل الكثير من الفحوصات لي، وكان قرار الفريق أنني أعاني من ربو ولادي نادر جداً..

وبالطبع، لم يتم تسجيل تلك الحالة.. «لأسباب أمنية»!!

وهو المصطلح الذي سيصبح صديقاً لي لكثرة ما تدخل في حياتي..

ولكن الفرق بيني وبين بقية الأحفاد هو أنني تعرّفت عليه منذ يوم ولادتي الأول!

على سبيل المثال، يتذكر العراقيون جيداً أن جدي كل عام كان في ذكرى هروبه بعد محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم يقوم بعبور نهر دجلة الذي يقسم شطري العاصمة العراقية سباحة.. ولكن ما لا يعرفه كثيرون هو أن السباحة هواية مشتركة ورئيسة لدى جميع أفراد العائلة..

نشأت كأية طفلة مصابة بالربو.. فهناك الكثير من الممنوعات.. وعلى الرغم من أنني كنت طفلة مشاكسة وكثيرة الحركة.. إلا أن كثرة الممنوعات كانت تحد كثيراً من رغبتي في عيش حياة طبيعية كانت صعبة علينا أصلاً!

ففي كل قصر وكل بيت يوجد مسبح خاص.. لا يفرغ إلا نادراً.. وفي حال وجود مصاب بالربو وعاشق للسباحة في الوقت نفسه، فإن المعادلة تصبح صعبة؛ بين تنسيق درجات الحرارة، والابتعاد عن الهواء البارد عند الخروج، وضرورة تجفيف الجسد والشعر بسرعة تجنباً للإصابة بنزلة برد.. ولذلك، كانت التسلية محاطة بالكثير من العراقيل...!

قضت الطفلة الزرقاء أياماً في الحاضنة الخاصة.. الذكريات الأولى التي أحملها كانت في منزل يحمل لوحة على بابه تشير إلى أنه رقم (٩-ب). كان منزلاً يقع ضمن مجمع سكني خاص، بيوته متطابقة الشكل، ويقطنه كبار الضباط والمسؤولين.. كان اسمه مجمع دجلة...

كبرت وعرفت والدي الذي كنت أراه باللبس العسكري كضابط.. أكثر ممّا رأيته بلبس مدني.. والدي هو حسين كامل المجيد، وجدي كامل هو ابن عم جدي الرئيس صدام حسين المجيد..

كان منزلنا يمثل العراق بكل أطيافه.. العراق الأوحد.. الواحد.. الموحد.. الذي يعيش كل أهله تحت سقف مشترك.. يجمعهم حب العراق.. ولكل منهم حرية الدين والمذهب والعقيدة...

كان العاملون العسكريون مع والدي من مختلف المذاهب الإسلامية.. وكانت مربياتنا من الأرمن في الغالب.. والأرمن طائفة مسيحية لديها لغة خاصة؛ وهي الأرمنية.. تميّزهم وجوههم المائلة إلى الشقرة.. وهم

أقلية كما اصطلح على تسميتهم في أيام ما بعد العراق! ولكبار السن فيهم ميزة، وهي أنهم يتحدثون عربية مكسرة بلهجة محببة خاصة بهم.. تتميز المربية الأرمنية عادة بالصرامة والنظافة والثقافة وسعة الاطلاع، وغالباً هم من خريجي الجامعات المرموقة.. كنا نسمي المربية الأرمنية: ناني..

في فترة ما، حصل شقيقي علي على مربية من الفلبين، ولكن جدي منع ذلك الأمر، وأمر باستبدال الفلبينيات بمربيات من أرمن العراق..

لدينا طباخ مسيحي آشوري يزورنا بشكل متقطع عند وجود ولائم مهمة.. ولدينا عاملون كرد وعرب وبدو وفلاحون... كان استخدام كلمة «خادمة» ممنوعاً في المنزل، وكنا نسميهنّ «عاملات».

المنزل (٩-ب) كان منزلاً مؤقتاً «لأسباب أمنية»... وهو مؤلف من طابقين، وفيه أربع غرف نوم وصالة ومطبخ وغرفتين ومكتب.. كنت أسمع من أبي أنني كنت «وجه الخير» عليه؛ فقد ترقى بعيد ولادتي إلى وزير للتصنيع العسكري.. كما شرع في بناء قصرنا في الجادرية..

كانت الحياة سعيدة ومستقرة؛ على الرغم من أنها في زمن حرب أنهكت العراق مع جار الشر..

أستعيد ذكرى تلك الأيام ككل العراقيين الذين يذكرونها كحقبة ذهبية.. وبالطبع، إن لكل حياة تطرّفاتها وتقلباتها ذات اليمين وذات الشمال.. ولكنها في الحقيقة والمجمل كانت أياماً جميلة!

أكثر اللحظات سعادة في حياتي كانت حين يأتي خبر أو أمر بأن الرئيس يرغب برؤيتكم اليوم عند الساعة الفلانية..

فتدخل أمي أو المربية وتقول: «اليوم رايحين يم بابا صدام...» في تلك اللحظات، كانت فرحتنا كأطفال لا توصف.. أي طفل كان سيفرح بملاقاة جده، فكيف إذا كان ذلك الجد هو صدّام حسين؛ بتعليقاته.. وأدبياته.. وأسلوبه التربوي..

بالطبع، لم يكن المرسال يخبرنا بمكان اللقاء «لأسباب أمنية». ولكننا كنا نتجهز، ويأتي لنا من يذهب بنا إليه أحياناً في أحد القصور العراقية الكثيرة التي عُرِفت إعلامياً باسم قصور صدام حسين؛ رغم أنها كلها كانت بالفعل مسجلة باسم الدولة العراقية.

لقد غادر صدام حسين عالمنا من دون أن يكون لديه متر مربع مسجل باسمه..

قصور العراقيين كانت تتميز بطابع معماري وأناقة شرقية استثنائيين لم أرَ مثلهما في حياتي بعد أن سافرت ورأيت العالم.. وفي أحيان أخرى، كنا نذهب للقائه في بيوت أكثر بساطة. وفي الغالب، حين نصل إليه يكون قد أعد عدة الصيد في مكان على النهر خارج تلك القصور. فقد كان مولعاً بالصيد كهواية، وكان يقول إنها تعلم الصبر؛ ذلك الصبر الذي احتاج إليه كثيراً في ما بعد...

في أحيان كثيرة، كانت جدتي ساجدة تكون معه.. وكان يناديها بقوله «سْجِيدات» أو باسمها ساجدة، ولم يكن يناديها بأم عدي كما يناديها العراقيون.. بينما كنا نحن الأحفاد نسمّيها ماما ساجدة، ولا نقول جدتي... وكان كلاهما يحبان الجلوس في الهواء الطلق...

حين كنا نركض في طابور للسلام على جدي، كان جدي يبتسم ويحني هامته لكي يقبلنا؛ قبلة على اليمين وقبلة على اليسار، وهو يردد: «هلا.. هلا.. هلا أحسن أولاد». لا أنسى رائحته المميزة؛ فقد كانت رائحة عطره المفضل «أولد سبايس» بعلبته البيضاء، وهي تلك الرائحة التي اختفت في السنوات الأخيرة بعد أن أقلع جدي عن استخدام العطور بسبب حساسية ألمت به.. وكذلك لا أنسى نظافته وإشراقته الدائمتين. كانت لدي عادة حين أقبل جدي، وهي أنني أضع يدي خلف عنقه.. وكانت والدتي تنبهني قبل كل مرة ألا أقوم بذلك حين يأتي دوري للسلام عليه.. بالإضافة إلى النصيحة المتكررة بشكل أكبر: «بلا وكاحة!».

كان جدي يطلق علينا ألقاباً معينة. وقد لاحظ ذات يوم «حنكي» بارزاً فأسماني «أم حنچ» وهو يمسك بحنكي ويهزه ذات اليمين وذات اليسار.. أو «يقزقزه» كما نقول... وهو يقول: «يمه الحنچ يمه... مدكاك حلاوه!)).

في أحيان معينة، كنا نعرف أن جدي في مزاج سيء من طريقة تعاطيه مع من حوله... إذ كانت هناك مؤشرات لوجود مزاج سيئ لدى «الريِّس»؛ فحين نصل إليه يكون الجو مشحوناً، ويكون الحرس والعاملات في حالة من الارتباك، ونلحظ بشكل خاص اقتراب حاجبيه من بعضهما. كانت هذه الحالة قليلة وأنا صغيرة، وكلما كبرت في العمر كان تكرر هذه الحالة يزداد، وكنا نسمع غالباً أن هذا المزاج السيء سببه تصرفات بعض أفراد العائلة... وهي الأخطاء التي تفاقمت في ما بعد لتؤدي إلى مآس كثيرة.. طُبعت تلك الفترة من تاريخ العراق بوصمة سوء استخدام الصلاحيات، وخاصة من ذكور العائلة. أما نساؤها فهن في الغالب محافِظات، ولم يسمع لهن صوت يذكر..

في بقية الأيام التي لا نعرف فيها أين يكون جدي صدام - وهي الأكثر- كنا كثيراً ما نزور جدتي في بيت القصر أو ما يعرف بقصر القادسية.

كنا نركب مع والدي في سيارته المرسيدس، وألاحظ بينه وبين والدتي الكثير من التفاهم والحب. كان والدي عسكرياً صرفاً، وكان فخوراً بمنجزاته وعمله. ودائماً ما يشير إلى والدتي خارج السيارة ويقول لها: «رغد» انظري هنا. هنا قمنا بكذا وكذا...» ويُسهِب في شرح المنجزات الخاصة بالبنى التحتية، والتي أشرف عليها كمسؤول عن التصنيع العسكري.

كان والدي كثير التغزل ببلده، ويحب بلده؛ وهذه صفة مشتركة لدى جميع أفراد عائلة صدّام حسين؛ بغض النظر عن أي أمر آخر.

كانت أمي تناديه بحسين أو حسون بحسب طبيعة الحديث..

كانت تسليتي كطفلة وأنا على مقعد السيارة الخلفي هي رؤية السائقين الآخرين، والذين يشيرون إلينا بالكثير من الفضول.. وبسبب رقم السيارة الذي يتبع «الدائرة» كما نسميها؛ وهي الجهة التي كانت مسؤولة عن التشريفات، كان الناس يعلمون طبيعة راكبيها.

اليوم، أؤمن بأن العراقيين لديهم فراسة خاصة.. فكثيراً ما يوقفني أحدهم في بلاد بعيدة ويقول لي إنني حفيدة صدام... كيف يعرفون؟! لست أدري.. ولكن العراقيين بشكل عام أذكياء، ويتميزون بالفراسة الفطرية والقدرة على تمييز الوجوه..

ورغم سعادتي ومثالية الحياة في تلك الأيام بالنسبة لي كطفلة، إلا أنه ومن ناحية أخرى كانت هناك ممنوعات كثيرة بخصوص الحركة والتنقل؛ بسبب طبيعة الوضع الأمني. إذ يُمنَع على أفراد العائلة الاحتفال في

الأندية العامة أو بيوت الآخرين، وتقتصر الاحتفالات على داخل البيوت الخاصة والقصور... كما تُمنع دعوة الأصدقاء الذين لا تعرفهم العائلة، ويسمح فقط بعدد معين بعد التدقيق عليهم. في فترة ما، كان يُسمَح لبعض أفراد العائلة بالذهاب إلى نادي الصيد الذي يحبه البغداديون. ومُنَع السفر بشكل قاطع بعد أحداث الكويت والحصار الظالم الذي فُرض على الحضارة العراقية، كما يُمنَع حضور الحفلات العامة، ويُمنَع الشراء من دون حد معين. وبالطبع، مُنِعت الكثير من المُفرِحات مثل ((البيبسي)) وغيره...

كنا كأطفال نعتقد أن هذه هي الحالة الطبيعية؛ رغم أن أمي كانت تكرر:

«انتو ما شفتوا شي». في إشارة إلى أننا جيل وُلِد بين عدة حروب وأحداث استثنائية... ولكنني أحمد اللّه دائماً لأنني لم أكن فقط ابنة عز ودلال، بل كنت ابنة أولئك الأبطال!

هذه الممنوعات كانت على كل أفراد العائلة الكبيرة تقريباً. أما أبناء صدام وأحفاده فقد كان عليهم منع آخر حصراً، وهو بتوجيه مباشر من جدي؛ ألا وهو منع الاختلاط بالطبقة البرجوازية.

فبغداد عاصمة الإمبراطورية العباسية لسبعة قرون، وإحدى حاضرات المشرق العربي تتميز بوجود طبقة من الأغنياء والعوائل البغدادية البرجوازية.. وكان جدي يرى أن ما يمكن أن نكتسبه من سلبيات من جراء اختلاطنا بهذه العوائل كثير، إذ كان يكره حب التملك والاقتناء، بينما فينا الكثير - كأبناء وأحفاد - ممن يحب ذلك؛ وهذا اختلاف في وجهة النظر بين ثوري عسكري طموح وغيره. الطبقة البرجوازية كانت تعشق

إظهار البذخ، وهو الأمر الذي كان في أيام الحصار تحديداً نقطة تُحتسب على الثوريين إذا قاموا بها. فعلى سبيل المثال، أثار في تلك الأيام زفاف ابن وزير الخارجية العراقي طارق عزيز في حينه وما اتصف به من مظاهر معينة الكثير من الكلام والحديث في الشارع العراقي. وقد وصلت أطراف الحديث حول ذلك إلى جدي صدام؛ ما أدى بعد ذلك إلى صدور قرارات تمنع إظهار البذخ - بمقاييس تلك الأيام بالطبع، وهي بسيطة مقارنة باليوم - في الحفلات الخاصة بالمسؤولين وأبناءهم، علاوة على منع إقامة أعراسهم في الفنادق!

أُدْخِلت في طفولتي إلى حضانة وروضة مع عموم العراقيين. ثم بسبب طبيعة العائلة العشائرية، اقترح والدي فكرة إنشاء مدرسة خاصة لأبناء الأسرة؛ حيث يتحفظ الآباء على اختلاط بناتهم مع أغراب آخرين، ودعمت أمي الفكرة بقوة، فكان إنشاء مدرسة الشبيبية. كانت جميلة ومكيفة، وفي كل فصل فيها يوجد عدد من الطلاب يتحدد بحسب أطفال العائلة الذين ينتمون إلى فئته العمرية ويتراوح العدد بين خمسة إلى عشرة. وفي صفي على سبيل المثال، كان هناك تسعة طلاب، كنت مع حسن علي حسن المجيد، وبكر ثائر سلمان المجيد، وندى ورنا الغفور، وزينة عبد حمود، وأناهيد كامل، ورؤى رفعت، وعمر حبيب السليمان، وكلهم أقارب من الدرجة الأولى أو الثانية.

كانت مرحلة انتقالية نعلم أنها قد تكون الأخيرة؛ حيث لن يُسمح لنا بدخول جامعات مختلطة، كما أننا كبنات العائلة نتزوج غالباً في سن الخامسة عشرة. وبالطبع، يمنع استخدام أدوات التجميل قبل الزواج. كنت أعتبر مرطب الشفاه استثناء لا يمكن اكتشافه من قبل الأهل بسهولة.

عشت في طفولتي حياة هادئة ومستقرة نوعاً ما، وجميلة في دراستها، وجميلة في إجازاتها التي كنت أرغب بقضائها في السباحة طوال الوقت لولا خوف أهلي المستمر علي من نوبات الربو...

لم تكن جميع ذكرياتي مع السباحة جميلة في الطفولة. فذات إجازة كنا نقضيها في مزرعة الدورة في بغداد، داعبتني تلك الرغبة الطفولية للسباحة في فترة الظهيرة، وكنت أعلم أنني سأمنع من ذلك لخوفهم علي من الإصابة بنوبة ربو، بالإضافة إلى سبب آخر لا يقل أهمية عن ذلك؛ وهو وجود قرص معدني في أذني وضعه لي الأطباء السويسريون في قصة سأتحدث عنها بإسهاب في فصل لاحق. إذ أكد لي الأطباء عند وضعه على ضرورة ألا يصل إليه الماء، ما حدى أهلي علي الحرص على وضع القطن المبلل بزيت الزيتون في أذني قبل السباحة. وكانت أمي تشرف بنفسها على حمامي خوفاً من تلف ذلك القرص.

لذلك، تسللت بمفردي إلى المسبح، ونسيت نفسي هناك. ومرت الساعات، ولم أكن أعلم أن الدنيا «مقلوبة» في الخارج بحثاً عني... فالحرس يبحثون حول المزرعة، وأبي الذي تعتبر العصبية إحدى أسوأ صفاته كان يرتدي الدشداشة البيضاء ويركض هنا وهناك وقد ملأ الخوف والأفكار السوداء قلبه... المخاوف كثيرة؛ وهي أمنية وطبيعية... فربما تهت في البساتين أو حدث لي مكروه...

حين خرجت من المسبح المغلق، وعرف والدي بذهابي واختفائي هناك من دون استئذان، استاء كثيراً. ولكن، لأنني الحبيبة إلى قلبه التي يوسّطني الآخرون لديه إن أرادوا منه شيئاً ما، لم يمد يده علي، واكتفى بابتلاع غضبه. ولكنه في الوقت نفسه أراد أن يعاقبني... وبين حب الأب وصرامة العسكري كان عليه أن يتخذ القرار... ويبدو أنه اتخذ قراراً بألا يضربني.

ولكن، قبل خروجه من الغرفة، التفت إلى أخي الأكبر علي وقال له بلهجة آمرة:...

«**اضربها أنت!**».

عن والدي أحدثكم...

عن بطل لم يمتد به الزمان ليثبت حسن سريرته...

ولهذا أنا أكتب هنا...

لعلي أزيل شيئاً من غبار السنين...

فنتيقّن من أنه لا وجود للأبيض والأسود في عالمنا... أكثر الأمور رمادية، ولكن كل أطراف الخلاف تراها بالألوان التي تحبها...

أبي... حسين كامل المجيد.

والده ابن عم الرئيس، أي جدي.

منذ طفولته، توسَّم فيه جدي الشجاعة والجرأة والولاء... الولاء الكامل...

واتخذه منذ شبابه كمرافق شخصي له...

وكان كثيراً ما يأتي برفقة جدي إلى منزله فيرى والدتي رغد وهي كبرى بنات جدي.

حين بلغت والدتي حوالي الرابعة عشرة من عمرها، أمرها جدي بأن تجهز وتذهب للسلام على جميع أعمامها وهم أشقاء جدي من والدته...

بالإضافة إلى أبناء عمه الكبار مثل جدي كامل... كانت رسالة جدي صدام واضحة على الطريقة العشائرية...

.. لقد كبرت ابنتي!

استُقبلت والدتي في منازل أعمامها بالترحاب، ولكنها ما زالت تتذكر الترحاب الاستثنائي الذي استُقبِلت فيه في منزل جدي كامل. بعدها بعدة أيام، أرسلت عائلة والدي ابنة عمتي أسيل لمعرفة رأي والدتي... وسألتها: «شنو رايج بحسين؟ احنا رايدينج إله؟»..

فردت أمي الشابة ذات الشخصية القوية. «حسين رجل... وهو ابن عمي... ولا يعيبه شيء».

تتكون عائلة جدي صدّام من زوجته، وابنين، وثلاث بنات. وهم بالترتيب: عدي، وقصي، ورغد (والدتي)، ورنا، وحلا.

جدتي ساجدة هي ابنة خال جدي... وكانت زياراتنا لها كثيرة... إنها جدة عراقية تقليدية. كان بيتها (القصر الجمهوري) مساحة أكبر للحرية، نظراً لقلة الممنوعات فيه... ففي منزل جدتي، كان الركض في الممرات مسموحاً، ولا مانع من وطء السجاد الإيراني والتزلج «بالسكيت» داخل المنزل، على عكس ما هو عليه الحال في منزلنا.

ويمكننا الذهاب إلى القبو، وفتح «الفريزر» شبه العملاق، وتناول ما نشاء من داخله: آيس كريم، كيكة آيس كريم، آيس كريم منتهي الصلاحية...

لا شيء يخرب في «الفريزر» العملاق؛ كانت هذه قاعدة تؤمن بها جدتي. في بيت جدتي، هناك تدليل، ولا وجود لصرامة الممنوعات الموجودة في منزلنا...

روتين جدتي اليومي كان ثابتاً بشكل كبير يمكن تخمينه؛ فهي تصحو باكراً، ويفوح عطرها القوي الجميل. تهتم ببيتها كسيدة منزل من الدرجة الأولى. لم أرها في حياتي قط «بالبيجامة».

تسكن في القصر الجمهوري، ولديها قصر في الجادرية تقوم ببنائه مثلنا، ولديها مزرعة وحيدة سمح لها الرئيس بتملكها في منطقة الرضوانية لأنها امتلكتها قبل أن يصبح جدي رئيساً. عمر المزرعة طويل، ويقترب من ثلاثين عاماً كما يشي بذلك الشجر الموجود فيها.

فيها بيت من طابقين لم يكن كبيراً جداً ولكنه جميل.

حين تقدم والدي لخطبة أمي، رفضت جدتي ساجدة ذلك؛ فهي بشكل عام لم تكن تحب العسكريين، وكانت تأمل لبكرها من البنات الحصول على زواج هادئ بزفافها من مهندس أو طبيب يأتي في وقت معلوم ويغادر في وقت معلوم. فحياة جدي العسكرية كانت تجعلها لا تعرف متى ستقابله وأين؟ وهو ما لم تكن جدتي تتمناه لابنتها. وكانت جدتي بالفعل قد وضعت عريساً محتملاً لأمي تنطبق عليه مواصفاتها، إلا أن والدتي رفضته.

وقد يستغرب البعض من مدى أهمية قرار جدتي في أمر كهذا بوجود زوج بحجم صدام حسين أولاً، وثانياً في ظل عرف يشير إلى عدم وجود دور حقيقي لنساء العائلة سياسياً. ولكن الحقيقة هي أن الأمور العائلية كانت تختلف عن الشأن السياسي؛ فحين يكون الأمر عائلياً ويتعلق بزواج الأبناء وارتباطاتهم وشؤونهم الحياتية، فإن جدتي في ذلك الحين تكون صدام حسين.

إحدى مدبرات المنزل كانت بدوية أو «عُرُبِيّه» من الجنوب، وكان اسمها غاليه، وتتميز بحكمتها ولبسها الجنوبي التراثي المطرز، وتعيش في منزل جدتي منذ مدة. وقد دخلت في نقاش مع جدتي حول جدارة حسين كامل في أن يكون زوجاً لرغد. فقد كان لغالية على وجه الخصوص تأثير كبير في تحويل موقف جدتي من الرفض القاطع إلى الحياد على أقل تقدير، ومن ثم إلى الموافقة.

وفي عرف عائلتنا العشائري، لأبناء العمومة المباشرين الحق والأولوية في الزواج من ابنة عمهم. وبعد ذلك ابن الخالة، فالأبعد فالأبعد... ورغم أن أعمام والدتي إخوان غير أشقاء لجدي صدّام، إلا أن العرف العشائري كان ينطبق في تلك الحالة. وكان هناك عدد من أبناء أعمام والدتي يرغبون بالتقدم لها، ولهذا قامت القيامة على والدي لأنه تجرأ وسبق بالطلب. وخاصة مع عدم وجود ود بين عائلتي؛ «إبراهيم الحسن» والد أعمام أمي، وعائلة «كامل الحسن» جدي لأبي؛ ما حدى بأحد أعمام والدتي وهو وطبان أن يهدِّد والدي بأنه سيذبحه إذا أكمل طريقه في الزفاف من أمي.

وقد غضب عمّا والدتي الآخران برزان وسبعاوي لغضب شقيقهما آنذاك...حينها، أبلغ والدي حسين الشاب عمّ والدتي وطبان والآخرين بكلمات قوية تعكس شخصيته: «سوف آخذ رغد. وأريد أن أرى من هو الرجل القادر على منعي من ذلك!».

بعد إتمام الخطوبة، كان عم والدتي برزان رئيساً للمخابرات، وكان والدي مسؤول جهاز الأمن الخاص ومسؤول الحرس الجمهوري. وأثناء مجيء والدي ومحاولته الدخول إلى دائرة المخابرات التي يعمل بها تم منعه من

الدخول، فأخبر والدي الحرس بأنه يملك كارت البوابة الذي يخوّله الدخول، ولكن الحرس أبلغوا والدي أن تصريح دخوله موقوف. واتصل حرس البوابة بشكل مباشر ببرزان ووالدي لا يزال واقفاً عند الباب، فأخبر برزان الحارس بأن يوصل الكلام كما هو، حيث أبلغه بأن يقول لحسين إنه ممنوع من الدخول إلى مبنى المخابرات بأمر منه وأن ينقل له مسبة عليه وعلى أهله. وحين أبلغ الحارس كعبد مأمور والدي برسالة برزان بالحرف كما أُمِر، أبلغه والدي بأن يبلغه المسبة نفسها على لسانه.

في اليوم نفسه، أبلغ والدي جدي بما حدث عند بوابة مبنى المخابرات، فاتصل جدي ببرزان غاضباً، وقاله له بالحرف: «برزان، هذا نسيب صدام حسين، وهيجي تعامله!! لعد الناس العادية شنو أتسوي بيهم؟!».
غضب برزان مع إخوته الآخرين فقدم استقالته وقبلها الرئيس فوراً.

لم تعد العلاقات بين الأسرتين كما كانت قبل الزواج. وقد فهم والدي الحيثيات المرتبطة بغضبة أعمام والدتي، وحرص أيضاً كعادته في العجلة وحب الإنجاز السريع على أن يكون المهر والزفاف في أسبوعين متتاليين.

في عقد القران، شهد على العقد كل من عم والدي علي حسن المجيد وصديق آخر. وقد كان جدي كامل يُعتبر أكثر «البيجات» ثراء، فأرسل إلى والدتي عشرات القطع كأكبر «نيشان» عرفه العراق الحديث. ولكنها رفضت بشكل قاطع وهي ابنة الأربعة عشر ربيعاً، واختارت أربع قطع أو خمساً جميلة و«ثقيلة» فقط، وأعادت الباقي. وما زال ((نيشان)) والدتي يُذكَر ((كنيشان)) غير مسبوق حينها.

والشيء بالشيء يذكر. فحين زوَّج جدي ابنه «قصي» وسُئل عن سبب كون ((نيشان)) رغد أكبر من نيشان قصي رغم كونه ابنه الأول الذي يتزوج، قال جدي ممازحاً: «قابل آني كامل الحسن!».

وقد اعتقد الكثيرون أن سبب استعجال والدي حينها هو محاولته تجنب أي عمل أحمق قد يقوم به أحد من الرافضين للزفاف. وأقيم عرس والدتي بلا زفة، ووسط تدابير أمنية شديدة، وتأخرت «بدلة» أمي البيضاء التقليدية، فاقترحت أمي أن ترتدي أي «بدلة» أخرى، بينما أصرت جدتي على ألا تخرج ابنتها إلا «ببدلة» عرس تقليدية بيضاء. وأقيم الحفل الصغير الذي كان اللبنة الأولى في تشكيل أسرتنا الصغيرة وتاريخنا المستقبلي الذي سيحمل الكثير من السعادة والألم معاً. أقيم زفافهما بشكل هادئ في صالة الضيوف، وحضره لفيف منتقى بعناية وعدد قليل جداً من الأصدقاء والأقارب.

لم يكن ذلك العدد يهمّ والدتي أبداً؛ فقد كان هناك أمر واحد ووحيد تفكر فيه؛ وهو الوقت الذي سيجمعها بوالدي حسين كامل وحياتها القادمة. فيكون حسين رجلها الوحيد في هذا الزفاف، وخاصة مع التقاليد التي تَعْتَبِرُ حضور الإخوة والأب عرس ابنتهم عيباً. وعلى الرغم من أن خالي «عدي» كان يناقش في قضية حضور الإخوة لعرس أخواتهم، وحق الفتيات في أن يرين إخوانهن معهن ويفرحن بوجودهم إلا أنه لم يحضر أيضاً.

... وبقيت تقاليد العشيرة أقوى من كل تيجان السعادة الأخرى.

الفصل الثاني الطفولة المبكرة: العائلة والخالين عدي وقصي

كان من الواضح أن جدي قد وصل إلى أقصى درجات غضبه. فقد التفت إلى والدي حسين كامل وهو يشير إلى خالي عدي، وقال لوالدي بكلمات مقتضبة وآمرة لا مجال فيها للنقاش أو الجدال: «جتف عدي... وذبه بالسجن». وقد كان ذلك!!

* * *

لم يكن لدى خالي عدي منصب رسمي مهم؛ على الرغم من أنه الابن البكر لجدي؛ على عكس خالي قصي الذي كان مسؤولاً عن أجهزة الأمن الخاصة التي تزوده بأدق المعلومات عن كل صغيرة وكبيرة في البلد.

وهذا ما يفسِّر اختلاف ردود أفعالهما على المسألة نفسها في أحيان كثيرة؛ وذلك لاختلاف كل منهما عن الآخر، وهو أمر طبيعي عند الكثير من الإخوان، بل واختلاف طبيعة مصدر المعلومة لدى كل منهما. وأي حديث عن كره متبادل بين ابني صدام هو حديث من لا يعرف شيئاً عن هذه الأسرة. فأبناؤه الخمسة كانت علاقتهم ببعضهم طيبة دائماً، وتسودها درجة عالية من الاحترام. وعلاقة خالي عدي بخالي قصي كانت علاقة دم؛ يكفي لإثباتها أنهما استشهدا معاً، واختلطت دماؤهما في الشهادة.

كان خالي عدي كثير الهوايات؛ مثل البولينج وكرة الطاولة والتنس الأرضي وركوب الخيل والصيد، كما كان يعشق رياضة البولو، والكثير من الرياضات الأخرى، ويراقب وزنه باستمرار، ويمارس العديد من أنواع الحمية، ويتناول وجبة واحدة يومياً، ويهتم بصحته؛ والتي تشكل تبايناً

ربما عند البعض بشكل عام مع حرصه الشديد على صيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، وأداء الصلوات. كانت هذه شخصيته.

وهناك تباين جميل آخر لم يعرفه الكثيرون، وكان يتبدّى لهم بمجرد تبادل عدة جمل مع ذلك الشاب المدلل؛ إذ كانوا يكتشفون على الفور ذكاءه وثقافته الموسوعية. ولكن، لم يكن لديه الكثير من الأصدقاء، وهم الذين لم يكن يحسن اختيارهم مع الأسف. وفي ما بعد، كنت كثيراً ما ألتقي أشخاصاً التقوا خالي «عدي» أو عملوا معه، وألمس في حديثهم أنهم ما زالوا معجبين به إلى الآن.

قراءاته كانت متنوعة، ولكنه كان يقرأ بشكل خاص في الديانات والمذاهب. كان يرى أن الصلاة على الطريقة الشيعية بإسبال اليدين، أو تلك التي تشبه المذهب المالكي أصح؛ ما يستوقف كثيراً بعض أفراد العائلة الذين كانوا يشبّهون صلاته بالصلاة وفق المذهب الجعفري، ويسألون خالي عن السبب، وعمّا إذا كان هذا هو سبب الإشاعة التي قالت إن خالي قد اقتنع بالمذهب الجعفري. فكان خالي عدي يبتسم وهو يوضح لهم الأمر بقوله: «لقد قرأت أن الإسبال أصح في الصلاة». إذ كان كثير الاطلاع على تفاصيل المذاهب المختلفة، ويتمعن في أقوال العلماء فيها!!

ومثل كل شيء في العراق، كان آخر ما يفكر فيه أو يهمه هو الطائفية. وقد عززت قراءاته من قبوله للجميع. كان هناك عدد من العاملين لدى خالي عدي، وهم من كافة أطياف الشعب العراقي مثل الأيزيدية والسنة والشيعة والنصارى والعرب والأكراد. لم يكن يؤمن بأن وجود أطياف مختلفة تعمل معه يشكل ثغرة أمنية. وأذكر أن أحد العاملين الأيزيديين لديه كان يقوم بعمل أثناء جلوسنا إلى جواره، فأشار خالي عدي إلى

علبة أعواد الثقاب – أو «الشخاطة» كما نسميها.. كانت موجودة على الطاولة، وسأل الأيزيدي عن تسميتها لديهم، فابتسم الأيزيدي بحرج لأنه يوجد ما يمنعهم من ذكر اسمها عقائدياً. وهذا ما جعل خالي «عدي» ينفجر ضاحكاً وهو يكرر السؤال بإلحاح، فيكرر عامله الأيزيدي الامتناع عن الإجابة وهو يبتسم.

كان خالي عدي من أكثر الأشخاص تغييراً لنمط لبسه باستمرار. وكان في كثير من الأحيان يحب ارتداء اللبس العربي. ويتميّز بالشجاعة والشهامة والرجولة، ويضع دائماً شعار الجمهورية، وتحته نقش اسمه عدي صدام حسين على جيب دشداشته البيضاء.

* * *

«خالج عدي يريدكم كلكم...!!».

هتفت بها والدتي في المزرعة التي كنت أحتفل بها مع أصدقائي بمناسبة رأس السنة. أرسل خالي «باصاً» صغيراً وجميلاً. لم أكن أعرف ما ينويه!! ولكنّ الأرض لم تكن تتسع لسعادتي!

لم يبدأ هذا العام الدراسي بتلك السعادة على الإطلاق. فقبل فترة، كنت حزينة جداً وأنا أنظر إلى نتيجتي في مادة الرياضيات التي أكرهها: ثمانية من عشرة. ثمانية شاذة بين مجموعة من العشرات... جدّي هو من يوقع على الدرجات في العادة بعد الاطلاع عليها. نظرت إليّ المعلمة وقالت في لهجة تشي بتواطؤ طفولي معي:

«لا تخشي، سأكتبها عشرة كي يفرح جدو».

وبالفعل، كانت النتيجة بفضل معلمتي الحريصة على سعادة جدي ممتازة. وهي فرحة صغيرة نسمع بعدها عبارات الثناء من جدي صدام الذي يُقبّلنا، ويُوقّع على الشهادة في خانة اطلاع ولي الأمر. وفكرت والدتي في أن تجمع طلاب فصلي في منزلنا للاحتفال برأس السنة.

قررت والدتي الاحتفال بي في مزرعتنا الواقعة في منطقة الدورة للحفاظ على ما في المنزل؛ بالنظر إلى عدد التحفيات والبلورات والأمور القابلة للكسر في منزلنا، والتي لن تصمد مع عبث عشرات الصبية والأطفال.

كانت مزرعة الدورة هادئة وجميلة، بها منزل ومسبح مغطى، وتحفها الحمضيات من كل الاتجاهات. نقصدها عادة مع أبي، غالباً يومي الخميس والجمعة، حيث كانت عائلة والدتي تزورنا يوم الخميس، وأحياناً تزورنا فيها عائلة والدي يوم الجمعة. وفي أحيانٍ كثيرة، كنا نذبح فيها خروفا أو نمارس الشوي ونتمتع بأجواء عائلية خاصة...

بدأ الاحتفال مع الأطفال في الوقت نفسه الذي اتصل فيه خالي عدي بوالدتي ليسألها عن موعد قدومها لاحتفال كان قد دعاها إليه سابقاً، فأخبرته بأنها لا تستطيع تلبية دعوته بسبب وجود احتفال لأصدقاء «حرورة»، وأنها لا تستطيع الحضور بسبب ذلك الاحتفال ولا ستطيع ترك الأطفال بمفردهم...

طلب منها خالي أن تحضر «الجهال» كلهم وتأتي معهم إليه... فوافقت والدتي، وأرسل خالي «باص» السعادة الذي جعلني أفخر أمام أصدقائي به...

في تلك الأيام، كان عدي هو «عدي»... الابن الاكبر موفور الصحة للرئيس العراقي الأقوى. لذا، كنت فخورة جداً أمام أصدقائي وصديقاتي بأنه جاء من أجلي، بل ومعه «باص» ليحمل الجميع.

أو كما يقال، ((منو قدي))!

وصلنا إلى بيت خالي عدي الذي كان فيه الاحتفال، ويقع بجوار أحد أكثر الملاهي شعبية في مدينة بغداد في ذلك الحين، واسمه «مدينة الأعراس»... وصلنا في غير أوقات العمل الرسمية، فأمر خالي المسؤولين عن مدينة الأعراس بفتح حديقة الملاهي لنا بشكل خاص؛ لي ولأصدقائي والحضور من أبناء صفي...

ثم قام خالي باستئجار عربة تجرها الخيول، ووضع الأطفال فيها، وطافت وهو معنا في جميع أنحاء الحديقة. قضى خالي اليوم كله معنا...

كان سياقاً عائلياً سعيداً... وقتاً للعائلة...

كان خالي عدي مفعما بالحب وبالإقبال على الحياة... ولكن اختياراته لم تكن متوافقة مع تطلعات جدي دائماً. ولا مع مقاييسه العشائرية أحياناً... وهو ما أدى إلى صدامات بشكل مباشر بينهما في السابق...

ومن أشهر مواقف المواجهات بين خالي عدي وجدي في السابق، حين وقع خالي عدي في غرام امرأة غريبة عن العائلة، كانت على ما يبدو زميلة له في المرحلة الإعدادية... وتطوّرت العلاقة بينهما إلى أن وعد خالي عدي والدة الفتاة بالزواج منها بعد أن ينهي دراسته الجامعية.

وحين واجه خالي عدي جدي برغبته في الزواج من الفتاة، رفض جدي صدّام الأمر بشكل قاطع، فسأله خالي عن سبب صمته طوال الفترة

الماضية؛ وهو الذي يعرف حتماً، وتنقل له عيونه أنه يتردد على منزلها... والعراق كله يعرف بقصتهما، فأجاب جدي بعملية:

«ظننتها علاقة عابرة».

ولكنها لم تكن علاقة عابرة في واقع الحال. فقد كان خالي عدي متعلقاً بالفتاة بشكل جدي كعلاقة يجب ان تنتهي بالزواج، والدليل على ذلك أنه جعلها تحضر مهر خالي قصي بشكل رسمي، بل وأوصى والدتي بها، وكان يضع صورتها بجوار صورته وصورة نبع ابنة خالتي رنا التي يحبها في إطار عائلي في غرفته ضمن شجرة العائلة، وكان يغار على تلك الفتاة لدرجة أنه أمر بجعل هاتف منزلها ذي الأرقام السبعة لا يستقبل إلا أرقامه الخاصة فقط. كل المؤشرات كانت تدل على أن العلاقة جدية...

حين علم خالي عدي برفض جدي صدّام حسين والأسرة بشكل مطلق لارتباطه بتلك الفتاة أصر على التقدم لها، حتى إن أدى ذلك إلى فك ارتباطه مع العائلة والتنازل عن جميع الامتيازات التي يتمتع بها ليعيش كمواطن عادي... حيث كان من المعروف أن «عدي» لا يمانع أن يموت في سبيل أي قضية يحبها أو يؤمن بها. وقد صدق هذا عن خالي عدي في قصة استشهاده...

لذا، أمر جدي حينها بوضع جميع هواتف خالي عدي تحت الرقابة العائلية، وكان المشرف على مراقبة الهواتف الخاصة بخالي عدي هو عمي صدام كامل... كانت نساء العائلة رافضات تماماً لفكرة ارتباط خالي بتلك الفتاة.

بعد فترة من المراقبة، تم تفكيك الشيفرة الكلامية لإحدى المحادثات، والتي أشارت إلى أن خالي (عدي) قد رتب مع إحدى السفارات الأجنبية عبر سفيرتها في العراق، ومع عائلة الفتاة بأن يرسل لهم أحد الأشخاص ليقوم بتهريب الفتاة ووالدتها إلى الأردن، ثم يلتحق بهما ليتم زفافه إليها في إحدى الدول الأوروبية...

ثارت ثائرة جدي حين وصلته الأخبار، وحدث اجتماع للعائلة؛ وهو الذي تحدّثت عنه في أول هذا الفصل، حيث كانت العائلة مجتمعة في قصر القادسية في الطابق الأرضي، وكانت هناك سلالم تصل إلى الأجنحة في الطابق الثالث. وبعد أن اشتد الحوار، ذهب خالي عدي إلى جناحه ثم نزل، وكانت والدتي وشقيقتها وزوجاهما يتواجدون بجانب جدي صدام حسين وجدتي ساجدة. وحين رأى جدي خالي «عدي» بالزي الرسمي وبكامل قيافته، وكان يرتدي بذلة توكسيدو سأله: «وين العزم؟».

فأجابه خالي عدي بتحدٍّ: «أنا ذاهب لخطبة المرأة التي أحبها. وإذا وقفت ضدي في هذا فسوف أطلب اللجوء في الخارج وأعارضك...».

عندها، أصدر جدي لوالدي الأمر الذي تحدثت عنه: «چتفه وذبه بالسجن...»!

كان عدي يمثل الكثير بالنسبة إلى والدي؛ فهو صديقه، ونسيبه، وابن عمه، وهو ابن الرئيس...!

لذلك، وقع والدي في حيرة بين ما يمثله عدي له وعلاقتهما الممتازة، وبين ضرورة تنفيذ الأمر العسكري الوارد من جدي صدام حسين، فنظر والدي لجدي باستغراب وحيرة...

لذلك، قام والدي بضم خالي عدي من الخلف بطريقة ودية أشبه بالحضن... وصرخ جدي فيه مرة أخرى بقوة: «أقولك چتفه وذبه بالسجن...»!!

... وحين يغضب جدي، فإن العالم كله يرتعب!

لذا، أخذ عمي صدام خالي «عدي» إلى الخارج بسرعة وهو يقول له: «ياللّه عدي نمشي». وكذلك فعل والدي خوفاً من تطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه.

أصدر جدي هذا الأمر باعتقال خالي عدي، وأرسل والد الفتاة خبراً إلى خالي عدي راجياً إياه أن ينسى موضوع ابنته وأن كل شيء قسمة ونصيب، ناخياً إياه أن لا يتسبب لهم بمشاكل لأنه هُدِّد.

أحس خالي عدي بالمرارة.

واعتبر أنه قد حُرِم من حقه في الحب.

وقد تركت هذه الحادثة على خالي عدي أثراً نفسياً كبيراً؛ فقد لازمه إحساس بالعجز عن الإيفاء بوعد قطعه لعائلة فتاة أحبها بصدق.

كان خالي بشكل واضح ابناً مدللاً، وقد أثر ذلك الدلال بشكل أو بآخر على سمعته في المجتمع العراقي أحياناً بإنصاف، وأحياناً أكثر بعدد من الإشاعات والأكاذيب التي وصلت إلى درجة اتهامه باختطاف بنات من الجامعة واغتصابهن وقتلهن...!! وهو الأمر الذي لا يصدِّق عقلٌ أن يحدث في دولة يحكمها القانون، علاوة على أن يحدث في دولة يحكمها صدام حسين... فعراق الأمس ليس كعراق اليوم... كان دولة قانون... فالخاطف يُقتل... ولا تحميه دولة هشة ولا مليشيات...!

والدليل على قوة القانون هو حادثة مهمة أثرت في سمعة خالي على الصعيد المحلي لكثرة ما تناولها الناس بالفهم الخاطئ والمبالغة. وبالطبع، المصادفات التي تلعب الكثير من الأدوار السيئة أحياناً... وهي حادثة مقتل حنا، السفرجي الشهير السابق لدى جدتي ساجدة.

بعد سنوات طويلة من عمل حنا لدى جدتي، أصبحت له مكانه كبيرة سواء أكان في مجتمعه المسيحي داخل بغداد، أو بشكل عام في المجتمعات الراقية ووسط طبقة المسؤولين... ومع الوقت أصبح أيضاً محط ثقة كبيرة عند جدي صدام حسن.. اعتاد الشعب العراقي على رؤيته كثيراً مرافقاً له على شاشات التلفاز.. مما زاد من الصلاحيات والنفوذ التي أوكلها لنفسه.

وفي يوم ما، كان حنا يُقيم سهرة ليلية خاصة به في مدينة الأعراس داخل أحد المواقع الرئاسية التابعة للدولة وهو ما لم يكن مسموحاً لأحد، وكان ذلك بالقرب من موقع دجلة الذي يسكنه خالي عدي، وكعادة الكثير من العراقيين، كان حنا يُطلق الكثير من النار في الهواء في تلك الليلة، كان ذلك ليلة الأحد على الإثنين، حين كان خالي عدي جالساً في حديقته الخلفية ناوياً صيام اليوم التالي (الإثنين) كما المعتاد.

وقد كانت أيضاً السيدة سوزان مبارك سيدة مصر الأولى تحِل ضيفة على العراق في ذلك اليوم. سمع خالي عدي صوت إطلاق الرصاص، فسأل عن مصدره وتم إخباره أنه حنا... عندها انزعج خالي، وخشي أن يزعج صوت رصاص حنا عند منتصف الليل نوم الضيفة سوزان مبارك، فأرسل إلى حنا من يطلب منه أن يتوقف عن رمي الرصاص في الهواء، ورد حنّا بعد هذه التوصية بإطلاقات نار أكثر كثافة من التي

سبقتها، خاصة وهو تحت تأثير الخمر... كرّر خالي طلبه وكرّر حنا تجاهل الطلب.

عندها، غضب خالي وذهب بنفسه ومعه أحد أصدقائه وشخص آخر من الحماية وهو يحمل معه عصا تسمى بالعراقي «عوچيه» لها رأس حية (ثعبان) التقطها سريعاً من بين مجموعته المميزة من العصيِّ الموجودة دائماً بالقرب من الباب لتكمل لباسه العربي وهو الدشداشة وعباءة على كتفه، وبعد التلاسن مع حنا، قلب خالي العصا وضربه برأس الحية على القبة.. اعتقد خالي أنها ضربة تأديبية، وسقط حنا مغمى عليه - أو بدا الأمر لخالي كذلك - وخرج خالي من المكان.

وفي الصباح، فوجئ خالي بالكثير من المكالمات الصباحية. وحين استفسر عن سببها وفحواها، أُبلغ بأن الرئيس قد أمر بإلقاء القبض عليه لقتله حنا.

وحين جاء الجنود للقبض على خالي عدي، كان قد ملأ مدخل منزله بالأسلحة، وهو يصرخ مُقسماً إنه سيقوم بقتل أي شخص يجرؤ على الاقتراب منه. كان يعتقد أن أحدهم قد قتل حنا ويريد إلصاق التهمة به. كان مؤمناً ببراءته.

تدخلت جدتي ساجدة، وتدخل والدته هو ما جعله يسلم نفسه. وتم اتخاذ الإجراءات القانونية، وحُبس خالي على ذمة التحقيق، ثم أخذه جدي بنفسه إلى السجن...

كان سجناً عادياً عبارة عن باحة رملية لها سياج خارجي، وبها عدد من الزنازين...

وفي الباحة طاولات وكراس بلاستيكية.

وكان جدي يأخذ مفتاح السجن معه.

كانت العائلة تزوره في تلك الأيام وهو في سجنه بشكل يومي. فيأتي صدّام حسين والد السجين، ووالدته، وأمي، وخطيبته في تلك الأيام وهي هوازن؛ ابنة صديق جدي عزت إبراهيم الدوري، والتي كان لها ولأسرتها معنا موقف طيب في أيامنا الأخيرة في العراق...

كانت العائلة تجلس لديه لمدة ساعة أو ساعة ونصف ثم تغادر. وكثيراً ما كان جدي يفرش سجادة الصلاة الخاصة به في زنزانة عدي ويصلي هناك.

كان عدي يطلب من البنات الثلاث (والدتي، وخالتي رنا، وخطيبته) أحياناً أن يقمن بغسل ملابسه أو تنظيف زنزانته.

كانت العائلة كلها تزوره بين فترة وأخرى وتتناول العشاء معه. وقليلاً ما تجيء الخالة لمى زوجة خالي قصي.

أمر جدي بفتح تحقيق وتشكيل لجنة لاتخاذ القرار بشأن ما حدث، ومنع عنها أي ضغوطات، وأوصى أعضاء اللجنة باتخاذ الإجراءات القانونية المعتادة...

مباشرة، طلب جدي قرار اللجنة، وقام بالمصادقة والتوقيع عليه.

عرفت جدتي أن جدي جادّ، وسيقوم بتطبيق القرار على خالي كما يطبق القرار على أي شخص آخر. ورفض جدي تنازل أولياء الدم لكي لا يُقال إنهم تنازلوا خوفاً.

بدأ جدي يتململ من كثرة الوساطات، ووصل به الأمر إلى سؤال شيوخ القبائل المقبلين عليه عن سبب زيارتهم ومصارحتهم منذ البداية:

«إذا جايين علمود عدي... فهو غير قابل للنقاش!!».

عندها، قامت جدتي بخطوة ذكية، وهي تعرف عمق العلاقة في ذلك الحين بين جدي صدّام والملك حسين بن طلال رحمه الله ملك المملكة الأردنية الهاشمية، فقامت بالاتصال به في عمّان هاتفياً، وطلبت منه القدوم بشكل عاجل. وفعلاً، جاء الملك حسين بسرعة، وطلبت منه التوسط لدى جدي...

كان جدي يحب الملك، وقد خصّص العراق منذ مدة راتباً ثابتاً للعائلة المالكة الأردنية، بالإضافة إلى أشكال مختلفة من الدعم.

وبدهائه المعروف، بدأ الملك حسين بزيارة عائلة حنا لتطييب خاطرهم، وفهم منهم أنهم أصلاً لم يرفعوا دعوى بشكل رسمي... ثم ذهب إلى جدي، وطلب منه بالطريقة العربية التقليدية ألا يرده خائباً في مطلبه... ووافق جدي...

وكان طلب الملك من جدي أن يقبل بالاحتكام إلى الشرع والدين وتنازل أولياء الدم؛ وخاصة أن أهل القتيل لم يرفعوا دعوى ضد خالي عدي...

بل إن أفراد عائلة حنّا جاؤوا بكبارهم وقسيسيهم، وظهروا على شاشات التلفاز العراقية وهم يقولون إن ما حدث كان قضاء وقدراً، وأكدوا لجدي أثناء اللقاء أن له أفضالاً كبيرة عليهم، وهذا سبب كافٍ لتنازلهم على حدّ قولهم وحسْب.

وقد دفع الملك حسين لتوجيه القضية على أنها قتل بالخطأ.

انتهت القضية، ولكنها ألقت - كما حدث في قضية خطوبة خالي عدي- بظلالها على حياة خالي وعلى علاقته بجدي، ثم جاءت قضية

أخرى مشابهة، ولكن هذه المرة مع أحد أعمام خالي المباشرين وهو عمه وطبان...

كان لؤي خيرالله طلفاح متواجداً في سهرة وطبان بمناسبة ذكرى الانتصار على ايران ٨/٨، وفي الجلسه أهان وطبان صديق لؤي راكلا إياه برجله، مما دفع لؤي لأن يتدخل حتى تطور الشجار بينهم الى إهانات متبادله، مما جعل لؤي خير الله طلفاح يغضب من إهانة وطبان له ولصديقه، فذهب ليشتكي إلى خالي ويقول له: "هل ترضى بأن يهان خالك؟" وطلب فزعته!...

وعليه، ذهب خالي عدي إلى مزرعة وطبان وعند وصوله اعتقد وطبان أن خالي عدي جاء للزياره فأمر حمايته للخروج إلى استقباله بسرعه وحين خرج الحرس ومعهم أسلحتهم بهذه الطريقه اعتقد خالي عدي بدوره أنهم يهاجمونه وبسبب الظلام لم يكن قد انتبه بأن عمه خرج معهم، ففتح خالي عدي النار على أرجل من خرج له بشكل عشوائي؛ إلى أن قام لؤي بتحذيره وهو يقول له إن عمه "وطبان" موجود مع حرسه. ولكن تحذيره كان متأخراً؛ إذ كان وطبان قد أصيب في ساقيه فعلا!!

صُدِم خالي عدي وركض سريعا إلى عمه، احتضنه وحمله بين يديه وأخذه في سيارته بنفسه وانطلق بسرعة إلى مستشفى ابن سينا ليتلقى العلاج اللازم..

وانطلق بالسرعة ذاتها ليتوارى عن الأنظار خوفا من عقاب الرئيس صدام حسين لفتره حتى تهدأ الأمور، غضب جدي بشكل كبير من خالي عدي الذي أكد لنا بأنه لم يكن يعلم أن "وطبان" معهم وأنهم لم يقصدوا مهاجمته..

كان ذلك بعد أن تصرف جدي قبل ان يسمع من خالي ما حدث واتخذ اجراءاً كان قاسيا جداً على خالي عدي وأدت الحادثة إلى قطيعه بينهما دامت ثمانية أشهر، والبركة بمن صب الزيت على النار ولتلك الحادثة المؤلمة قصة اخرى..

ومن الطرائف التي رواها لنا خالي عدي أن أحد الزوار قام بإهداء وطبان في المستشفى لعبة هي عبارة عن كرة يقوم المريض بالضغط عليها للتنفيس عن غضبه.

وهي اللعبة ذاتها التي أهداها وطبان لخالي عدي بعد عدة سنوات حين تبادلا الأدوار بعد محاولة اغتيال خالي عدي الفاشلة.

كان خالي عدي يعني الكثير لوالدته؛ فهو بِكرُها وهو بطلها... كأي عائلة عراقية وعربية... وكانت أمه نقطة ضعفه الوحيدة منذ ولادته وحتى وفاته.

وكانت علاقته بأمه قوية جداً، يحبها وتحبه. حين يقال لجدتي إن خالي «عدي» على الهاتف أو على الباب تختلج ملامحها، ويظهر شبح ابتسامة عليها؛ وهي المرأة المتحفظة بطبعها. كان خالي عدي نقطة ضعفها، وكانت أمه أي جدتي ساجدة نقطة ضعفه. وحين يأتي إلى المنزل بطوله الذي يزيد عن طول جدي صدام بسبعة سنتيمترات يفتح ذراعيه على آخرهما لاحتضانها. وطلباتها مجابة لديه قبل أن تطلب...

وهنا سأتحدث عن قصة توضح طبيعة علاقة خالي عدي بوالدته جدتي ساجدة...

ففي إحدى السنوات، كانت جدتي تقيم بشكل مؤقت في منزل بجوار قصر القادسية، وكانت علاقتها بشقيقتها وزوج شقيقتها برزان شقيق جدي قوية، أو لنقل إنها أقوى من علاقتها بالآخرين.

وذات يوم، قال لها برزان بعد زيارته لها إنه من المؤسف أن العراق يمر كل فترة بحروب ومشاكل وهذا الأمر «ما يصير»!

وحين جاء جدي صدّام حسين، نقلت له جدتي الرسالة، وحدث نوع من المشادة بينهما... كأي مشادة تحصل بين أي زوجين.

ختم جدي الحديث بقوله لجدتي: «إذاً، بما أنك قلقة من الحروب وترين أن حياتك معرضة للخطر، اذهبي إلى منال الآلوسي رئيسة اتحاد نساء العراق، وأخبريها بأنك ترغبين بالانفصال عني».

كان لجدي تقديسه الخاص للنواحي الاعتبارية والأدبية، ولا يحيد عنها تحت أي ظرف. فهو لم يكن ليطلق رفيقة دربه و«أم أولاده» ابنة خاله. ولكن، إن كان ولا بد من ذلك فليكن الإجراء من طرفها هي.

صعدت جدتي إلى جناحها ولحقتها أمي، كانت تصلي.

ثم أعلنت أنها ستغادر إلى بيت الجادرية.

كان في ذهابها رسالة غير مباشرة؛ فبيت الجادرية ملك لها، بينما بيوت القادسية ملك للدولة، ومرتبطة بارتباطها بجدي...

خالي عدي كان كالعادة سندها، ولم يكن ليقف ضدها في أي شيء ولا تحت أي ظرف، حتى إن كان الخصم هو صدام حسين شخصياً.

لا شيء يعلو على الأم عند عدي.

قال خالي عدي لجدتي بوضوح:

«إذا تركك والدي فسوف أجعلك تعيشين عيشة أفضل بمائة مرة من عيشتك معه، وسأجعل لك وارداً بعشرة أضعاف الوارد الذي كان لديك، ستبقين دائمة معززة مكرمة...».

بينما من الناحية الأخرى، كان خالي قصي يقدس والده صدام حسين، ولا يقف ضده أبداً...

كان معه جملة وتفصيلاً، لا يعارضه تحت أي ظرف.

لم يكن ضد والدته، ولكنه كان ضد هذا الموقف. ويمكن القول إنه تقاعس عن زيارة والدته في تلك الفترة...

إلى أن انتهت القضية كأي خلاف بين زوجين.

جاء... ومضى!

ربما لم تكن العلاقة بين جدي وخالي مثالية، ولكنها لا تصل إلى ما يشاع عن أن جدي كان سبباً في محاولة اغتياله على سبيل المثال. وكل ما في الأمر هو أن جدي ككل أب طموح كان يريده أن يكون مطيعاً ومشاكله أقل من ذلك...

في تلك الفترة، جددت جدتي الطلب من خالي عدي أن يتزوج. وقد فوجئت - كما فوجئنا جميعاً- بأنه أعطاها موافقته مباشرة وبشكل سريع؛ على الرغم من أنه كان يرفض مجرد فتح الموضوع قبل فترة.

وكانت المفاجأة التي قام بها خالي هي اختياره لسجى ابنة عمه برزان، والتي كانت تقيم في سويسرا منذ طفولتها، ووالدتها هي الخالة أحلام؛ وهي أخت غير شقيقة لجدتي ساجدة.

كانت أحلام زوجة برزان من الشخصيات النسائية القوية، وكان الجميع يتحدثون عنها بإعجاب. فهي سمراء، وأنيقة جداً، وتتقن لغات أجنبية عدة، وليست لديها محاذير عشائرية أو كلاسيكية في الملبس، وتواكب الموضة منذ طفولتها. كانت كما نقول بالعراقية «ذبتها غير».

كانت قليلة الكلام، ولكنها حين تتحدث تُثير الإعجاب بكلماتها المنتقاة وثقافتها الواسعة. وقد تأثرت بشكل إيجابي بمناخ عمل زوجها في الخارج، حيث كان السفير في سويسرا. كانت امرأة ذكية وواسعة الحيلة. كان قصرهم في بغداد جميلاً وممتلئاً بالقطع «السينييه» النادرة والموثقة، ولديهم طاقم عمل من الأجانب. وكانت لدى الخالة أحلام هواية الرسم على «البورسالين» بشكل خاص، وكانت مُبدعة فيها وتتقنها بشكل احترافي.

ورزقها الله وزوجها برزان بستة أبناء.

وكما كانت خالة والدتي أحلام مختلفة عن نساء العائلة، كان زوجها برزان -عم والدتي- مختلفاً عن رجال العائلة بدوره نوعاً ما.

وكان لديه نمط حياة مختلف أقرب للنمط الغربي. إذ يعشق الخيول، ويربيها في مزرعته في سويسرا، ويذهب مع زوجته إلى سهرات مختلطة، ولم يكن محبوباً جداً لدى العراقيين لترؤسه جهاز المخابرات رغم أنه طوّره وكان يعتبر عقلية مخابراتية ممتازة.

من تلك المرأة ومن ذاك الرجل جاءت الابنه سجى الهادئة بملامحها وتصرفاتها.

وطلبها خالي عدي...

كان خالي قد خطب لفترة قصيرة ابنة صديق جدي ورفيقه عزت الدوري، ولكنه غير رأيه بعدها بفترة قصيرة. لذا، حين خطب ابنة عمه برزان، قال العم برزان لخالي عدي:

«لا تعتقد أن سكننا في سويسرا قد غيّر من جيناتنا. فسجى لا تزال الفتاة الصغيرة التي تذكرها. فهي ما زالت سمراء، وما زال شعرها كما هو». فضحك خالي وقد فهم ما يرنو إليه عمه؛ إذ أن سمعته كعاشق للمرأة الشقراء تسبقه. وحتى في طفولتنا، كانت أحب الأحفاد إليه ابنة عمي صدّام كامل واسمها نبع، وقد حباها اللّه بشقرة وألوان محببة... وكان يحب أخذها في سيارته وملاعبتها، ولكنه أكد لعمه برزان أنه جاد، وأنه يرغب بالزواج من سجى.

عندها، أعطاه عم والدتي برزان الموافقة، وطلب من سجى القدوم من سويسرا. وقد جاءت بالفعل وهي تحمل حلوى كان خالي عدي يحبها، ولكنها جاءت امرأة ولم تعد طفلة. كانت شديدة الجاذبية، وطويلة، وأنيقة. وقد صُدِم الجميع بالتغييرات التي طرأت عليها. ربما لم تصل إلى «كاريزما» أمها الطاغية وجاذبيتها، ولكن بدا من الواضح تأثرها بها شكلاً ومعنى. وحيث أن العادات تقضي بأن تكون الخطبة وكتب الكتاب في يوم واحد، فقد كان ذلك...

وبعد الزفاف، تم تحديد الطابق العلوي في قصر القادسية لسكنها مع خالي عدي، وتم تأثيث الجناح وتجهيزه. كان هناك العديد من مجلات

الموضة العالمية متناثرة هنا وهناك، وكانت «براويز» اللوحات و«نفاضات» السجائر المصنوعة من البورسالين تحمل في نقوشها بصمات والدتها أحلام ورسومها بوضوح.

نفخت سجى الكثير من الحياة في قصر القادسية، بإطلالتها المتميزة، ولغتها العربية الثقيلة اللطيفة، والمناوشات اليومية بينها وبين ابنة الرئيس غير المتزوجة والمقيمة في القصر حلا.

تمرّدت سجى أيضاً نوعاً ما على تقاليد الأسرة. ففي أمور «الإتيكيت» و«المكياج» وخلافها كان ذوقها وأداؤها غربياً؛ حيث تأثرت «بالكورسات» التدريبية التي تلقتها في سويسرا، ما دفع بألوان وأنماط جديدة تلوّنت بها حياة القصر الجمهوري.

إلا أنها كانت شديدة التحفظ في الجلسات العائلية، ونادراً ما كانت تتحدث.

وبدا أن خالي «عدي» في طريقه لحبها والتعلق بها. وكان يهمه كسب رضاها؛ على الرغم من أنه كان لا يزال يسهر كما تعود. ولكن بداية التغيير كانت تلوح في الأفق عبر باقة من الورود، أو بعض الشيكولاته، أو فيلم تحبه سجى لدى عودته متأخراً.

وكثيراً ما سمعناهما يتضاحكان، أو رأينا خالي «عدي» يركض وراءها ليطعمها «بقة» اصطادها لها... أو تعلق جدتي على حُبها للتشمس على الرغم من بشرتها السمراء. إلا أن تلك العلاقة لم تأخذ فرصتها الحقيقية لتنضج.

إذ كان خالي عدي الذي اعتاد على نمط الحياة الصاخبة يحتاج إلى الكثير من الصبر لكي يتغير، وهو الصبر الذي افتقدت إليه سجى، واستبقته

بأن تشتكيه لوالدتها، وبدأت اتصالاتها تكثر من زاوية الجناح لأمها... اعتدتُ على رؤيتها جالسة في الزاوية بعد أن تطفئ الأنوار، وتتكلم بصوت خافت أو «تبسبس» في الهاتف كما يقول العراقيون...

بعدها، بدأت التدخلات العائلية، والتي أدت إلى المزيد من انتكاس العلاقة بينهما. فيما استمر خالي عدي بالسهرات التي كانت تفهم ما يحدث فيها كأي امرأة يأتي زوجها متأخراً. كنا متأكدين أن تغير خالي عدي قد حدث فعلياً، وأن كل ما تحتاج إليه العلاقة لتنضح وتنجح هو بعض الوقت؛ لأنه كان فعلاً يحب سجى، ويرغب بأن يأخذ بخاطرها.

في ذكرى عيد ميلادها، قام خالي عدي بدعوة جميع أفراد العائلة إلى المنزل البسيط الجميل المتاخم «لمدينة الأعراس»، وجهّز وليمة غداء، ثم أبلغ سجى بأنه يرغب في رؤيتها في ذلك المكان. كان يقوم بتجهيز مفاجأة لها على طريقته...

مرت الساعات، وانتهى العصر، واقترب موعد غروب الشمس ولم تظهر سجى. كان خالي عدي يتّصل بجميع القصور والأماكن التي يمكن أن تتواجد فيها، ولكن من دون جدوى. كان الضيوف ينتظرون مستعدين للاحتفال، لكي يقوموا بإطفاء شمعة سجى.

وبعد مرور ساعات من احتراق الأعصاب تغدى فيها الضيوف رغم غيابها... واستمر البحث المحموم عبر الهاتف من قبل بدالة خالي عدي... وصلت سجى، وقالت بصوتها الهادئ المميز: «هلا!».

فسألها خالي عدي: «أين كنت؟».

أجابته ببساطة وهدوء: «كنت في العوجة عند أمي».

فمدّ لها هديتها ببرود، وبنوع من العتاب، وظهر أنه يحاول منع نفسه من الانفجار، وقال لها: «هديتج!».

فتحها لها مع نظرات معاتبة غاضبة وبقيت هادئة وبارتباك رددت كلمة شكرا وجلست.

بعدها بفترة، طلبت سجى من خالي عدي أن تعود إلى سويسرا لرؤية أهلها؛ وهو الأمر الطبيعي في حياة أي فتاة تعيش بعيداً عن أهلها. وسألته وسألت جدتي عما يرغبون به من هناك... (كان ذلك قبل عودة والدها برزان وعائلته للاستقرار في العراق سنة ٢٠٠٢).

وعدت خالي «عدي» بأن تُحضر له نوعيات معينة من الشيكولاته التي يحبها من سويسرا.

كان سفر سجى أمراً عادياً.. فهي فتاة متزوجة ذاهبة لزيارة أهلها في محل إقامتهم..

كان توديعها عادياً. فقد نزلت من جناحها في القصر الجمهوري بأناقتها المعهودة، وقبلت جدتي ساجدة على خديها، وتبادلت معها عبارات الوداع والسلام، واستلمت «نثرية» نقدية أعطاها إياها خالي عدي... ثم قام عمي صدام كامل بإيصالها إلى الحدود الأردنية، ومن هناك ذهبت زوجة عدي إلى سويسرا. وبعد مدّة – وهي المدة النى كانت قد قُرِّرت للإجازة – اتصل بها خالي عدي ليسألها عن اليوم الذي حددته للعودة، ولكنها لم تخبره بموعد معين. وبعدها بساعات، اتصلت والدتها بجدتي ساجدة لتبلغها بأن سجى لن تعود إلى العراق إلى أن يتعهد خالي عدي بتطبيق عدة أمور؛ ومنها أن يتوقف عن السهر، وأن يكون لها منزل مستقل عن القصر الجمهوري.

وعلى الرغم من أن خالي «عدي» قد بدأ فعلياً يحبّ سجى، وبدأت المودة الربانية بين الأزواج تظهر بينهما، إلا أن الموقف أغضبه بشدة، وأحس بأنه تعرّض للاستغفال ومحاولة ليّ الذراع. وكان رد خالي عدي عليهم أن يبقوا ابنتهم لديهم؛ لأنه يرفض هذا الأسلوب.

وهكذا، بدأت المشاكل العائلية تزداد، ووصلت الأخبار إلى جدي الذي لم تكفِه المصائب والمؤامرات الخارجية وما يتعرض له العراق، بل زاده أهل بيته هموماً على همه، حتى قال لنا في جلسة عائلية ذات يوم: «مشاكل عائلتي بجفة... ومشاكل العراق كلها بجفة ثانية».

ولكنه جبلٌ حمل همومنا حياً كما حمل فخرنا وعزنا ميتاً!

بقيت سجى في سويسرا متزوجة من خالي عدي، ولكنهما منفصلان فعلياً. وقد بدأت تشتاق إليه، إلى أن حدث الحادث الأهم والأقسى في حياة خالي عدي في فترة ما قبل الاحتلال.

* * *

في الثمانينيات، اشترت جدتي أرضاً في منطقة الجادرية مطلة على نهر دجلة من مالكها السابق، وهو مواطن عراقي كبير في العمر. وقد خططت لتبني عليها بيوتاً لأبنائها جميعاً. وعند فرز الخرائط وتقسيمها، اتضح أنه من الصعوبة بناء جميع المنازل على قطعة الأرض قبل دفع الضريبة للدولة.

وفي تلك الأيام، كانت قيمة الضريبة ٣٠٠ ألف دينار عراقي؛ وهو مبلغ ضخم بمقاييس تلك الأيام. فتقاسمت هي ووالدي حسين دفع الضريبة؛ حيث رفض خالي عدي وكذلك خالي قصي دفع الضريبة. وهكذا، بُنيت بيوت الجادرية التي جمعت جميع الإخوة داخل سورها.

كنا نجلس كأسرة واحدة، ونجتمع كأسرة واحدة؛ حيث إن بيتنا ملاصق لبيت الخالة رنا... نحن الأبناء مع والدتي، وخالتي وأبناؤها- بعد مصيبة ألمت بنا وسأتحدث عنها بالتفصيل في فصل لاحق- حين اتصل بنا أحد الأقارب، وطلب منا فتح قناة الشباب بسرعة. وحين فتحنا عليها، تمت إذاعة خبر فُجِعنا بمحتواه، وأكدت عليه جدتي ساجدة بنفسها والتي جاءت بعد ساعة، وعلى وجهها تبدو أقسى علامات الألم والفزع وهي تقول لأمي وخالتي: «عدي اتصوُب!».

وأبلغتنا أنه حين نُقِل إلى المستشفى، كان قد توفي سريرياً بالفعل؛ فالخط الظاهر على جهاز الضربات أصبح مستقيماً لعدة ثوانٍ، ثم شاء الله وتدخل الأطباء وعادت ضربات القلب...

ثم تركتنا وعادت بشكل سريع إلى المستشفى، وذهبنا نحن في اليوم التالي للاطمئنان عليه وسط حالة من الاستغراب... من؟ ولماذا؟ وكيف؟ كان جدي صدام حسين وخالي قصي موجودين هناك.

أذكر أنه في تلك اللحظات لم يأتِ في بال أي أحد من الأسرة أن يكون أحد المنفذين من العراق، وكنا متأكدين من أن التنفيذ قد جاء من جارة السوء... وفعلاً، بعد سنوات، ظهر على شاشة إحدى الفضائيات العربية من يدعي أنه قام بالمحاولة، وكانت ملامحه ولهجته تشي بأصوله غير العراقية؛ وإن حمل الجنسية العراقية مع من حملها على ظهور الدبابات الأمريكية...

لم يكن خالي عدي يذعن للتعليمات الأمنية الخاصة بالسلامة الشخصية، والتي كان خالي قصي ينبهه إليها، وكان يرى أن الإجراءات الأمنية تحد من حريته كثيراً؛ وهو ذاك الشخص المنطلق والمحب للحياة.

وأنا لا ألومه في ذلك، فقد عشت سنوات عمري منذ الولادة إلى الزواج تحت ظل رشاشات الحراس، وأعرف تماماً ما يعنيه وجود الحرس والإجراءات الأمنية طوال الوقت إلى جانبك. ولكننا في كثير من الأحيان لا نكون مخيرين، فالسلطة لا تأتيك مفصَّلة كما تحب، وإنما تأتيك ضمن «باكيج» معين عليك أن تقبله أو... تقبله!

كان خالي قصي دائما ينبِّه خالي «عدي» بألا يفرط في إظهار نفسه، خصوصاً في منطقة المنصور الشهيرة في بغداد. فهي منطقة مفتوحة، ويمكن أن تنتقل المعلومة فيها بسرعة.

إلا أن خالي «عدي» لم يكن يلتفت لنصائحه، وكان يكثر من التمشي هناك بسيارته الرياضية...

وقد حدث ما كان يخشاه خالي قصي. فها هو اليوم يرقد بيننا بين الحياة والموت بعد أن تمت محاولة لاغتياله في المنصور... تم التحفظ على حرسه الخاص، وكان الجميع بانتظار إفاقته لكي يفهموا منه ما حدث.

أفاق خالي أخيراً...

كان تحت تأثير التخدير، ولكنه لم يكن تحت تأثير الصدمة أبداً. غير أنه لم يتحدث مباشرة، وخاض عدة مراحل حتى استعاد قدرته على الحديث. كان قوياً، وتعامل مع الأمر برجولة نادرة. فقد طلب أولاً إخلاء سبيل الحرس لأنه هو من غافلهم وابتعد عن مرافقتهم، وأكد كلام الحرس بأنه توقف لدى إحدى الإشارات المرورية بسيارته البورش المكشوفة بصحبة زميل له يسمى «علي»، وقد قام خالي عدي بالتملص من علي وتركه في الشارع؛ وهو الرجل الذي كان مشتبهاً به بعد العملية، إذ كان آخر من رأى خالي «عدي» قبل العملية.

وقد تم استبعاده فوراً من الاشتباه بعد أن بلل بنطاله حرفياً حين قال له جدي: «علي، إذا اكتشفت أن لك يداً في اغتيال عدي، سأقص رأسك!».

وكرر خالي عدي أكثر من مرة أن أشكال المهاجمين لم تكن عراقية. وقال إنهم كانوا ثلاثة، يحملون ملامح إيرانية بكل وضوح، كما كانوا يحملون حقائب رياضية. وقد اقتربوا من سيارته و«علوها» ثم قاموا «بصليه» ببنادق أخرجوها من الحقائب، وقال إن آخر ما يذكره هو أنه انحنى لالتقاط سلاح كان يحتفظ به تحت المقعد.

ذكر خالي أنه يتذكر ملامح أحدهم بشكل واضح، وقال إن ملامحهم كانت إيرانية واضحة، وإن أحدهم له وجه يشبه الكلب، والآخر كالنعجة، أو بلهجة أهل العوجة «وجه انعجا». بالطبع بعد الحادثة أغلقت المنطقة، وتم تفتيش الجميع بشكل جيد، وتم بالفعل القبض على أحد الفاعلين وحكم عليه بالإعدام، فيما هرب الآخران.

السؤال هنا: لماذا تم استهداف خالي عدي رغم أنه لا منصب رسمي أو سياسي له؟ والحقيقة أن المقصود لم يكن خالي «عدي». إذ كنا حينها نعتقد أن ذلك حصل بسبب الرغبة بالنيل من صدام حسين في أسرته، وأن ذلك هو الدافع... كانت الرغبة بإيذاء جدي الرئيس صدام الذي أوجعهم وأفشل مخططاتهم هي السبب، أو هكذا كنا نتوهم. إلا أنه بعد استشهاد الرئيس صدام لم تتوقف محاولاتهم لتصفية جميع أقاربه، ومن تربطهم به أي علاقة.

عندها، علمنا أن ما يحركهم هو الحقد.

أشرف على علاج خالي عدي أكثر من فريق، ومنها فريق فرنسي وعدة أطباء ألمان. وكانت كل عملية جراحية تُجرى له تستغرق ما بين ثلاث إلى

ست ساعات؛ إلا أنهم لم يتمكنوا مع كثرة الرصاص الذي أطلق على ساقيه وغزارته من إعادته إلى حالته الطبيعية. أصبحت حركته سيئة جداً بعد أن كان لا يتحرك أصلا في الأشهر الأولى. وقد تم زرع عدة قطع حديدية في ساقيه. كان معدل إجراء العمليات الكبيرة له بمعدل عملية كل أسبوعين.

تغيرت شخصية خالي بعد الحادث بشكل كبير، وأصبح ميالاً بشكل أكبر للهدوء، وأصبح لديه فريق طبي في المنزل، وبقي ممرضه المسيحي تيمه ملازماً له، وكان جميع العمال في بيته يضعون شاشاً تحت أحذيتهم لأنه أصبح حساساً جداً في نومه أكثر من ذي قبل.

بعد حادثة محاولة اغتيال خالي عدي بفترة، اتصلت به زوجته سجى التي لا تزال على ذمته من الأردن التي قدمت إليها من سويسرا، وأخبرته أن لديها مفاجأة، وأنها ستعود إلى العراق، وطلبت منه إرسال من يستقبلها من الحدود الأردنية.

فرد عليها خالي عدي بكل أريحية، ورحّب بها وقد أزمع في سرّه على أمر.

وبعد ساعتين من المكالمة، تقدّم بطلب خطبة هبة ابنة علي حسن المجيد، وهو ابن عم جدي صدام حسين، وشقيق جدي كامل حسن المجيد. وكانت ابنته الوحيدة حميراء وجميلة، وقد كان خالي عدي في فترة ما قد تقدم لها وقوبل بالرفض خوفاً من أبيها عليها لكونها وحيدته. أما في الخطوبة الثانية، ومع الأصول العشائرية التي ترفض الانتقاص من خالي عدي بسبب ما تعرض له، كانت موافقة علي حسن المجيد مباشرة ولحظية.

وصل الخبر إلى زوجته الأولى سجى قبل ساعة واحدة من دخولها العراق عبر الأردن، فألغت رحلتها وعادت إلى سويسرا!

بقيت كلتا الزوجتين مخلصتين له في أيامه الأخيرة، وحتى فترة طويلة جداً من استشهاده...

كان خالي عدي رجلاً له تأثير كبير على المرأة. وكما كانت والدتي تقول، كان رجلاً يصعُب أن تنساه النساء.

مع المصائب المختلفة التي أصابت الأسرة في تلك الأيام، كنت أتذكر الصورة السنوية التي كان جدي يصر فيها على اجتماع العائلة كلها وتصويرها ثم تنشر في جميع وسائل الإعلام العراقية والعربية.

كان ذلك في الأيام السعيدة.

وكانت جدتي ساجدة تكره هذه الصور بشكل كبير، وتكرر دائماً لجدي صدام مقولة واحدة في كل عام لدى جلسة التصوير:

«صدام... استر علينا من العين».

وأعتقد أنها كانت محقة.

الفصل الثالث في داخل بيت الرئيس: أسرار وخلافات

لكل منزل بركة...

وقد كانت بركة منزل جدي تلك المرأة الصالحة الكبيرة في السن التي نراها في أرجاء القصر بعكازها المميز..

كانت غرفتها الصغيرة في القصر مليئة بالأدوية الكثيرة المرصوفة بعناية وترتيب على طاولة متوسطة الحجم.. هناك دائماً رائحة أعشاب ومنتجات عطرية..

كانت المرأة معمرة، ورغم ذلك كانت تصحو باكراً وتنام باكراً.. كانت مريضة في أغلب الوقت، تمشي منحنية الظهر بشراشيبها المتدلية الجميلة "تسمى الكيش". في صحوها كانت تذكر اللّه كثيراً، فهي متدينة جداً، شديدة البياض، تظهر أوردتها الزرقاء عبر يديها بوضوح، وترتدي غالباً الجوارب السميكة لإخفاء بياض ساقيها تحرزاً؛ لأنها تستحرم ظهورهما. كما كانت تضع على رأسها باستمرار شيلة تتميز بشراشيبها المتدلية الجميلة..

كانت على كبر سنها نظيفة جداً.. وطيبة إلى حدود لا يمكن تصورها إلا لدى الملائكة.. وكانت مسالمة جداً.. حين تسمع النميمة النسائية في المجالس كانت تغطي أذنيها كي لا تسمعها لأنها تستحرم سماعها.. تقاطيع وجهها ناعمة جداً مثل خالتي رنا نوعاً ما.. على عكس التقاطيع العراقية التقليدية.. وكانت تميل لخالتي رنا أيضاً، وتتحيز لها دوماً.. وحين كانت خالتي رنا تنام في الصالة بسبب تعبها أو لأي سبب

آخر، كانت تصحو وتجد أن الجدة المباركة قد غطّتها بأوراق «الكلينيكس» كي لا تستبرد...!

كنا نسميها «ليلو». أي اللؤلؤة باللهجة العراقية..

كان جدي في أحيان كثيرة حين يأتي إلى القصر الجمهوري ويرى «ليلو».. يذهب إليها ويقول لها مازحاً وهو ينحني لتقبيل رأسها..

«ها حجية.. بعدك ما تريديني؟ بعدك ما موافقة علي؟».

كانت «ليلو» العجوز تضحك كثيراً لدعابته، وتذكر اللّه وتقول له: «لا ابني... واللّه هاي قبل»... أي كان ذلك منذ مدة بعيدة.. زمن آخر وانقضى..

الجدة «ليلو» المباركة كانت والدة جدتي ساجدة، أي حماة الرئيس العراقي صدّام حسين، وقد فهمنا من مزاحه معها أنها كانت رافضة زواجه من جدتي في أيام شبابهما..

بقيت الجدة «ليلو» محتفظة بذاكرة جيدة نسبياً إلى أن أدخل عليها جثمان الخال عدنان خير اللّه في نعشه فصرخت، وبعد ذلك ضعفت ذاكرتها بشكل كبير وتعبت..

كان لوالد جدتي ساجدة خير اللّه طلفاح ثلاث زوجات. إحداهما هي «ليلو»، وهي أم جدتي ساجدة وشقيها عدنان خير اللّه طلفاح. والأخرى تكريتية، وقد أنجب منها أحلام وإلهام. والثالثة هي فاطمة الحسن أخت جدي كامل والتي أنجبت له سبعة أبناء.. لم تكن الجدة «ليلو» في شبابها على وفاق مع أهل زوجها، وقد تعرضت لأذية النساء ومكائدهن؛ وخاصة اللواتي كبرن من أخوات زوجها ولم يتزوجن، فتركت جدتي

ساجدة وشقيقها عدنان عندهم وذهبت إلى منزل أهلها.. وحين كبرت جدتي وتزوجت، أخذتها لتقيم معها في القصر الجمهوري وتلقى الرعاية المناسبة.. وقد كانت جدتي من المحظوظات بالمقاييس العشائرية، فوالدها المثقف والمنفتح سمح لها منذ طفولتها بالتوجه إلى المدرسة والتعلم.. فعلى الرغم من الطباع الصعبة للعائلة وتقاليدها إلا أن تقديسه للعلم والمعرفة جعله يشجع جدتي على ذلك..

كما سمح لها أيضاً بأن تعمل، وهو الأمر الذي كان مخالفاً للأعراف بشكل صادم؛ وهذا ما جعل جدتي مختلفة جداً عن جميع أفراد عشيرتنا، بما في ذلك لهجتها البغدادية الخفيفة التي تميزت بها عن الآخرين والتي ورثناها عنها، والتي كانت مختلفة أيضاً..

جدتي التي تزوجت في ما بعد من جدي صدّام حسين استمر اختلافها عن الجميع حتى بعد زواجها.. فقد كانت مختلفة في ملبسها؛ حيث لم تكن ترتدي العباءة العراقية التقليدية على عكس جميع أقاربها، وكانت تحب الموضة والسفر إلى أن مُنعَت من ذلك بشكل قطعي ولأسباب أمنية.. وقد كانت لدى جدي مشكلة دائمة معها، خصوصاً في السنين الأخيرة؛ حيث كان في كل لقاء عائلي يعلق على تنورتها التي تحب أن تكون فوق الركبتين مباشرة.. وكان دائماً يحاول إقناعها بأن تلبس تنوره طويلة فتجيب بعنادها المشهور بأنها لا تحب التنانير الطويلة ولا تعرف كيف تمشي بها.. ولكنها استجابت لرغبته أخيراً، وأذكر أنني دخلت عليها ذات مرة ورأيتها تفتح الطبقة المطوية من تنورتها لكي تطيلها بما يكفي لتغطيه الركبتين. وقبل ذلك كانت تغطي شعرها بشيفون رقيق أيضاً بطلب من جدي، حيث لم تكن محجبة وإنما تضع الشيلة على رأسها احتراماً للتقاليد.. بتعبير آخر، كانت تمسك العصا

من منتصفها؛ فلا أغضبت جدي ولا تنازلت عن نمط حياتها الذي اعتادت عليه..

وقد كانت ثمرة زواج جدتي من صدام حسين ثلاث بنات؛ وهنّ والدتي رغد وخالتي رنا وخالتي حلا وهن أصغر من الابنين: خالي عدي؛ وهو الأشهر الذي كان «سليبريتي» حقيقياً تتابع وسائل الإعلام العربية والعالمية أخباره وقد تحدثت عنه بالتفصيل، وخالي «قصي».. الذي أعتبره أحد أبطالي الحقيقيين..

وعن أبطالي أحدثكم..

ولد خالي قصي عام ١٩٦٧، وهو الأقرب إلى والدتي من ناحية السن على الرغم من أنه كان ينكر هذا دائماً، ويردد في الكثير من الأحيان أن والدتي شقيقته الكبرى، وكان يسمي والدتي دائماً: أختي الكبرى.. لدرجة أنني- وأنا ابنتها- نشأت على هذا الاعتقاد؛ وهو أن والدتي أكبر من خالي قصي..

كانت لدى خالي قصي روح دعابة عالية، ولديه ضحكة عالية مميزة يمكننا عند سماعها تحديد المنزل أو الغرفة التي يتواجد فيها. كما كان أنيقاً جداً، ويُعتَبر مرجع العائلة في العلامات التجارية العالمية؛ أيها أفضل وأيها أجود وأيها يمثّل قيمة حقيقة..

وعلى عكس خالي عدي، تزوج خالي قصي في سن صغيرة نسبياً، وقد دخل على جدتي ذات يوم وقال لها بلا مقدمات: «أريد أن أتزوج!».

وقد اعتقدت جدتي في ذلك الحين أنها رغبة مؤقتة، ولم تعرها الكثير من الاهتمام في بداية الأمر. ولكن خالي «قصي» كان جاداً جداً، ولديه إصرار كبير على الزواج..

وقد تزوج من امرأة من عائلة من أقارب الدرجة الثانية؛ أسرة اشتهر رجالها بالشدة والشجاعة، وهي لمى ماهر عبد الرشيد. كانت لمى ابنة أحد أبرز القادة العسكريين الأبطال في الحرب العراقية الإيرانية، وقائد الفيلق السابع للجيش العراقي، وأحد الذين شاركوا في معارك تحرير الفاو..

وحين تزوجها خالي «قصي» قال للمقربين منه رداً على استفسارهم عن سبب اختياره فتاة من خارج العائلة، وليس لديها ما يميزها عن أقرانها:

«أريد أن يرزقني اللّه منها بشجعان...».

وقد صدق حدسه..

فقد رزق منها بسيد الشجعان ابنه البكر مصطفى، وبابنين آخرين..

كان مصطفى طفلاً استثنائياً شجاعاً.. وقد أتقن منذ طفولته استخدام مختلف أنواع الأسلحة، ونجح في توقع المخاطر والتعامل معها كرجل بالغ..

في بداية زواج خالي قصي، لم يكن ملتزماً بالأسرة جداً كأي شاب، ولكنه تغير تدريجياً بعد ذلك، وأصبح «بيتوتياً» جداً كما نقول في اللغة الدارجة العراقية. كان يقضي الكثير من وقته في قصره بالجادرية المجاور لبيتنا، ويمضي جل أوقاته مع أبنائه لشدة تعلقه بهم..

ومما يميّز خالي «قصي» أنه كان شديد الحذر وقليل الثقة بالآخرين.. ويحب أن يعمل دون لفت الانتباه؛ إذ لا تُسمَع له الكثير من الأقوال، وكان يعمل بصمت بشكل عام..

بدأ بالعمل في التجارة بعد فترة جنباً إلى جنب مع منصبه الرسمي..

وكان خالي قصي كما نقول «دائم الصوغات»؛ أي أن هداياه لا تنقطع عن أحبابه وأهل بيته وأقاربه، وكانت دائماً جميلة ومنتقاة بذوق رفيع..

كما كان يعيش دوماً مع وسواس النظافة، فكان كثير الغسل ليديه، ودائماً تشعر عند السلام عليه بوجود طبقة صابون خفيفة على كفه..

كان يدخل البانيو للاستحمام بخف النوم، وذلك كي لا يضطر إلى وطء أرضية الحمام.. إلا أن هذا الأمر كان يختفي تماماً حين يمارس هوايته الأثيرة؛ وهي الصيد..

وهي الهواية التي كان خالي يحبها كثيراً. وكانت لديه «دستة» من كلاب الصيد المدربة بشكل احترافي، والتي كان ينتقيها بدقة ويشرف على تدريبها.. ولديه على وجه التحديد كلبان شهيران يُدعيان «ران – و» و«مان – و»..

والحقيقة هي أن هوس النظافة كان هوساً مشتركاً بين خالي عدي وخالي قصي وجدتي وجدي وخالتَيَّ وأمي، ولكنه كان أكثر وضوحاً وقوة لدى خالي قصي..

كان قليل الخروج من المنزل، ومؤدباً، وشديد التهذيب، ومحباً لأسرته وأبنائه، ولطيفاً ومجاملاً جداً.. وكانت علاقتنا به أقوى من علاقتنا بخالي عدي.. بحكم حالته الاجتماعية ربما، أو بسبب أسلوبه المحبب والجميل وهو نفس السبب الذي جعله محبوباً أكثر للأغلبية من الشعب العراقي من خالي عدي، كما أن أبناؤه كانوا يقربوننا في العمر..

وكانت لديه مزرعة يحب تربية الخيول العربية الأصيلة فيها، ولديه حصان شديد السواد ومتميز أسماه «الأدهم». وكان مثل أي شخص

آخر في عائلتنا لديه تلك «الخصلة»؛ وهي مشتركة بينه وبين خالي وأمي وخالتَيّ:

لا يمكن تغيير رأيه أبداً!

كان خالي قصي يعتبر أي كلام يأتيه من جدي صدّام بمثابة الأمر الذي لا يمكن مناقشته؛ فقد كان شديد الولاء والطاعة. وبعد أن أصبح مسؤولاً عن جهاز الأمن الخاص، أصبح بطريقة ما مرشحاً لخلافة جدي.. وهو الأمر الذي كانت وكالات الأنباء العالمية تتناقله بشكر مستمر، ولم يعترض على ذكره أو ينكره أحدٌ من الداخل العراقي..

لم يكن لديه أصدقاء مقربون من محيط العائلة، بل كان أصدقاؤه غالباً من خارج محيطها، يزورونه ويجلسون معه، ويتسامرون معه بشكل يومي. كان يحب أن يرى أبناءه أمامه، وكان طاقم الخدم المخصص له يتكون من خليط من العرب والمسيحيين.. وكانت المربيات في منزله من الأرمن؛ كعادة المربيات في القصور الأخرى، وكانت مربية ابنته شقيقة مربيتي..

وعلى الرغم من هوس جميع أفراد العائلة بقضايا الريجيم والعادات والأنماط الغذائية وما شابه ذلك، إلا أن خالي «قصي» كان يختلف عنهم في هذه النقطة. فقد كان يحب الأكل جداً أكثر من الجميع، ولا يهتم بالضرورة بالريجيم أو اتباع نظام غذائي، وكان دائماً يكرر ضاحكاً:

«أنا أجمل من زوجتي وأولادي.. بدون ريجيم!».

كانت علاقته بعائلته جميلة وودية وتسودها روح الفكاهة.. وحين كنت أذهب لزيارة منزل خالي قصي في وقت مبكر من اليوم خلال أيام الإجازات، أي في أي وقت من أوقات الصباح، كنت دائماً أراه بكامل قيافته، وفي

مكتبه يقرأ المراسلات والتقارير.. أو يتابع المجلات والجرائد وما كتب فيها من أخبار وتحاليل، وأذكر أنه كان يتابع قناة «بي. بي. سي» بشكل خاص. كانت تلك صباحاته الباكرة، والتي جعلها نمط حياة في أسرته كلها. كان يرى في خاله عدنان خير اللّه طلفاح رحمه اللّه مثله الأعلى..

ويؤكد كثيرون على أنه يشبهه في التصرف، وفي الكرم، وفي الشكل أكثر من أي شخص آخر..

بالطبع، عدنان خير اللّه رحمه اللّه هو خال خالي ووالدتي، وفي الوقت نفسه ابن خال جدي صدّام. وقد كنا نسمع كما يسمع العراقيون عن قضية اتهام خصوم جدي السياسيين له بأنه كان على علاقة بحادث مقتل الخال عدنان خير اللّه؛ لأنه أصبح منافساً له بطريقة ما..

والحقيقة التي عرفناها من عمي صدام في جلسة مصارحة في الأردن بعد أحداث سنة ٩٥ وبعد أن حلفته والدتي وخالتي رنا، هي أنها كانت قصة ملفقة للنيل منه. ففي يوم وفاة الخال رحمه اللّه تعالى.. كان الجميع يحتفلون بمناسبة حلول عيد الأضحى، والذي صادف حلوله في ذكرى زفاف جدي صدّام حسين وجدتي ساجدة أيضاً في أحد منازل الخال عدنان في شمال العراق وهو معهم.. ثم غادر إلى بغداد لإحضار زوجته وأبنائه. كانت الأنواء الجوية صعبة جداً في ذلك اليوم، وقد حذره جدي والآخرون بألا يركب الطائرة، وعدم ضرورة إحضاره أهله لأن الجو سيئ جداً. فضحك الخال عدنان وذكّرهم بأن هوايته ودراسته وعشقه هي الطيران، وبأنه سيقود المروحية بنفسه إلى بغداد، وسيعود لتناول الطعام معهم. ودّعهم الخال عدنان، وبعد فترة جاء خبر سقوط المروحية..

بكى الجميع بحرقة لوفاته..

كان جدي صدّام حسين يحب الخال عدنان خير اللّه بصدق، ودون الحسابات التي لم تكن موجودة إلا في عقول المرضى..

فهو صديقه ونسيبه وابن خاله، وهناك تقارب عائلي أكبر وأكثر من ذلك بينهما ولا مجال لذكره هنا..

لم يكن جدي ليسيء للخال عدنان بدم بارد وهو يجلس بين أسرته.. وقد تألم كثيراً لوفاته.. وتألمت الأسرة أيضاً لوفاته.. لم يكن من السهل أن يغطي أحد مكانه، ولم تعتد الأسرة على غيابه أبداً.. ولم تحتفل جدتي ساجدة بذكرى زفافها منذ ذلك اليوم..

تلك قصة وفاة الخال عدنان الذي كان كثيرون يشبِّهون «خالي قصي» به.. وبالمناسبة، لقد توفي الجميع في العيد..

الخال عدنان خير اللّه توفي يوم عيد..

والدي حسين كامل وأفراد أسرته قتلوا في يوم عيد..

جدي صدّام حسين ارتقى في يوم عيد..

كانت لديّ علاقة متميزة مع خالي قصي.. إذ كنت أزورهم في الفترات التي أصبت فيها باضطراب الوزن؛ حيث إنني بعد عدد من الحوادث التي سأذكرها لاحقاً أصبت كمراهقة نتيجة الشحن العاطفي الزائد باضطراب في الوزن، فكان يزداد طوراً ويقل في أطوار أخرى..

كنت أذهب في زيارات إلى منزلهم للعب مع مصطفى ابن خالي قصي الذي كنت أقضي معه الكثير من الأوقات. وكان مكتب الخال قصي قريباً

من الباب، ما يسمح له برؤية من يدخل ومن يخرج. وحين دخلت ذات يوم مشيت بسرعة كي لا أزعجه، إلا أنه أحس بي وأنبني: «تعاي تعاي تعاي.. ليش ما اتسلمين على خالج يا ولّي؟».

ثم توقف وقد هاله منظري، وقال لي إنني لفرط ضعفي في تلك الأيام قد أصبحت أشبه «البريعصي..»، وطلب مني وهو يغمزني أن أضع عدة كيلوغرامات إضافية.. وقال لي: «معليج بأمج سمنيلج ثلاث أربع كيلوات»..

كنت أعلم ما الذي يقصده، حيث إن أمي كانت تحب «النحافة»، وكثيراً ما كانت تعطينا النصائح، بل وتعاقبنا أحياناً إذا أهملنا مراقبة أوزاننا وتكافئنا إذا ضعفنا..

في الأعلى، أرسل لنا خالي عربة العشاء.

في تقاليد الأسرة العشائرية تتزوج البنت في سن الخامسة عشرة على الغالب. وفي الكثير من الأحيان، يبدأ الحديث عن زواجها بمجرد بلوغها الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها..

وبمجرد بلوغ «موج» ابنة خالي قصي الرابعة عشرة بدأ الحديث عن الأشخاص المرشحين لخطبتها. وقد كنا كبنات نحتار في تخمين الأسماء المرشحة، فلم يكن هناك مرشحون من طرف أهل والدتها؛ حيث كان أخوالها قد تزوجوا منذ وقت قريب..

وشقيقي علي تمت تسميته لابنة عمه وابنة خالته في الوقت نفسه، ولكنه لم يكن تحييراً. والفرق بين التسمية والتحيير هو أن التحيير عادة قبلية تراثية تتم بها تسمية من سيتزوج من منذ الطفولة وتكون مُلزِمة، بينما التسمية خيار لا توجد ضرورة أو إلزام بها في ما بعد..

من ستتزوج موج؟ وكيف ستكون لهجته؟

كانت لهجتنا وطريقة لبسنا تختلفان عن الآخرين بالطبع. فنحن أبناء أو أحفاد صدّام وساجدة لا تشبه لهجتنا لهجة بقية أفراد العائلة، حيث إن جدتي ساجدة من سكنة بغداد وكانت لهجتها بغدادية مثل لهجة أبيها خير الله طلفاح رحمه الله..

كان المرشح الأقوى والمناسب لعمر موج هو أحد أبناء عبد حمود السكرتير الشخصي لجدي صدام حسين..

كنا كفتيات نتحدث عن هذا الاحتمال الذي لم يكن الأقرب لأنفسنا..

فعبد حمود كان اليد اليمني لجدي...

لذلك، خشينا أن يتقدم لخطبة موج لابنه، وهكذا يقع خالي في حرج من رده، ويجامله بالموافقة على هذا الزواج..

وعلى الرغم من أننا لم نكن نحمل أي شيء تجاه أبناء عبد حمود الذين كانوا لطفاء ولا يستخدمون أسلوب أبناء بعض المسؤولين لتهديد الناس وتخويفهم بأنهم سيذهبون بهم إلى «ما وراء الشمس» عند حدوث أي خلاف.. إلا أن عبدحمود كان شديداً على أبنائه وغيرهم.. وكان أبناؤه وابنته تحديداً أصدقاء لنا..

وحين سمعت زوجة خالي لمى حديثنا وهي القريبة منا كبنات ومراهقات - لأننا لم نكن نخشى أن نبوح بشيء أمامها - ابتسمت لمخاوفنا، وقالت لنا إنها ستتصرف..

كانت لُمى -بضم الميم- كما نُطلِق عليها شخصية محبوبة في عائلتنا.

فقد كانت صاحبة واجب وكرمٍ شديد والتزام بالجميع، وكانت تحرص على الصلاة وقراءة القرآن، وبها طبع التدين، وقد تحجبت عام أربعة وتسعين بناء على طلب خالي قصي..

كانت مرتبة جداً في أغراضها و«مكياجها».. لديها ثلاجة خاصة لأدوات «المكياج»، وكل قلم مربوط بمجموعته بمطاط، وكل مجموعة من أحمر الشفاه مربوطة معاً بحسب التدرج اللوني.. كنت أستغرب منها لفرط نظامها في ترتيب الأمور بحسب ألوانها؛ وخاصة في ما يتعلق بأدوات «الماكياج»..

كنت كثيراً ما أزورها وأتشارك معها آخر صيحات الموضة في «الماكياج»؛ وهو ما لم أكن أراه في منزلنا لأنني لم أعد أرى أمي تستخدمه بعد الأحداث التي حصلت لزوجها...

وكان من طبع لمى أنها لا تحب الخروج من المنزل كثيراً، ولكنها هذه المرة قالت لنا إنها ستخرج قريباً، وهذا ما حدث بالفعل.

قبل أن يستلم جدي صدام حسين الحكم كان أحمد حسن البكر رحمه اللّه رئيس الجمهورية العراقية، وكان جدي حينها نائبه الأول، ويُعرَف إعلامياً باسم السيد النائب..

وهناك الكثير من السيناريوهات التي تُروى عن إجبار جدي له للتنازل عن الحكم، وهي غير مُستبعدة بالنظر إلى شخصية البكر المسالمة التي لا تحب القيود.. وقد قال إنه يرغب في الحصول على حياة طبيعية قبل وفاته.. ولأحمد حسن البكر عدة بنات وثلاثة أولاد. ومن بناته ابنة اسمها هيفاء تزوجها خال والدتي عدنان خير اللّه الطلفاح، وأنجب منها فتاة أصغر مني بسنة أسمياها «نوف» بناء على سماعهما لهذا

الاسم الخليجي المنتشر؛ فقد كان لديه الكثير من الأصدقاء الخليجيين، وكانت لديه حتى وفاته علاقات متميزة جداً مع الأسر الحاكمة ورجال الأعمال في الخليج العربي بشكل عام، ومن الكويت وقطر بشكل خاص..

تخرجت نوف من المدرسة، فاتصلت لمى بالعمة هيفاء وأبلغتها بأننا سوف نزورهم قريباً لكي نبارك لنوف بنجاحها وتميزها..

وذهبنا بالفعل إلى منزل الخال عدنان، واجتمعت النساء في المجلس ثم أتى الأبناء.. جلسنا وتسامرنا وكانت علاقتنا بهم قوية جدا حينها. وقد راقبنا جميعاً ملامح الخالة لمى حين جاء علي ابن العمة هيفاء وابن عدنان خير الله للسلام علينا.. والسلام على موج..

وكان واضحاً أنه البديل المقصود..

كان عسكرياً حديث التخرج يبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة.. بدأت الخالة لمى بفتح قنوات الحوار مع الأسرة لطمأنتها خاصة وهي الأسرة المهمشة نوعاً ما منذ وفاة والدهم.. فالتقدم للابنة الوحيدة للرجل القوي قصي ربما لا يكون بتلك السهولة..

وفي إحدى زيارات نوف لمنزلنا كعادتها، سألتني في محاولة لسبر أغوار ما يقال داخل عائلتنا.. ما رأيك في أن نتقدم لموج لكي تصبح زوجة لعلي؟ فقلت لها إن كلاً منهما مناسب للآخر..

وبعد ذلك، استمرت الاتصالات، وكانت عائلة الخال عدنان خائفة من الرفض، إلا انه وفي ظل الإشارات المشجعة من طرفنا تقدمت العمة هيفاء بشكل رسمي، وتأثر خالي قصي جداً، وقال لهم جملة واحدة: «من سأجد خيراً من ابن خالي العزيز لابنتي؟»..

وفعلاً تمت الخطبة، وكانت من الأحداث والأيام الجميلة الأخيرة في تاريخ الأسرة قبل الغزو الأمريكي للعراق..

وعلى ذكر المشتريات، في أحيان أخرى كانت هناك بعض الأحداث التي تُلقي بظلالها على أسرتنا..

فعلى سبيل المثال، كانت أسرتنا تُعرَف بحب الأنتيكات والتحفيات. وفي أحد الأيام، قام خالي قصي بشراء مجموعة من التحفيات.. لم يناقش البائع في ثمنها؛ إذ كان لا يبخس البائع الثمن إذا أعجبه شيء ما. وفي أحد التجمعات الأسرية بحضور جدي صدام وبلا مقدمات أثناء تناول الطعام، اعتدل جدي صدام وقال موجهاً الخطاب لأبنائه: من منكم قام بشراء سيت» طعام؟!

عم الهدوء في الصالة! وسكت الجميع بينما كان جدي يوجه نظراته لخالي قصي الذي لم ينبس ببنت شفة.

ولكنَّ والدتي حوَّلت الموقف حين قالت فجأة مُنقِذةً إياه: «أنا فعلت! أنا من اشترى ذلك الطقم!».

تجمد الموقف، فأردفت والدتي موضحة: رأيت الطقم في السوق وأحببته واشتريته..

انزعج جدي كثيراً من هذا التواطؤ الذي أنقذ خالي «قصي»، وبدا انزعاجه في عينيه، ولكنه لم يعلق..

بالطبع قامت والدتي بذلك لأنها فتاة.. وعقابها قد يكون أهون بكثير من العقاب الذي سيُنزَل بخالي قصي إذا ثبتت التهمة عليه..

أصبح زفاف موج من الأمور المهمة في حياة خالي قصي وفي أوساط العائلة..

بدأ تجهيز قاعة الزفاف، وتم اختيار موقع لإقامة منزل العروسين ضمن حديقة منزل خالي خير اللّه طلفاح. وقد قرر خالي قصي أن البناء سيكون هدية منه، وعلى العريس الأثاث.. كما أهدى العريس سيارة حديثة..

لكن الأحداث تسارعت بشكل كبير بعد هذه التجهيزات بأيام قليلة..

قصي كان في الحرب الأخيرة - وهي حرب الاحتلال الأمريكي - شجاعاً كما كان قبلها... ربما انتقده الآخرون لأنه لم يكن مخضرماً عسكرياً..

ولكن، لم يختلف اثنان على أنه كان من أشجع الناس..

وكثيراً ما رأيناه عائداً من الجبهة مرافقا جدي مثل خالي عدي ووالدي وعمي...

الجبهة وما أدراكم ما الجبهة..

تراب الجبهة وطينها الذي كان يعود به الجنود..

نحن المهووسون بالنظافة كنا ولا نزال نرى تراب المعارك وطينها أجمل أنواع النظافة وأعلاها درجة..

لم أرَ خالي «قصي» منخفض المعنويات قط..

ولست حزينة إطلاقاً على نهايته البطولية المشرفة..

حين يقرر أبناء صدّام حسين موعداً فإن وعودهم نافذة..

ولكن التفاصيل تغيرت قليلاً..

فبدلاً من أن يزف خالي قصي ابنته إلى زوجها..

زُفَّ هوَ إلى الشهادة..!

الفصل الرابع في داخل بيت الرئيس: صدام يحمل بين يديه الحفيدة الأولى

كان مبيتنا خارج منزلنا محظوراً علينا تماما؛ إلا في حالات نادرة جداً.. ومنها ذلك اليوم الذي أزعجت فيه والدتي بشكل كبير بإلحاحي على المبيت في القصر الجمهوري عند جدتي ساجدة. فقد كنت أحب الذهاب إلى هناك حيث يمكنني بشكل مستمر قضاء الوقت مع خالتي حلا..

استمرت والدتي برفض طلبي المبيت عند الجدة ساجدة؛ فالمبيت هو أحد الممنوعات الكلاسيكية في منزلنا..

كما أن الإلحاح هو أحد الكلاسيكيات الأخرى من طرفي.. ويبدو أنه في مرحلة ما تغلب الإلحاح على القوانين الصارمة، وسُمِح لي بالمبيت في منزل الجدة؛ أي في قصر القادسية الشهير في كرادة مريم أو المنطقة الخضراء كما تسميها أدبيات الإعلام السياسي الحديثة..

فرشت لي جدتي «دوشكاً» في جناحها في القصر.. بجوار سريرها، وطلبت مني أن أنام. كنت قد نسيت أدوية الربو في المنزل ولم أحضرها معي، وطبقاً لقوانين ميرفي التي لم أكن أعرفها في تلك الأيام، داهمتني نوبة سعال حادة أثناء مبيتي، بل وفي منتصف الليل..

كانت هناك خلطة عربية تقليدية يؤمن بها والدي بشكل كبير وتسمى «القنداغ»..

وهي مزيج من الماء الساخن والعسل توضع في سخان الماء «الكتلي»، ثم تشرب لتخفف من آثار الاحتقانات التنفسية وغيرها..

كانت ليلة ليلاء بالنسبة لجدتي ساجدة؛ وذلك بسبب اضطرارها للصحو كل نصف ساعة بسبب نوبة السعال التي أصابتني وإجباري على شرب بعض «القنداغ» ثم عودتها للنوم..

وقبيل الفجر، شعرت بالجزع والوحدة وبرغبة طفولية في العودة إلى المنزل..

كنت قد اعتدتُ الاتصال بما نسميه «البدالة»؛ وهي الجهة التي تقوم بتوزيع الاتصالات وتلبية طلباتي في القصور وتنسيقها، وهي مشتركة بين جميع القصور..

أدرت قرص الهاتف على الرقم صفر في قصر جدتي واتصلت بالبدالة، فسمعت الصوت العسكري المميز لموظف البدالة وهو يصرخ بكل حماسة: «أمرك سيدي»..

قلت له: «أنا حرير»..

وطلبت منه تحويلي إلى منزل حسين كامل.. فقام بتحويلي، واستمر الهاتف بالرنين عدة مرات دون أن يقوم أي شخص بالرد في الطرف الآخر على عكس عادتهم..

خرجت من بوابة القصر إلى الحرس، والحرس لدى جدتي ساجدة كلهم من أقاربها، إذ لا يوجد بينهم غريب، ولكن نسبة القرابة مختلفة؛ ففيهم أقارب بعيدون وفيهم أقارب من الدرجات الأولى..

رأيت أحد الحرس المألوفين من عائلة «مسلِط» القريبة منا..

وأخبرته بأنني أرغب بالذهاب إلى منزلنا (٩-ب) في المجمع المؤقت في ذلك الوقت، وبالفعل أخذني في إحدى سيارات الحماية وذهبنا إلى المنزل. دققت النظر إلى الباب لمدة طويلة دون أن ألاحظ أي إشارة لوجود حياة في الداخل. كان الجميع منهكاً ونائماً بعمق..

اضطررت أن أنام في سيارة الحماية إلى أن جاء الحرس في الصباح..

وعلى الرغم من خوفي من العقاب.. إلا أن تلك اللحظة التي استقبلتني فيها أمي واحتضنتني بعد يوم عاصف ومخيف في الخارج أزاحت عني كل الخوف من أي عقاب سيأتي..

وهل هنالك ما يماثل حضن الأم؟ خاصة إذا كان حضن أمي..

ومن مثل أمي؟

رغد.. رغد صدام حسين..

ولدت والدتي رغد صدّام حسين بعد أشهر من نجاح الثورة التي قادها جدي ورفاقه الأبطال، ولهذا كانت دائماً توصف بأنها جاءت مع مجيء

الخير.. قال صدّام حسين لجدتي حين علما بأنها أنثى: «سنسميها إسراء»، إلا أن جدتي اقترحت اسم رغد كي تعيش رغدا.. فأجابها جدي: «لن تعيش رغدا ما دمتي زوجة صدام حسين». وتمت تسمية والدتي «رغد».

وكانت بطبيعتها نشيطة وتتحمل مسؤوليات المنزل، سواء أكان المنزل الصغير أم منزلنا الكبير.. العراق..

كانت تقوم بأداء أي دور يوكل إليها وعلى أكمل وجه. وكثيراً ما أخذ جدي صدّام حسين برأيها في أمور مختلفة؛ وخاصة تلك التي تتعلق بالأسرة والمرأة.. رغم أنه لم يكن من المعتاد أخذ رأي النساء بشكل عام..

كانت لدى والدتي مهارة يفتقد إليها الكثير من العراقيين بحكم عاطفيتهم المفرطة؛ وهي القدرة على الحكم على الأمور بحيادية ومن دون إدخال العواطف.. وهي صفة رجولية ونادرة... وكثيراً ما كانت تبدي رأياً معيناً في قضية تخص الأسرة.. فيلتفت إليها جدي ونلمح الحب والإعجاب في عينيه..

والدتي هي ابنة أبيها بامتياز..

نشأت في منزل ذكوري كان يضمها ويضم خالي «عدي» وخالي «قصي»، وكانت في طفولتها تلعب مع الأولاد وتمارس هواياتهم..

وحين تتذكر والدتي قصة ألعابها الذكورية، فهي تتذكرها بكثير من الابتسام، وتعتبرها أياماً جميلة.. صورة ٠٢٥

قالت لي أمي ذات مرة:

«في طفولتنا، كانت هناك شعبية للفلم الذي طرح في نهاية الثمانينيات وكان بطله سوبرمان. وقد ألهبت تلك القصة خيال الأبناء وعدي وقصي كأطفال.. فقاموا بإحضار رنا التي كانت طفلة وتصغرهم بعدة سنوات. ووضعوها في سلة.. وكان السيناريو يقضي بأن يربطوا السلة بحبل ويدلوها من الصالة العليا إلى الصالة السفلى عن طريق «المحجل»، ثم يقوموا بإنقاذها بطريقة ما..

حينها كانت جدتي ساجدة مشغولة مع ضيوف على العشاء. ولكن الخطة لم تكتمل... فعند إدخال رأس رنا من المحجل في الصالة العليا عصى رأسها في فتحات المحجل.. فلم يستطيعوا إعادتها ولا إخراجها..

ولما كان لدى والدتي إحساس بالمسؤولية، وأحست بوجود خطر على حياة شقيقتها رنا، ذهبت و«فتنت» على الصبيان لدى والدتهم وأفسدت خطتهم..

وتستمر أمي بالحديث وهي تبتسم.

أسأل أمي وجدتي: «وكيف تمت معاقبتهم؟!!». تضحك كثيراً وهي تقول: «الغريب في الأمر أن أمي ساجدة قامت بمعاقبة رنا الصغيرة فقط.. لأنها سمحت للآخرين باستغلالها..».

كانت أمي تشبه خالي «عدي» فكراً، وأقرب له من الآخرين، ولكنها بالطبع أكثر طيبة ودبلوماسية.. والأمر نفسه ينطبق بين خالي قصي وخالتي رنا..

دراسياً، كانت والدتي تعتبر ضمن تصنيف «الشطار». إذ كانت ملتزمة جدا، وتكتب واجباتها وتحلها بنفسها، كما كانت حريصة ولا تفوّت دروسها نهائياً؛ حتى إن كان المنزل يمتلئ بالضيوف أو الطباخين لمناسبة

ما، وهو ما كان يحدث بشكل شبه يومي. كما كانت تصر على الاتصال بالبدالة لكي يقوموا بإيقاظها في وقت مبكر، فتراجع قبل المدرسة. وقد أصرت على إكمال دراستها بعد الزواج، فقد كانت صاحبة إرادة عالية، كما ذهبت إلى الجامعة، وكانت ترفض محاباتها على الإطلاق، وتخصصت في الترجمة، وكانت إنجليزيتها ممتازة.. تعشق القراءة لدانييل ستيل تحديداً. والكتب التي تقرأها مميزة لأنها تمتلئ بالخطوط تحت الفقرات الهامة..

كان والدي يكرر اشتراطه على والدتي في كل بداية عام دراسي؛ إذ يشترط عليها أن تنجب طفلا لكي يسمح لها بالاستمرار في الدراسة.. لذا، كان يوم تخرجها يوماً سعيداً واستمر كذلك... ولكن جدي كان يصر على منع نساء العائلة من حضور احتفالات الطلاب المختلطة لعدة أسباب، ومنها الأسباب (الأمنية) بالطبع. ولكن كي لا يبقى الأمر حسرة في نفسها وهي التي اجتهدت كل تلك السنوات، قامت الأسرة بتنظيم حفل تخرج خاص في القصر، وتمت دعوة نساء جميع الأسر القريبة لنا إليه.. ولبست «روب» التخرج واستدعت مصور العائلة.. واكتفت بصور تذكارية بملابس التخرج.. وما زلت أذكر سعادتها في ذلك اليوم!

كانت أغلب صديقات أمي غريبات ومن خارج نطاق العائلة – منذ تلك الأيام وإلى اليوم – على أن اختياراتها لصديقاتها كانت دقيقة؛ فهي لا تحب جلسات النساء التقليدية، وكانت صديقاتها غالباً من المثقفات اللواتي يتحدثن في السياسة والغذاء وعن الأعاجيب في هذا العالم الواسع.. فقد كانت والدتي تحب السفر، ولكن لم تكتب لها مغادرة العراق إلا قليلاً..

وحين كتبت لها أخيراً.. كانت مكتوبة بدماء كثيرة.. ولم يكن خروجاً للاستجمام.. بل كان خروجا من الروح والوطن..

كانت لدى والدتي دائماً القدرة على سد الفراغات.. وتمثيل الغائبين بأفضل شكل، منذ طفولتها وشبابها. ففي إحدى السنوات الجميلة، كانت جدتي ساجدة مسافرة إلى خارج العراق، وجاء رئيس الاتحاد السوفيتي في حينه في زيارة إلى بغداد، وقد رافق زيارته ما يرافقها من إعلام وبروتوكولات؛ فقد كان الاتحاد السوفييتي دولة عظمى في تلك الأيام، وكان العراق صديقاً لها.

جاءت زوجة الرئيس السوفييتي معه. وكما تقضي قواعد البروتوكول، كان على جدتي ساجدة استقبالها ولكنها لم تكن في بغداد ولن تتمكن من القيام بواجبها في استضافة زوجة الرئيس الروسي. عندها، تصدرت والدتي وهي صغيرة المائدة الرئيسية التي أقيمت على شرفها على الرغم من وجود عشرات زوجات قيادات مجلس قيادة الثورة مثل زوجة السيد عزت الدوري وغيرهن..

وما زال الكثيرون يذكرون كيف قامت رغد الصغيرة بطلب من الرئيس - حيث قال لها: «ابنتي استقبلي الضيفة على مأدبة عشاء» - بالإنابة عن أمها بكل حرفية في تلك الحادثة؛ رغم أن والدتي تذكرها بكثير من الحرج، وتقول إن أصعب ما في الموضوع هو أن تتصدر مائدة تجلس إليها الكثيرات من هن أكبر سناً وأعلى مقاماً منها لكونهن صديقات لجدتي ساجدة وبمثابة خالات لأمي، وقد كان لتلك التجربة أثر في تشجيع جدتي للإلقاء بالمزيد من المهمّات والواجبات الاجتماعية على والدتي، ومحاولة تكرار السفر الذي كانت جدتي تعشقه بشكل كبير..

كانت مشكلة جدتي ساجدة في السفر بسيطة جداً.. كانت المشكلة هي جدي صدّام حسين..

إذ كان يعترض دوماً على خروجها من العراق.. لا يفهم جدي كيف يمكن للناس أن يعيشوا خارج العراق.. كيف يمكن لشخص أن يستمتع بوقت.. أو يتذوق أكلة.. أو يستمع للحن طائر خارج العراق!

أو يتنفس هواءً غير هواء العراق..

بالنسبة لجدي، كان العراق هو العالم.. والعالم هو العراق..

لدرجة أنه أثناء رحلة لندن كان يغلق ستائر نوافذ الطائرة ونوافذ غرفته بالفندق وهو يقول: «لا أريد أن ترى عيناي أرض من احتل بلدي يوماً»..

كانت جدتي تتحايل عليه وتلح في الطلب حتى يوافق..

لجدتي ساجدة طقوسها في السفر، فطائرتها الخاصة تحمل معها الطباخ الخاص والاحتياجات الغذائية من العراق. ونحن هنا نتحدث بالطبع عن فترات ما قبل الحصار. إذ لم تكن تحب التغيير في الطعام، وكان غالباً ما يرافقها أحد الأقارب مثل رشيد النقيب زوج أخت جدي الرئيس.. دائماً يكون والدي معها حين كان يعمل كمرافق.. مع والدتي وخالي عدي وخالي قصي...

لم يكن في عرف جدي وجود لما يعرف بالخزينة المفتوحة للدولة، ولم تكن هناك إمكانية لجدتي أو غيرها من أسر المسؤولين بأن يقوموا بالصرف من دون رقيب أو حسيب، بل كان جدي يأمر بمرتين من الصرف في السنة كان يسميهما كسوة. فكان لجدتي كسوة صيفية وأخرى شتوية، وتقوم عادة بالسفر بعد وصول ما يسمى بالـ pocket money. وقد كانت جدتي

تذهب للمملكة محملة بالهدايا، وتعود محملة بهدايا أخرى... كانت لها علاقات متميزة مع بنات الملك المؤسس عبد العزيز بن عبد الرحمن وعدد من زوجات الملك فهد بن عبد العزيز وبناته..

حتى إننا نذكر أحد حوارات جدتي مع جدي عندما حدث قطع العلاقات مع المملكة العربية السعودية بعد أزمة الكويت، حيث قالت له في أحد الأيام: «علاقتي بنساء العائلة جميلة، وهن يحببني كثيراً. لكنني خسرتهن بعد أزمة الكويت» «مشيرة بذلك إلى نساء العائلة السعودية: الأميرة حصة زوجة الملك عبد اللّه سابقاً».. لم يعلق جدي صدّام حسين، ولكنه أجابها بإيماءة من رأسه.

قبل أحداث الكويت، كانت لعائلتنا علاقة قوية مع الملك فهد بن عبد العزيز رحمه اللّه تحديداً..

كان الملك فهد قد قدم الهدايا الى نساء العائلة عندما جاء الى مؤتمر القمة عام ١٩٩٠..

ليس من الغريب أن يقدم الرؤساء الهدايا الى عوائل بعضهم بعضاً. وفي كثير من الأحيان، كانت الهدايا الموجهة لنساء عائلة صدّام حسين تصل إليهن، وكانت لديه سياسة خاصة في ما يتعلق بالهدايا المقدمة إليه؛ حيث كان يأمر بتحويل الهدايا الى المتحف العراقي..

وللتاريخ أؤكد أن جدي لم يكن من مالكي الأرصدة في الخارج.. أو المتاجرين بثروات دولهم.. كان إنساناً عادياً.. وقد فوجئ من جاء بعده بنزاهته، وبأنه كان قد سجّل أملاك العراق وقصوره باسم حكومة العراق..

كان كل شيء باسم العراق.. وكل شيء للعراق..

وقد أعطى العراق فعلاً كل شيء..

كل شيء!

كل شيء بلا استثناء..

لم يكن جدي صدّام حسين متفرداً في قضية كره السفر وكره البعد عن العراق، بل كان يتشارك في تلك الصفة مع الكثيرين من أفراد الأسرة، ولكن أهمهم والدي حسين كامل رحمه الله، وخالي قصي كذلك.. كانوا إذا غادروا العراق لبضع ساعات يصابون بما يمكن أن نسميه ((حمّى العراق))، والتي تفسرها الثقافة الشعبية الحديثة بمصطلح: هوم - سيك!

حين كانت والدتي تغادر إلى المملكة العربية السعودية، كان والدي يتصل بها بما معدله اتصال في كل ساعة، وكانت تضحك وهي تؤكد بأنها اتصالات حسين الاطمئنانية ولا شيء يدعو للقلق حين تُسأل عن سبب اتصالاته الكثيرة..

لم أكن أشعر بضيق والدتي من مكالمات الاطمئنان بقدر سعادتها بها. إذ كانت تعيش علاقة حب عميقة وقوية مع والدي. لم تكن زوجة فقط، بل أكثر من ذلك بكثير. كنت في طفولتي أعتقد أن أي علاقة زوجية ستكون مثل علاقة والدي بوالدتي، الزوج المحب، الغيور، وفي الوقت نفسه الزوج الصعب. فهو يريدها معه في كل وقت..

حين كانت والدتي في السنوات الجميلة تخرج لمشوار ما أو أمر ما للتهنئة بنجاح أو ولادة، وكان أبي يعود من عمله فلا يجدها، كان أول ما يقوم به هو الاتصال بالقصور التي تتواجد بها ويطلب منها العودة إلى المنزل فوراً لأنه عاد..

كنت وأنا صغيرة غالباً ما أكون معها في تلك الزيارات.. ولدى والدي عادة بأن يطلب حرير حين يتصل..

فتقول لي العائلة المضيفة: «والدك على الهاتف». وحين أرد عليه يقول لي: «قولي لأمك أنا جيت ياالله تعالوا»..

كانت له هيبة.. يقال لنا إن الفريق «حسين» قد دق... فتعرف أنه لا مناص من العودة للمنزل..

وحين تعود والدتي تتراقص أنوار السعادة في عيني والدي الجادتين، وترتسم ابتسامة تحت عينيه لا على شفتيه..

كانت أمي تعطيه ملخصاً عن جدولها الذي انقضى، زرت فلانة، وقمت بكذا وكذا..

وهو يتحدث بما دار في يومه، إلا تلك الأمور المتعلقة «بالواجب» كما يسميه، وهو عمله في التصنيع العسكري، فلم يكن يبوح بها لأحد.. حتى لزوجته!

حين عمل والدي كمرافق عند الرئيس كان يعمل على نظام (يومين دوام ويومين استراحة).. أي يعمل يومين متتاليين يبيت فيهما في إحدى مؤسسات التصنيع العسكري، ويعود إلى منزله في راحة ليومين.

وعلى الرغم من أن الأسرار العسكرية لم تكن تنقل إلى النساء تحت أي ظرف لعدة أسباب، إلا أن الأمر لم تكن له أي علاقة بالحب الذي يكنه والدي حسين كامل لوالدتي، والحب الذي تكنه والدتي له..

كنت ألمس حبها له باهتمامها بنفسها حين يكون والدي في المنزل.. أناقتها.. وجود «الحلاقة» بجوارها دائماً. أتذكر أنه لم يكن يحب أن تصبغ

شعرها باللون الأصفر، أما بالنسبة الى اللبس فقد كان لبساً حضارياً يماشي الموضة بشكل معقول وأنيقاً جداً.. بالطبع تتشارك طفولة والدتي مع جميع أبناء صدّام حسين وأحفاده بهواية حب السباحة.. فجميعنا نسبح بشكل استثنائي.. كما نتقن استخدام الأسلحة.. كان التدرّب على استخدام الأسلحة من المهارات التي نتعلمها في سن مبكرة.. كان جدي يكرر دوماً: «ألا إنّ القوة الرمي»..

وكان أمهرنا في استخدام الأسلحة من الأحفاد هو مصطفى ابن خالي قصي..

تعلمنا صغاراً على الموازنة والتصويب وملء مخازن الأسلحة..

فحياتنا في فترات الطوارئ، وخاصة عند عبور طائرات بشكل مفاجئ من الحدود الشرقية أو من الحدود الغربية.. من الإيرانيين أو من الأمريكان كانت تحتم علينا القيام بإجراءات معينة سأذكرها بالتفصيل لاحقاً، ومنها إتقان استخدام الأسلحة..

وبعيداً عن استخدام الأسلحة ولكن باستخدام الأصابع الموهوبة نفسها، كان لوالدتي باع في التصميم.. تصميم الأزياء على وجه الخصوص..

وكانت توصي على مجلات الأزياء من الأردن.. والتي كانت تُرسل إليها بواسطة زوجة السفير هناك.. وتقوم بشراء الأقمشة من أحد محلات بغداد المعروفة في هذا المجال واسمه خالد.. وتقوم بخياطة ما يعجبها من أزياء أو التغيير في تصميمها. كنت أرى «الباترون» أمامها كثيراً.. وأرى وأشاهد والدتي مع مربيتي الأرمنية وهما تخيطان وتصممان الأزياء على «الباترون»..

بالطبع، كانت المربية الأرمنية هي التي تساعد والدتي لأن الأرمن بشكل عام -كما ذكرت مسبقاً- كانوا أصحاب صنعة. وكانت المربية الأرمنية تتقن الخياطة أصلاً، وهي من المقربين للعائلة؛ فقد درست المربية الأرمنية مع عدة شقيقات لها في الجامعة جنباً إلى جنب مع خالي عدي ووالدتي، لأن والدتهم كانت مربية لي ولشقيقي علي حين كانوا صغاراً فقام والدي (بكفالة أولاد الناني) في القصر ودراستهم وزواجهم على حسابه في الجامعة... وقد بقوا مع العائلة إلى أن آن أوان هجرتهم خارج العراق بعد الأحداث...

كانت أمي تحب التجديد وتتابع صيحات الموضة، كما كانت في بعض الأحيان تنتعل بعض الأحذية وتحمل الحقائب الجديدة الخاصة بجدتي قبل أن تجربها جدتي نفسها، وذلك لأن قياس أرجلهما في الأحذية متشابه على خلاف الألبسة..

وكانت جدتي تشترط إعادة كل شيء صباح اليوم التالي، أي أنها كانت للاستعارة فقط..

حتى إن جدتي هدّدتها في إحدى المرات وقالت لها: «سأخبر المدعوين بأن هذا حذائي». فضحكت والدتي وقالت: «قولي ذلك. بالعكس، هذه لفتة جميلة؛ فأنت والدتي..».

وفعلاً في مساء ذلك اليوم، كانت هناك دعوة عشاء لزوجات أعضاء القيادة، وقد لاطفت إحداهن أمي قائلة: «رغد حبيبتي دائماً أنيقة، والحذاء أنيق..»

واستمرت والدتي على عادتها بتجريب أي حذاء جميل يعجبها من مجموعة جدتي قبلها..

وبالمقابل، لم تكن جدتي تجد حرجاً في ذكر هذه الحقيقة في المناسبات وأمام الجميع، حين تقول فجأة: «وكما ترون، إن رغد الآن تحمل حقيبتي وتنتعل حذائي..» وهو الأمر الذي كان يثير الكثير من المرح لدى المقابلين عند سماعهم العبارة..

كانت والدتي من القسم الحريص على أداء الصلاة في وقتها، مثلها مثل جدي صدام حسين الذي كان دائماً يطلب تجهيز المكان للصلاة حين يكون عندنا للغداء أو غيره..

كما كانت والدتي تعشق اقتناء اللوحات التي تمثل الخيول العربية الأصيلة. ولما كانت مثلها مثل والدي وجدي تؤمن بالقدرات العراقية وبأنها الأعلى كعباً إذا ما قورنت بنظيراتها الأجنبية، فقد كانت للوحات الفنان العراقي فائق حسن الأولوية لديها، وكانت تسعى لشرائها واقتنائها..

وقد كانت للوحات الخط العربي مكانتها في جميع منازلنا وقصورنا، والخط العربي لدى عموم العراقيين من الفنون التي يتم الاهتمام بها؛ فلا تجد منزلاً أو محلاً لا تزين آية الكرسي المكتوبة بأحد الخطوط العربية التقليدية جدرانه، إلا أن السجادات التي تحمل آيات مقدسة أو حتى أي خطوط عربية كان يتم تعليقها ولا يتم بسطها على الأرض احتراماً لها عن الوطء بالأقدام.

وعلى ذكر وطء الفنون بالأقدام، وكحادثة تُروى لإظهار مدى الحقد لدى عائلة بوش، فقد قامت الفنانة العراقية ليلى العطار برسم صورة للرئيس الأمريكي بوش الأب على أرضية أحد الفنادق في بغداد، ما اضطر الوفود إلى وطئها في دخولهم وخروجهم..

وقد قصفت طائرة أمريكية منزلها بعد فترة من انتهاء الحرب، ما أدى إلى استشهادها رحمها اللّه تعالى، ومن قوة الضربة تشوهت عين ابنتها..

كان بوش يمثل رمزاً للشر، والعائلة التي كانت وكأنها لعنة العراق بالنطفة القذرة للأب والابن أساءت للعراق وآذته كثيراً، ولهم كراهية خاصة لدى العراقيين وخاصة بعد أحداث تفجير ملجأ العامرية الذي كان يسكنه ٤٠٠ مدني عراقي أغلبهم نساء وأطفال. فعند الساعة الرابعة والنصف فجراً أثناء حرب الكويت، تم قصفه بأوامر مباشرة من بوش الأب وبتعمد، حيث تم عمل فجوة فيه، ثم تمّ إطلاق صاروخ آخر إلى داخل الفجوة. وقد برّر بوش الأب قتل أربعمائة شخص بأنه كان يريد قتل صدام حسين؛ أي قتل شخص واحد فقط. فعن أي ديمقراطية يتحدثون وأنا منذ صغري وحتى الآن لم أرَ حرباً خاضها محتل بشرف، ولم أرَ أي مبرر منطقي لقتل آلاف الناس بحجة تغيير نظام لا يعجبهم؟ وبرأيي، لا يوجد طرف واحد منتصر في أي حرب؛ فكلا الطرفين خسرا حتماً الكثير من الأرواح والمال العام، وكسبا تخلفاً للدولة بدلاً عن تطويرها، والكثير من المآسي التي لن يستطيع الوقت أن يُنسيها للضحايا أو يعوّض فيها عن عزيز فقدوه..

لم تكن الديموقراطية وقيم الحرية العالمية سوى كذبة كبيرة لتحقيق مصالح بعض الدول على حساب دول أخرى..

قد يستغرب البعض الكثير من الحقائق التي سترد في هذه المذكرات.. ولكن، هكذا هي الحروب.. فلا عدالة فيها... ولا أخلاق... فالعدالة والأخلاق في الحروب ليست إلا وهماً يطارده المثاليون، والحقيقة هي أن الحروب تُخرِج أسوأ ما في النفوس وأسوأ ما في الشعوب وأسوأ ما في الأمم..

من صفات والدتي الأخرى التفاؤل، والإيمان بالله عز وجل، وعدم الإيمان بالمستحيل. وقد كانت شديدة علينا؛ وهي الممارسات التي فهمناها بعد أن كبرنا.. وتستطيع أن ترى فيها شيئاً من كل شيء جميل، ليس لأنها أمي ولكنني أرى الحصيلة الأكثر جمالاً من بيت صدام حسين؛ فلديها الكثير من الطيبة والكرم، والقدرة على تحمل المسؤولية مهما كان نوعها، والكثير من الصبر الذي تعلمته منها. كما أنّها شديدة الذكاء، ولمّاحة وشديدة الاستيعاب، وتتفهم جميع من حولها على اختلافاتهم..

يصعب على الابنة وصف أمها، وخصوصاً حين أكون واحدة من أشد معجبيها..

كانت تحرص على أن نستقبل والدي عند عودته من العمل/ الواجب ونحن بأفضل وأجمل حال.. وتحب الموسيقى.. كما تحب أن تمارس الرياضة على أشرطة جين فوندا تحديداً..

تتحمل الكثير قبل الحروب، وأثناء الحروب، وحتى بعد الحروب. فوالدتي ما زالت إلى يومنا هذا في عين عاصفة كبيرة من الإشاعات والخطر؛ فقد تمّ اتهامها أولاً بتمويل المقاومة العراقية رغم أنها كانت تعيش في الأردن المعروفة بامتلاكها جهاز مخابرات قوياً، ثم اتُهمت أيضاً بقضايا إرهابية؛ تلك التهمة التي أصبحت آخر صيحات الموضة في الإعلام والسياسات الجديدة الخاطئة. وكان جرم والدتي الوحيد هو أنها اختارت أن تُنظّم صفوف الدفاع عن والدها، وأشرفت على اللجنة القضائية المتبرعة من عاملين ومحامين، وأدارت قضية والدها بشجاعة تخلى عنها الرجال..
تلك المرأة الشابة التي كانت لا تزال في منتصف الثلاثينيات، وهي أم لخمسة أولاد، اثنان منهم كانا طفلين، أما الآخرون فمراهقون.. بين ليلة

وضحاها، أخذت على عاتقها موضوع الدفاع عن الرئيس الشهيد الذي تخلى عنه الكثيرون إلا اللّه ثم القليل من المخلصين.. وفي ظرف صعب جداً وضمن إمكانيات محدودة.....

لم تعتبر والدتي هذا الأمر خياراً.. ولكنها اعتبرته واجباً عليها..

ورأى الكثير من الناس أنها بهذا التصرف تقوم بانتحار سياسي.. وحتى أفراد من داخل العائلة، لم تجد من يدعمها حتى معنوياً.. إلا فئة قليلة، ومنها نحن، أبناؤها الذين وبالرغم من احتياجنا الكبير لها كنا معجبين بها ومشجّعين لها دوماً. ورغم معرفتها بعدم نزاهة القضاء، وبأن المحاكمة مسيّسة، كانت إلى اللحظة الأخيرة تردّد باستمرار: «لن أترك أبي وحيداً في وجه الظلم.. ولن أتخلى عنه»..

بعد دقائق من اعتقال جدي اتخذَت القرار في اللحظة نفسها، ونادتنا أنا وشقيقي علي وقالت لنا: «سأدافع عن والدي»..

وهو ما يعني إمكانية وفاتها... ذهابها للعراق كان يعني أنه حتى لو لن ترانا مرة أخرى فسوف تتقبل تبعات الموضوع..

كانت قوية منذ البداية إلى النهاية..

قالت لنا: «عندي اللّه، ثم والدي، ثم أنتم». كانت الأوليات واضحة لديها.. شجعناها على القرار رغم أنها لم تكن تأخذ رأينا... بل كانت تبلّغنا فقط..

كان ذلك أول اختبار حقيقي لنا عن المعنى الكبير الذي يعنيه الرجل في حياتنا..

كنا في أيام المحاكمات نشتاق إليها كثيراً، فقليلاً ما كانت تتاح لنا الفرصة لرؤيتها.. وقد اعتدنا مع الوقت على الجلوس إلى منضدة الطعام بمفردنا.. وكنا نفرح كثيراً لمجيئها، ونسألها عن جديدها في قضية جدي..

اعتادت والدتي عند عودتها على دراسة أوراق القضية في الصالة بوجود المحامين معها أو حتى إلى طاوله الغداء.

وأخيراً، اتّهمت بقضية تسمى ٤ إرهاب أي مادة ٤ إرهاب، وهي حجة جديدة لما يسمّى بالحكومة العراقية التابعة لإيران؛ وكأن مشاكل الإرهاب في البلد قد تم حلها ولم يبقَ إلا رغد..

قبل أيام، كنت أطالع صوراً لامرأة ترتدي العباءة العربية (البشت) وتحتها تعليق شاعري يقول: رغد صدام ارتدت البشت بعد أن عزّ الرجال!! ورغم جمال العبارة إلا أنني ضحكت كثيراً لأن المرأة الظاهرة في الصورة لا تشبه أمي لا من قريب ولا من بعيد؛ ورغم ذلك طارت الصورة عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وأصبحت حقيقة لا يمكن مناقشة محبي العائلة في مدى صحتها..

ورغم كونها ابنة رئيس وزوجة لأحد كبار المسؤولين، كانت تحرص دائماً على تعليمنا ألا نشتري أو نأخذ ما يزيد عن حاجتنا.. وكنا لكي نقوم بشراء شيء معين نتصل على البدالة ونطلب تحويلنا إلى شخص يسمّى «حاجم» -وهو مسؤول المالية لدى والدي- ونطلب نقوداً، فكان يرسل إلينا مبالغ مختلفة القيمة..

وفي يوم من الأيام، وأثناء زيارتنا إلى منزل خالي قصي، أبلغنا مرافق خالي قُصي بأن خالي قد أمره بأن يأخذنا لنشتري الألعاب.

وفعلاً، ذهبنا إلى ذلك المحل وقمنا بشراء كيسين مليئين بالغرائب. وعند وصولنا إلى المنزل، أجبرتنا والدتي على اختيار شيء أو اثنين وإعادة ما تبقى كله إلى المحل.. وقد كان!

كان الطلب من أمي أصعب بكثير من الطلب من والدي؛ إذ كان بالإمكان الاحتيال عليه بالقليل من الدلال..

وكنت كأي طفلة أنتظر عودته، وأقبله، وأكون لطيفة جداً معه، ثم أخبره برغبتي في شراء «ملاعيب» من سوق حسن؛ وهو محل في أحد أسواق بغداد كان يُحضِر ألعاباً مستوردة..

كانت ملامح أبي العسكرية تختلج في لحظات، ثم يقول لي: «أخبري بولس وسيجهز لكم ما تشاؤون». وبولس مراسل مسيحي يعمل لدى أبي ويثق به. كنا نذهب إلى سوق حسن ونختار ما نريده، ثم يُحضِر السائق الذي يُرسله بولس لنا الألعاب بعد فترة..

وفي أحيان أخرى، كنت لا أطيق صبراً، فأتصل على أبي وهو في اجتماع مهم معين، وأخبرهم بأن الأمر ضروري، فيأتي أبي وقد قطع الاجتماع ليرد على الهاتف متوجساً من ماهية هذا الأمر العاجل، فأخبره بأن عروسة جميلة شعرها كتاني، وعيناها زرقاوان قد أحضروا منها نسختين فقط في محل حسن، وأرغب بشرائها قبل أن تنفد. أحسست في ذلك اليوم بأبي في قمة انشغاله، ويرغب بإنهاء الاتصال بسرعة، فقد قال لي: «أخبري بولس»..

كانت هذه العبارة السحرية هي كل ما أريده؛ فهي تشكل ضوءاً أخضر نوعاً ما..

ذهبت بمعية بولس، وقمت بشراء النسختين من العروسة الموجودتين في أسواق حسن، واحدة لي وأخرى لأختي وهج. كنا نعلم بأن أمي قد تأمرنا بإعادتهما لأننا لم نستأذن.. وبقينا ساهرتين على هذا الخوف ونحن ندعو بالدعاء الذي نرى الكبار يكررونه في كل أزمة «اللهم يسر ولا تعسر».. رحنا نكرره باستمرار حتى اليوم التالي الذي وصلت فيه اللعبتان، ولكننا قمنا بسياسة جديدة ربما تنجح!

جاءت أمي ورأت اللعبتين. وكما هو متوقّع، طلبت منا إعادتهما إلى المحل لأننا قمنا بشرائهما من دون استئذان.. وهنا استخدمنا السياسة الجديدة: «لا نستطيع إعادتهما يا أمي لأننا قصصنا الشبكة الخارجية للعبة التي تحيط بالعروسة. لن يقبل المحل بإعادتهما». وبالطبع، نظرة براءة طفولية بعد الجملة..

صمتت أمي قليلاً ثم غادرت مقتنعة.. وبقيت اللعبتان معنا زمناً طويلاً..

كانت فكرة إزالة الشبكة فكرتي أنا.. وما زلت سعيدة بها!

لعبت بها كثيراً وأنا أمثّل دور الأم..

كان عشقي لهذا الدور كبيراً جداً..

لأن أمي كانت وما زالت أماً استثنائية..

بكل معنى الكلمة..

تحدّثت عن خالي عدي وخالي قصي ووالدتي رغد، وبقيت لدي خالتان وهما رنا وحلا..

خالتي رنا هي التوأم الروحي لوالدتي. وقد كانت معها في الحلوة والمرة.. حرفيا وليس مجازياً. فهما لم تفترقا، وتزوجتا من شقيقين وهما والدي وعمي صدّام كامل؛ وهو زوج خالتي رنا..

كان عمي صدّام كامل -وهو زوج خالتي في الوقت نفسه- طويلاً ووسيماً جداً، وهادئاً وذكياً وشديد الملاحظة. كان يلمح أبسط الأشياء، كما كان كتوماً ومؤدباً.. وشديد التهذيب.. ويشبه جدي صدّام حسين في شبابه، بل سُمِّي باسمه تيمناً بنجاحاته، ولحب جدي كامل له. وقد اختير لتمثيل دور جدي في فيلم الأيام الطويلة الذي يحكي قصة صدّام حسين. ولم يتم اختياره للشبه فقط، فالحقيقة هي أن عمي صدّام كامل كان في داخله يحب التمثيل، ولولا العادات والمناصب الرسمية وغيرها من الحواجز لجعله مهنة له. ولكن فيلم الأيام الطويلة كان فرصة له.. خاصة وأن منتجي الفيلم كانوا يبحثون عن بطل سيعتزل بعد أداء دور مثل دور صدام حسين! ولن يقوم بتمثيل أي دور بعده..

كاد يطير من شدة الفرح كما يقول من يعرفه عندما سنحت له فرصة التمثيل تلك. وبالطبع، بعد أحداث خمسة وتسعين التي ستتحدث عنها بالتفصيل، مُنِع الفيلم في العراق بسبب بطله، وكان الناس يُحضِرون نسخاً مهربة منه لمشاهدتها..

في الأيام الجميلة، كان عمي صدّام يقول: «وهل يوجد أجمل من هذا الدور لكي يُمثَّل».

كان عمي صدّام يحب ولادة الذكور لذا احبط نوعاً ما حين علم بحمل زوجته ببكرها الأنثى..

وعلى ذكر أسماء صدّام..

هناك حقيقة أريد ذكرها قبل أن نغوص في أحداث السنوات القادمة.. ربما أكون كما تعلمون، وكما سأذكر في تفاصيل هذا الكتاب، قد خسرت الجد والوالد والأخوال ومصطفى والبلد كله، ولكنّ الشيء الذي يقويني دائماً وأشعر معه بأن تضحيات الأسرة لم تكن للا شيء هو عامل بناء بسيط من الشرق الآسيوي يخبرني بأن اسمه صدّام وأن في قريته آلاف من يحملون هذا الاسم، أو رجل يتصل بي من رقم مجهول ويقول لي: «أنا شيعي، ولكنني أحب «صدام» وأحبكم، وسأسمّي ابني «صدام»». عشرات الآلاف من هذه الملاحظات تردني عبر مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة.. وتجعلني أحمد الله الذي جعل لصدّام الأول كل هذا الحب لدى الناس..

خالتي رنا الشهيرة بتقاطيعها الناعمة التي لا تُظهِر حقيقة أنها الأكثر شدّة بين أخواتها كانت شديدة جداً علينا كأطفال، وخاصة بالطبع على ابنيها أحمد ونبع القريبين من عمرنا.. كانت تطلب إلينا ألا نعلمهما «الوكاحة».. وتقضي معهما الليل كله لتدرّسهما كلمة بكلمة. كانت حريصة على انضباطهما وسلامة غذائهما، وكثيراً ما أُجبِرا على تناول الطعام الصحي لحد الاستفراغ..

كان ابناها جميلين كالأطفال في الدعايات التلفزيونية؛ فهما خضر العيون، ومرتبان، ويجلسان أمامها للدراسة.

كانت خالتي تحب أبناءها جداً وتتابعهم. كما كانت مجاملة اجتماعية بامتياز، وكان جدي صدّام حسين يدلل كل واحدة من بناته بطريقة مختلفة تتناسب مع وضعها، وكان يعاملها على أنها واسطة العقد... وكان يناديها «أبو الرنه». وفي حادثة حصلت وهي صغيرة، حين ولدت جدتي خالتي حلا، كانت الخالة رنا الطفلة تغار منها، وكان جدي قد

انتبه لذلك وأصبح يحرص على إعطاء اهتمام كبير لخالتي رنا حتى لا تتأثر، وكان يتحاور أمامها مع جدتي ساجدة متعمداً أن تستمع الطفلة رنا إلى الحوار وهو يقول: «احنا شنسوي بحلا، ها ساجدة؟ حلا توصخ روحها.. (أبو الرنه) أحلى»..

كان عمي صدّام كامل يحب زوجته رنا كثيراً. وكانت علاقتهما أقرب الى الكلاسيكية، ولكنه -رحمه الله- كان زوجاً شديداً جداً، على عكس ما يبدو عليه للوهلة الأولى..

كانت الشدة والرجولة تلاحظان على أزواج بنات صدّام حسين.. ولم يكونوا أقل شأناً من زوجاتهم اللواتي كنّ بنات الرئيس.. فالعرف العشائري لدينا يقضي بأن كلام الرجل لا يُكسَر..

ومثال ذلك أن خالتي حلا حين كانت تتصل بزوجها وهو في سجون الاحتلال؛ حيث كان يحق لها بمكالمات بين فترة وأخرى، وكان هناك مترجم عربي يترجم الحوار كاملاً وينقله للأمريكان بشكل فوري.. أبدى المترجم استغرابه من الطاعة والأدب اللذين كانت ابنة صدّام حسين تلتزم بهما حين تتحدث مع زوجها.. حتى وهو سجين..

في احترام الزوج نحن عائلة عربية عشائرية تقليدية..

خالتي حلا آخر عنقود جدي صدّام حسين.. وقد كانت أقرب لنا في السن كأحفاد من قربها من إخوانها. كنا نلعب معها ونلهو معها ونتحدث معها. وكانت تلعب كالأولاد، وتلبس مثلهم. وهي سمراء، وتخرج كثيراً جداً مع جدّي في المناسبات. وفي فترة ما، أصبح وجودها معه عادياً في كل مكان يذهب إليه..

تعلمت قيادة السيارات وهي صغيرة. فقد كانت مُدللة جداً، حيث إن جدتي كانت قد أنجبتها على كبر، ما جعلها نوعاً ما تفلت من الكثير من القوانين الصارمة تجاه البنات..

كانت لعبتنا المفضلة معها هي التسلق؛ وخاصة أثناء زيارتنا بيتاً تملكه الجدة ساجدة في منطقة العوجة، والذي يقع على مرتفع، حيث توجد حوله أراض زراعية يمتد السقي إليها بأنابيب سوداء. وقد كان تسلق تلك الأنابيب إحدى ألعابنا المفضلة مع خالتي حلا، ولكم أن تتخيلوا كمية الطين والمياه التي كنا نعود بها..

كثيراً ما كانت خالتي حلا تذهب إلى الحرس وتأكل معهم. وكانت جدتي ساجدة تجد صعوبة في السيطرة عليها.

ومثلنا جميعاً، كانت لدى خالتي حلا مربية أرمنية صارمة جداً، بل كانت أكثر المربيات صرامة، وكنا نسمّيها «ناني حلا»، من دون أن نهتم بمعرفة اسمها الحقيقي..

نجحت مربية خالتي حلا الصارمة بضبطها فعلاً، لدرجة أن جميع الأطفال في مجمع قصور الجادرية أصبحوا يخشونها لما عرفت به من حزم.

وقد بقيت ملازمة لخالتي إلى أن توفيت قبل احتلال العراق بفترة..

ذات يوم، حين بلغت خالتي حلا الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها، عادت إلى القصر وهي تحمل معها عدة قطط برية قامت باصطيادها، وتصادف أن تواجد جدي صدّام حسين عندها في القصر..

دخلت حلا وهي تحمل الصيد بيديها، وعلى كتفها بندقية صيد، وقد أصابها ما يصيب من يذهب للصيد من مختلف الأمور.. بالإضافة إلى أنها عادت ومعها صيد أرته بفخر لجدي صدّام حسين..

صدم جدي صدام حين رآها..

وبعد قليل، طلبها إلى إحدى الغرف وصارحها:

«حلاوة!.. إنتي صرتي مره... مَيصير تطلعين تصيدين مثل الأولاد...».
أكمل جدي توجيهه لها بهدوئه وأدبه المعروفين. وما زالت والدتي وخالتي تذكران الكثير مما لقنهما إياه؛ حيث تعلمتا الكثير من الأمور التربوية منه..

كانت كلمات جدي بمثابة القرار الذي نقل حلا من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الأنوثة؛ رغم أنها استمرت نوعاً ما على شقاوتها وانطلاقتها إلى أن قاربت بلوغ التاسعة عشرة..

كان المرشح للزواج منها بالطبع هو الشقيق الأصغر لوالدي وعمي صدّام؛ وهو عمي الآخر حكيم كامل الذي كان شاباً مكتمل الفتوة، ووسيماً.

وقد بلغت خالتي حلا التاسعة عشرة من عمرها؛ وهي السن التي تعتبر فيها الفتاة كبيرة جداً بمقاييس عائلتنا، وبالمقارنة مع شقيقتيها اللتين تزوجتا بحدود الخامسة عشرة..

ولكن المفاجأة كانت حين رفض جدي الفكرة تماماً.. وكان مبرر جدي للرفض هو منزل جدي الآخر كامل؛ إذ لم يرد جدي أن يعطي إشارة غير

مباشرة لبقية الأقارب بأنه لا يوجد منزل كفؤ لمناسبة صدّام حسين سوى منزل كامل، لذا قرر أن يزوج حلا لمنزل آخر من العشيرة..

وفي الوقت نفسه، كانت الشقيقتان راغبتين في أن تتزوج أختهم من شقيق زوجيهما، وقد منع جدي حلا من الجلوس مع شقيقتيها في تلك الفترة خشية التأثير عليها..

كانت تلك رسالة واضحة بالنسبة إلى عائلة جدي كامل: لا تتقدموا!

في تلك الفترة، كنت أزور خالتي حلا كثيراً في جناحها في الطابق الأول من القصر الجمهوري. وكانت لديها صديقة تعيش معها، وكانت تتمتع بكل ما تتمتع به خالتي حلا في القصر من معاملة وملبس ومأكل.. وكان جدي صدام حسين يعاملها معاملة الابنة..

كنّا نستمتع بالعبث في دفاتر التلوين الكثيرة التي تحبها.. وقد وقع الاختيار على جمال مصطفى لأنه من عائلة كريمة ولكونه شخصية تليق بخالتي حلا، وبالفعل، جاء جمال وخطب خالتي حلا... وكان جدي صدّام حسين حريصاً جداً على أن يفاتحها بالموضوع بنفسه لكي يتأكد أنها لن تتخذ القرار تحت أي ضغط..

وبالفعل، توجه جدي صدّام حسين إلى غرفة حلا.. وجلس إليها، وأبلغها بتقدم جمال لها وبأنه يراه مناسباً، وأكد عليها بأن القرار لها، وأنه لا توجد أي ضغوط، وطلب منها ألا تجيبه حالاً، وأعطاها صورة ملونة له أخرجها من جيبه..

وبالفعل، كانت خالتي حلا مقتنعة، وقد ردت على والدها بالقول: «الذي تراه يا والدي».. فأكد جدي أنها بلغت سن التاسعة عشرة، وأنه يراها

سناً مناسبة للزواج.. فأبلغت خالتي حلا جدي بموافقتها، وبعدها أعلن جدي عن موافقته..

تمت خطبة خالتي حلا، وبدأت الاتصالات الهاتفية بينها وبين خطيبها في الحدود المتعارف عليها..

بدأ التحضير للزفاف فعلياً، وكانت خالتي حلا تصر على زوجها كي يتعلم رقصة «التشوبي» العراقية. وكان أكثر الناس تعرضاً للصدمة نحن الأحفاد؛ ففي ليلة وضحاها تحولت صديقتنا حلا من طفلة كثيرة الحركة إلى امرأة كاملة الأنوثة، امرأة جميلة..

لم تعد تلك الفتاة التي تقوم بثني علب المشروبات المعدنية وتلعب بها الكرة..

رغم أنها أسرَّت إلينا أنها كانت تقوم بتلك الحركة ذات يوم، ودخل عليها خطيبها أثناء اللعب ما أوقعها في حرج شديد، فحلفت بعد ذلك ألا تعود للعب الكرة بالقواطي أبداً..

وما زال زوج الخالة حتى ساعة كتابة هذه المذكرات سجيناً في أقبية المغول الجدد، بلا أية تهمة؛ إلا الرغبة في الإساءة لعائلة صدّام حسين..

في زفاف خالتي حلا حضر جمع كثير من الأعيان، وأحيا الفنانان العراقيان الشهيران حاتم العراقي وكاظم الساهر الحفل..

أخذت الخالة حلا أغراضها من القصر الجمهوري وانتقلت مع زوجها، ولكنها تركت «سالي»..

ذات يوم، أضاعت الخالة حلا سالي، فخرجت إلى الحرس وأبلغتهم بأنها تبحث عنها، وطلبت منهم مساعدتها في البحث عنها..

وبعد ثلاث ساعات، جاء الحرس بأجهزتهم، وبدا عليهم التعب الشديد، وقالوا لخالتي إنهم فتشوا حدائق القصر شبراً شبراً ولم يجدوا أحداً، ولم يخرج أحد من البوابات. فأخبرتهم بأن سالي قد تقفز، من قال إنها ستخرج من البوابات؟! وبعد سنوات، أخبرني أحد الحرس بالقصة كاملة..

مرت لحظات من الصمت، ولكنهم فهموا أخيراً أن سالي هي كلبة الخالة حلا التي أهداها إياها أحد أفراد العائلة..

قال لي الحرس وهم يروون القصة: «لقد نشفت القملة في رأسنا ونحن نبحث عنها..».

وهو تعبير عراقي غاية في الظرافة للتعبير عن المعاناة الشديدة!

عاشت سالي متنقلة بين القصور في ما بعد...

وقتلت بغارة أمريكية أثناء الحرب..

مع من قتل من البشر والدواب والشجر والحضارة!

وبزفاف الخالة حلا اكتمل عقد العائلة، وعاد الهدوء إلى منزل جدتي ساجدة: الهدوء نفسه الذي بدأت به حياتها حين زُفّت إلى سيد الرجال صدّام حسين..

تروي لي الجدة ساجدة في لحظات الصفاء عن الشاب صدّام الذي تزوجها، فتقول باسمة رداً على أسئلتي الكثيرة التي كنت أطالبها بها بوصف جدي صدّام حسين كزوج:

«كان زوجاً مثالياً. لم يكن عصبياً، وربما زادت عصبيته بعد أن استلم الحكم بسبب الضغوط العملية وغيرها. كان يعود من الدوام وأعود من عملي، ينام قيلولة الظهر ريثما أجهز له طعام الغداء، نتغدى ثم نخرج في المساء لنسهر في مكان ما أو نشاهد فيلماً في السينما.. وكنا نخرج أحياناً مع أحد أصدقائه وزوجته، كان لديه الكثير من الأصدقاء..
والقليل من الوقت لهم.. يحبهم ويسأل عنهم.. لا يزالون أصدقاءه اليوم وهو رئيس، ويأتون لزيارته في أوقات يستقطعها لهم من جدوله المزدحم، فيتحدثون فيها عن تلك الأيام.. ويلعبون الشطرنج...».

كان جدي مواطناً عراقياً استثنائياً في ما ترويه جدتي عن سيرته قبل الثورة.. وحتى قبل السلطة.. كان يمكن أن يعيش ويموت كغيره.. ولكنها نفسه العظيمة..

وطموحه الاكبر أن يرى العراق عظيماً.. قوياً.. آمناً.. مستقلاً.. ذلك الحلم الذي طارده في وقت مبكر من حياته..

الفصل الخامس كوكب زمردة: نساء العائلة والأخوات رغد ورنا وحلا

كان جدي صدّام حسين جالساً بيننا وهو يفكر بعمق في أمر ما.. لم نكن نعلم تماماً ما الذي كان يفكر فيه، ولكن على أية حال لم يكن تخمين ذلك الأمر صعباً..

فهو لا يفكر إلا بالعراق!

اقتربنا منه لسؤاله عن أمر ما: «بابا صدّام، هل يمكنك أن تُرينا ساقك اليمنى؟».

فهم جدي صدّام أن هناك من سرد علينا قصته، فابتسم ورفع بنطاله العسكري لكي نرى أثر جراحة مستطيلة وواضحة على ساقه..

بدأنا ننادي بعضنا ونحن جالسون حوله على الأرض، وبدأ الأحفاد يتوافدون لرؤية أثر الجراحة.. أثر الرجولة.. وأعاد لنا جدي القصة مرة أخرى.. تلك القصة التي لم نمل سماعها، وكنا كل فترة نطلب منه إعادتها على مسامعنا.. وننبهر بها في كل مرة وكأنها المرة الأولى..

* * *

بالطبع، كانت جدتي ساجدة في جلسة أحفاد «رائقة» هي التي روت لنا تلك القصة..

وأخبرتنا عن نضاله حين كان شاباً، وحين تركها أثناء فترة الخطوبة لفترة، ثم تركها وهي لا تزال حاملاً بخالي عدي وذهب لأداء مهمة لا يعلم إن كان سيعود منها حياً أم لا.

وحين فشلت المحاولة، هرب وقام بعبور النهر سباحة، ولكنه أصيب في ساقه بتلك الرصاصة التي بقيت وساماً يدل على شجاعته..

وحين وصل إلى بعض رفاقه قاموا بعلاجها بطريقة بدائية..

نعود إلى جدي صدّام ونسأله:

«هل كنت تصرخ أثناء إخراج الرصاصة من ساقك؟».

.. فينظر بعينيه القويتين إلى الأفق ويقول لنا: «الرجال لا يصرخون.. ولا يهابون الموت...».

بعد أكثر من عشرين عاماً من تلك القصة...

قلت وأنا أشاهد جدي للمرة الأخيرة:

ما أصدقك!

الذكريات مع الجد الخالد كانت كثيرة، وكان يتخللها الكثير من التوجيهات التي كان جدي يرغب عن طريقها أن يكون موجهاً أبوياً لنا.. بالإضافة إلى التوجيهات الكلاسيكية التي كنا نسمعها من والدتي وخالتي:

لا تقفزوا بعشوائية، ولا تجلسوا قبل جلوس الكبار.

لا تخرجوا أصواتاً أثناء تناول الطعام.

لا تستخدموا الملعقة المخصصة للأكل للغرف من الصحن الرئيسي.

لا تصدروا أصواتاً بالملعقة أثناء تقليب الشاي.

البنت لا تضحك بصوت عالٍ.

الكبير يجلس إلى يمين من يتصدر الطاولة.

فقد كان لجدي أسلوبه الخاص في التربية.. كان أسلوباً غاية في التهذيب والهيبة: «أغسلتم أيديكم يا أولاد؟»، ثم يتقدم ليغسل يديه فيعلمنا أهمية هذه الخطوة بأن يطبقها على نفسه أولاً..

حين أتذكر دماثة التعليمات التي كان جدي يعلمنا إيّاها، أذكر أنه وإن كان عروبياً وريفي المنطلق، إلا أنه كان وكأنه ابن عائلة أرستقراطية بالتصرفات الشخصية.. شديد الذوق في التصرف وفي آداب المائدة..

كان جدي دقيقاً جداً ويحبّ النظافة. ومن طرائفه حول هذا الأمر أنه في إحدى زياراته للقرى العراقية جاءت امرأة ريفية سيئة الرائحة وألقت نفسها عليه وهي تبكي وتنتحب وتقول له: «زوجي سيتزوج عليّ.. أرجوك أن تمنعه من ذلك يا سيدي الرئيس».. نأى جدي بجسمه عنها، فعاودت إلقاء نفسها عليه وهي تكرّر مقولتها وهو يبتعد عنها.. وفي المرة الثالثة احتضنته برائحتها النفاثة، فنظر إلى حمايته وقال لهم: «أرسلوا لزوجها حالاً أموالاً ومونة هدية مني، وقولوا له إن الرئيس يأمرك بأن تتزوج فوراً امرأة أنظف من هذه»..

حين كنّا نجلس إلى المائدة في بيت جدي -والتي كانت مائدة عراقية بامتياز- ونبدأ بتناول الطعام كان يبادرنا بالقول دائماً: «هل سميتم باللّه؟». فنبتسم ونحن نسمّي ونتبع تسميتنا بعبارة «أوله وآخره» التي تسعف من نسي..

يؤكد جدي: «إذا لم تذكروا اسم اللّه فسيأكل الشيطان من أكلكم».

كما ينوّه علينا: «لا تضع في صحنك أكثر من حاجتك»..

هواياته كانت كما هي في تراثنا: الرماية والسباحة وركوب الخيل.. كهوايات أي فارس مكتمل الرجولة..

إحدى أجمل ذكرياتنا مع جدي كانت حين نُحضر له شهاداتنا الدراسية ليقوم بالتوقيع عليها بصفته ولي أمرنا..

وكما يفعل والدي في حال لم يكن جدي متواجداً، كان يطيل النظر إلى الشهادات، ويتمعن بها، ويقرأها باهتمام ثم يوقع، ويقارنها ببعضها، ويقول لمن حاز على أعلى العلامات كلمة واحدة تجعلك تعيش نصف حياتك سعيداً وأنت تسترجعها: «عفية!»..

كان يُلاحِظ أي تغيير معين يطرأ على أحدنا، ويستفسر منه عن سبب هذا الأمر. ولم تتوقف قوة ملاحظته على درجاتنا المدرسية..

بل كان حتى في فترات غيابه حين يعود يلاحظ أن وزني قد زاد أو انخفض، فيسألني عن السبب. ويوصيني ببعض الوصايا الصحية التي يمكنها مساعدتي..

حين يولد حفيد جديد في الأسرة، كان يحرص على توزيع المال على جميع الممرضات، ويحوّل ولادة الحفيد إلى عيدٍ لهن جميعاً.. ويقوم بنفسه بإلباس الأم الوالدة هدية.. كان كريماً ويبحث عن سبب لكي يهدينا شيئاً ما.. وتشمل هداياه الجميع.. حتى المربيات والعاملات.. وكان يجد وقتاً للأسرة على الرغم من انشغالاته التي لا تنتهي.. ورغم تنقله المستمر بين البيوت البديلة.. ورغم أنه كان يخبرنا بأن معدل نومه لا يزيد عن الساعات الأربع يومياً، وفي أحيان نادرة يصل إلى خمس ساعات..

كان كرمه منقطع النظير.. فهو لا ينتظرك لتطلب؛ وهي صفة لا يملكها إلا صدام حسين وبامتياز..

كان لديه العديد من الرفاق والأصدقاء من أيام ما قبل تقلده السلطة.. وأحدهم كان مميزاً للأسرة ويحب والدتي كثيراً. وكنت أزوره نيابة عن والدتي بعد وفاة والدي، وهو العم حاتم العزاوي الذي كان هاوياً شبه محترف

للعبة الشطرنج، وكثيراً ما كان يلاعب جدي صدام حسين.. ويقول لي وهو يضع الرقعة بيننا: «لقد لاعبت جدك ثم لاعبت أخوالك ووالدك.. واليوم أنا ألعبها معك»..

هناك الكثير من التفاصيل التي تدل على أن جدي لم يكن رجلا عادياً منذ صغره؛ فقد رفض فكرة عدم دخول المدرسة، وأصر على إكمال تعليمه بشكل كبير جعله يهرب إلى بيت خاله حتى يتسنى له التعلم؛ وهو الأمر الذي لم يكن مهماً في العوجة..

بالإضافة إلى استمراره بدراسة القانون داخل المعتقل خلال أيام اعتقاله الأولى على الرغم من أنه كان محكوماً بالإعدام.. كان يعمل لدنياه وكأنه يعيش أبداً.. ويعمل لآخرته وكأنه يموت غداً..

ومن القصص الطريفة أن جدي وجدتي كانا يسكنان في منزل بسيط، وجاءت شقيقته سهام للسكن معهما وهي الفتاة الصغيرة التي لم تنهِ الثانوية، وكيف أصبح يهتم بها، وأقنع زوج أمه إبراهيم الحسن بأن يسمح لها بإكمال دراستها في وقت لم يكن فيه الآباء يسمحون لبناتهم بالدراسة..

وبدأ بمراقبتها خفية لمدة أسبوع في ذهابها وعودتها حتى اطمأنَّ لجديتها في الدراسة فكف عن المراقبة..

حين نسأل جدتي عن الحب الذي تشكل بينها وبين جدي.. تحمر وجنتها وتقول إنه رآها حين جاء للسكن عندهم.. وحين نسألها عن عمرها لا تجيب، وحين نلح عليها بالسؤال تقول لنا إنه أربعون، وقد بقيت على ذلك الرقم طوال عمرنا معها.. إلى أن حدثنا جدي صدام ذات مرة عن أمر ما وذكر عمرها أثناء تلك الحادثة، فعرفنا بالقياس إلى زمن الحادثة عمرها

الحقيقي.. وبعدها، التفت جدي إلى جدتي وسألها عن الذي علمها ركوب الخيل، فأجابته دون أن تنظر باتجاهه: «عدنان!».

ضحك جدي بقوة.. وكرّر عليها السؤال وهو يقرب رأسه منها فأجابت مرة أخرى دون أن تنظر باتجاهه: «عدنان!».

واستمر جدي بضحكته الكبيرة لعنادها وخجلها.. وعندها، عرفنا أن قصة حبهما كانت عربية خالصة ككل قصص الحب الجميلة.. وككل قصة حب بدأت على ظهور الخيل..

وعن علاقته بالخيل تحكي الكثير.. فقد بدأ حبه للخيل منذ الطفولة؛ حين كان يملك خيلاً برية عضّتها عقربة ذات يوم مطير فتسممت، ونام جدي صدّام بجوارها حتى ماتت.. ومن شدة حزنه عليها أصابته الحمى، وحين صحا في اليوم التالي بجوار جثتها كان مصاباً بشلل نصفي.. وقال الأطباء إنه سيتحسن مع الوقت.. وقد بقي بعض آثار هذه الحادثة يظهر أيام انفعاله في الثمانينيات على هيئة حركة فمه حين يتحدث.. وقد زالت بدورها مع الزمن..

وتذكُر لنا أن جدي كان منذ أيامه الأولى يكثر من قراءة القرآن، ويحفظ الكثير من الآيات والسور..

في طفولة جدي لم تكن هناك محاذير.. ثعابين.. عقارب.. وغيرها... كان يلعب مع العقارب، ويسكب الماء في جحرها فتخرج العقارب الصغيرة فيمد يده فتصعد عليها ويلعب بها حتى لدغته واحدة كبيرة ذات مرة وخدرت يده فكف عن اللعب مع العقارب..

حكايات جدتي لا تُمّل على قلتها.. تذكر كيف طلب جدي «منشاراً» من خالته بدرة وهو في السجن، فقامت بتهريب المنشار له بطريقة طريفة..

حيث أخذت معها خالي عدي وهو طفل، ووضعت المنشار في قماطه.. حيث كان جدي قد طلبه لنشر القضبان الحديدية الموجودة على الشباك في السجن لكي يتمكن من الهروب..

ولكي يغطي صوت آخر على صوت نشر قضبان الزنزانة كان جدي صدام حسين يجعل زملائه السجناء يغنون ويصفقون كل يوم بينما يقوم أحدهم بنشر الشباك الحديدي..

ثم تذكر بغضب كيف كانت بدايتهما صعبة، وكانت قد أنجبت «خالي عدي» للتو.. ورغم ذلك طردتها صاحبة المنزل الذي كانا يقطنان فيه بسبب الحكم بالسجن على جدي آنذاك، ورمتها وأغراضها ورضيعها في الشارع. وتذكّر طلبها من جدي أن يعاقبها حين استلم الحكم فلم يوافق. بل جاءت ذات مرة بعد أن أصبح رئيساً للعراق لتعتذر له عما بدر منها، فأجزل لها العطاء؛ ما أغضب جدتي ساجدة جداً..

كما كانت جدّتي تحثّنا على الدراسة بالحديث عن شطارة أمهاتنا في طفولتهن، وتضحك وهي تذكر خالي «قصي» الذي كان الوحيد بين الأبناء ممن لم يحصل على درجات مرتفعة.. وكانت خالتاي وخالي عدي يعايرونه «بالكسلان»، وقد عاقبه جدي ذات مرة بطريقة قاسية، إذ أوقفه تحت الشمس في ظهر أحد الأيام الحارة؛ الأمر الذي أدى إلى تحسن درجاته في الشهر الذي يليه..

من أجمل الأنشطة التي كنا نقوم بها مع جدي نشاط تجميع «الچما» أو الكمأة/ الفقع كما يسميه البعض..

كنا نخرج مع جدي إلى صحراء العراق، ويعلمنا كيفية «تلقيط» الكمأة.

وكان الحرس يوزعون علينا «عصيات» بها في الأسفل حديدة مقعرة. وكان ينبّهنا بألا نضرب على الكمأة نفسها، وإنّما أن نحفر بجوارها بهدوء وعمق ثم نرفعها من الأسفل..

كان يقول أثناء الفعالية إن أرض العراق طيبة، وماءها طيب، وكل ما يخرج منها طيب.. كما حرص على أن يزرع فينا حب هذه الأرض وعدم التفريط فيها.. وحين يريه كل منا الكمية التي قام بتلقيطها كان يقول لنا: «عفية!»..

تعلمنا لكثرة خروجنا معه أنواع الكمأ، وكنا نبتعد عن نوع يسمى بالشيخي له ملمس إسفنجي ولا يكون طيب الطعم..

بعد ذلك، كان يتم جمع الكمأ في أكياس، وإهداء بعضه كصوغات للأهل والمعارف. أما في المنزل فتبدأ الحفلة الحقيقية..

كانت جدتي ساجدة قد جهزت احتياجات تنظيف الكمأ.. فهي طباخة ماهرة ومدبرة منزل من الطراز الأول.

وكانت قد خصصت في القصر الجمهوري حوضين خاصين لإعداد الجبن، ولا يتم استخدامهما في أي أمور أخرى حفاظاً على نظافة الجبن أثناء إعداده. يوضع السائل في «شچوة» بيضاء، وينزل منها الماء ولبن البقر الذي تم إعداده منه، ثم يقولب في قوالب مستطيلة ويضغط إلى حد خروج الزبدة منه، ويكون طريا في العادة ولذيذا وقليل الملح.. نسميه جبن ماما ساجدة، ونميّزه بنقاطه المميزة من أثر القوالب..

... كان طعماً من الجنة!

من أهم التقاليد العائلية المنزلية حفلة تنظيف الكمأ حين يصل في موعده السنوي... كان أول ما تقوم به جدتي بمعاونة أمي وخالتي رنا هو تنظيف الكما بالكامل، وليس بأيدي العاملات. كان يوضع في الماء، وينقّى من الأوساخ والطين، ثم يتم غسله، ثم يقشر بسكين جديدة. يتميز الكمأ بأنه ذو نتوءات وتضاريس، وليس مثل البطاطس، لذا تكثر فيه الحفر التي يجب التعامل معها دون إفساد الحبة، وخاصة إذا كانت الحفرة تمتلئ بالطين، ثم نقوم بغسله مرة أخرى..

يوضَع في «نجانه» أو إناء صغير من البلاستيك، حيث ينزل ماؤه، ثم يبدأ سباق التقشير..

كان الجميع يشتركون في ذلك السباق: أنا وموج بنت خالي قصي ونبع ابنة عمي صدام كامل وشقيقتي وهج بالإضافة إلى أمي وخالتي رنا..

لم يعد للكمأ والخضار الطعم نفسه؛ فقد أصبحت بعد ذلك مليئة بإشعاعات اليورانيوم!

يؤكل الكمأ مسلوقاً وأحياناً مع الأرز أو طرق أخرى لطبخه حسب الاجتهاد.. كانت أرض العراق وبادية سوريا أشهر أماكن إنتاجه في العالم..

أما اليوم فقد شحّ كثيراً، واكتفت أغلب الأسواق باستيراد الكمأ عديم الطعم أسود اللون الذي يأتي من إيران..

كأي شيء أسود عديم الطعم استبدلناه في بلادنا!!

لجدي إيمانه بقدرات المرأة في المجالات التي تناسب طبيعتها وتكوينها. فحين اقترح عليهم والدي إنشاء مدرسة الشبيبية الخاصة ودعمت

والدتي الفكرة، نزل جدي إلى رأيها، ووافق على إنشائها فوراً وفي الجلسة نفسها..

كانت المدرسة مخصصة لدراسة الأقارب؛ حيث إنها مختلطة في مرحلتها الابتدائية، ثم يتم الفصل بين الجنسين في المراحل العليا. لم يكن البعض من العشيرة يسمح للمرأة بالدراسة بسهولة. وفي الجامعة، كانت هناك شروط كثيرة، فلا يسمح لنساء العائلة من الحلقة القريبة على سبيل المثال التخصص في مجال الطب؛ حتى إن كان معدلها يسمح بذلك.

أصبحت والدتي معاونة مديرة مدرسة الشبيبية. كانت شديدة ومحبوبة في الوقت نفسه من الطلبة ومن المدرّسات.. كما كانت تقوم بتدريس بعض حصص اللغة الإنجليزية..

في أحد الأيام، كان والدي يجهز نفسه للذهاب لافتتاح جسر الطابقين في بغداد.. وكنا قبل يوم من الافتتاح قد عرفنا أنه ستكون هناك ألعاب نارية على اليابسة بجوار النهر حيث سيتم افتتاح الجسر، فطلبنا من الحرس أخذنا إلى هناك، وقد فعل الحرس ذلك.. في تلك الفترة، لم تكن أمي تعرف أين نحن، وكانت تعلم أن والدي لم يأخذنا..

عوقب الحرس على أخذنا دون العودة إلى والدينا بالذهاب لمدة ثلاثة أيام إلى دورة تسمى دورة الضبط في الأجهزة الأمنية.. ولكن والدتي توسّطت لدى والدي للإفراج عنهم لكي لا تفسد فرحتهم في ذلك اليوم!

* * *

عيد ميلاد جدي في الثامن والعشرين من شهر نيسان/أبريل كان مناسبة مميزة سنوياً. وكان أكثر المناسبات التي ننتظرها بشكل سنوي؛

حيث يتم جمع المتفوقين من أنحاء العراق كافة، بالإضافة إلى أحفاد صدام حسين، وتقوم مسؤولة القصور المرأة الشديدة أم خالد التي لديها صلاحيات كبيرة في ذلك اليوم بتنظيمنا..

في العادة، يجري الحفل قبل موعده الحقيقي بفترة (لأسباب أمنية)، وتجري العادة على أن يتصل عبد حمود بكل بيت ويخبرهم بأن يجهزوا الأطفال ليوم غد أو لليوم نفسه. وعادة، تُجهّز أمي لنا الثياب لكي نكون جاهزين متى جاء الاتصال. وفي إحدى السنوات تأخر الاتصال كثيراً.. بل لم يأتِ أصلاً.. ثم فوجئنا حين شاهدنا عيد الميلاد في التلفاز، ولم نرَ حول جدي سوى أبناء عبد حمود! عندها، غضبت جداً من هذا الأمر، وكذلك الأحفاد وأخذناه بشكل شخصي ومضحك. كانت زوجة عبد حمود امرأة بسيطة وطيبة، وأبناؤه لطفاء، إلا أنني قررت أن أضعه هو في خانة الذين يجب أن ألقنهم درساً. وفي عيد ميلاد جدي الذي يليه، اجتمعت كلمة الأحفاد على أن نعيد لهم الكرة؛ وقمت بإقناع الأطفال بأنني مكلفة بترتيبهم، ووضعت نفسي في المقدمة، وطلبت من أبناء عبد حمود الرجوع إلى آخر الطابور عقاباً طفولياً ومازلت نادمة عليه حتى اليوم.. جاء جدي ومشيت معه، وكنت الأقرب إليه، وكانت لي معه تلك الصور الشهيرة..

في نهاية الاحتفال يتم توزيع الكعكة على جميع العساكر في المواقع، وعلى المناوبين، والذين يسهرون على حماية العراق؛ بناء على أوامر جدي.. كان العنصر الأهم في الاحتفالات هو النظافة والحفاظ على النظافة..

فقد كان جدي يحب ويهتم بنظافة قصوره بشكل كبير. وفي إحدى المرات، أثناء دخوله أحد القصور في وقت لم يكونوا يتوقعون وصوله إليه فيه، لاحظ وجود طبقة من الغبار في الممرات..

عندها، طلب مسؤولة النظافة في ذلك القصر، وأخبرها بأنه سيخرج ويعود خلال ساعتين ويريد أن يرى القصر يلمع..

وبالطبع، لا حاجة لي بشرح المعسكر الضخم الذي كان يعمل في القصر خلال ساعتين. ولكن جدي كان جاداً، فحين عاد كان يتفحص التفاصيل، ويضع يده على أعلى الأبواب، ويجلس إلى طاولة الاجتماع فيمرر يده على أسفل الطاولة كي يرى إذا كانت غير مغبرة على سبيل المثال، ويراقب الأماكن والزوايا إن كانت فيها شباك عناكب. وكلما عثر على خطأ كان الموظفون ينالون حظهم من التوبيخ..

رجوعاً إلى حديثنا عن والدي في مدرسة الشبيبية وبسبب اختفاء صوتها تدريجياً، وبعد تحذير الطبيب لها من أنها إذا استمرت في التدريس فسوف تسيء الى حبالها الصوتية، توقفت أمي عن ممارسة المهنة التي طالما أفنت أوقاتها من أجلها..

أحبت أمي مدرستها بشكل كبير، وكانت تجهز حلوى «الحلقوم» المنزلية وتوزعها على المدرسات في الصباحات؛ وهي حلوى عراقية وردية اللون يتم تجهيزها بماء الورد..

كنا نقف كل صباح خميس في ساحة المدرسة لأداء رفعة العلم.. حيث يتم رفع علم العراق.. تقف المدرسة كلها.. باعتدال واعتزاز ورأس مرفوع..

ونردد معاً من قلوبنا..

وطن مد على الأفق جناحا..

وارتدى مجد الحضارات وشاحا..

بوركت أرض الفراتين وطن..

عبقرى المجد عزماً وسماحا..

بقي هذا التقليد حتى حين تركنا المدرسة الشبيبية في جميع مدارس العراق إلى عام ألفين وثلاثة..

في كل يوم خميس، كان يتم اختيار أحد الأطفال لرفع العلم، وبجواره اثنان يرتديان زياً خاصاً. في العادة، كان يتم اختياري وأخي علي ومصطفى ابن خالي قصي بشكل متناوب لرفع العلم. وبعد أحداث عام خمسة وتسعين التي سأتحدث عنها، كان مصطفى هو الوحيد الذي بقي من بيننا في تلك المدرسة، لذا كان هو من يرفع العلم. وفي مدرستنا الأخرى، كانت سعادتي في الأيام التي يتم اختياري فيها لا تقارَن بأي طعم سعادة آخر.. سعادة أن ترفع علم وطنك..

كنت أزور منزل عبد حمود أحياناً للهو مع ابنته زينة، فأفاجأ بشخصية رجل حنون يعطي الوقت للعائلة والزوجة..

كان في تدريسه أبناءه طويل البال بشكل لا يوصف، وهادئاً. وعلى مشاغله مع جدي، كان يفرغ من وقته ما بين ٣- ٤ ساعات يومياً لتدريس أبنائه.. ويخرج مع زوجته لعشاء مسائي؛ وهو الأمر نادر الحدوث في أوساط العائلة تلك الأيام..

بيتهم هادئ من الداخل، وكانوا يعتمدون على مطابخ الدائرة في التغذية؛ وهو الرجل المشهور بالتوفير. أما في منزلنا فكانت والدتي ترفض الاعتماد على مطابخ الدائرة، وتراه عيباً..

أجمل يوم دراسي لي على الإطلاق كان يوم قام جدي صدام حسين بزيارة مفاجئة للمدرسة.. وقد زار جميع الفصول بالترتيب، وكنت أنتظر زيارته إلى صفي بمنتهى الفرحة.. وحين جاء إلى صفي وبدأ يسأل المعلمة عني كوليّ أمر.. «كيف هي حرير؟»... قالت المدرسة: «شاطرة»، وهي تنظر إلي بنظرة ذات مغزى، لن أخذلك أمام جدك.. قال جدي كلمته الشهيرة «عفية..!».. فأحسست بالفخر أمام الجميع!

حين نذهب بالسيارة مع أمي للمدرسة أو لأي مشاوير أخرى، فإن التعليمات الصادرة إلى السائقين كانت واضحة جداً؛ حيث يجب رفع المرآة الداخلية، ولا يُسمَح للسائق بالنظر إلى الخلف..

وفي كل الأحوال، كنت أحب الركوب مع والدي أكثر من السائقين، وكان والدي يحوّل النزهة بالسيارة إلى متعة حقيقية... الرحلة هي المتعة كما يقول الأجانب. وفي إحدى المرات، خرجنا معه إلى مزرعة المدائن خلف طاق كسرى.. وهي إحدى أجمل مناطق بغداد التي استولت عليها الحكومة العراقية العميلة.. كنا نتمشى مع والدينا، وأراد أبي أن يصوِّب على قطعة قصب طافية في النهر الذي تطل عليه المزرعة من مكانه... وسط ذهول والدتي والحرس المرافقين في السيارة الأخرى.. وكنا نعجب بقدرته على التصويب الدقيق.. حيث كان والدي متمكناً جداً من التصويب..

كان والدي يحبّ التصويب، وكثيراً ما كان يصطاد أنواع الطيور المزعجة في مزارعنا..

أحياناً، كان والدي اثناء قيلولته في غرفته المخصصة لراحته في حال انشغاله الشديد في مصانع التصنيع العسكري يشتاق لنا... فيرسل السائق لكي يحضر له أخي «علي» ليُسليه في عمله. وبعد أن جاء أخي صدام، كان يطلب من الحرس إحضار صدام له وهو طفل، إلا أن أخي «علي» الذي أصابته غيرة طفولية كان يخرج للحرس على الباب فيخبرونه بأن والده قد طلب «صدام» فيقول لهم: «صدام نائم...» ويغلق الباب!!

كان والدي حسين كامل يتناول العشاء الخفيف، ويحرص على وجود الخضراوات بجوار الطعام في كل وجبة، فتوضع له صينية، ويحب أكل اللبن (غير مكسور) في وجبات الغداء. ولم يكن يغير نمطه إلا إذا ذهبنا في إجازات للغداء في العوجة مسقط رأسه.. حيث تقوم أمي بطهو البطاطس بالكاري له، وهي أكلة عراقية معروفة..

ويتم تناولها مع الخبز العراقي الشهير..

في منزل جدي كامل في العوجة، كان منزل والدي ملاصقاً لبيت جدي، وهناك منور يفصل البيتين. كما كان هناك باب من الزجاج يفصل بين قسمي المنزل.

هناك كنت أزور جدتي صفية رحمها الله، والتي استشهدت بدورها في قصة غريبة سأرويها لاحقاً. كانت امرأة طيبة وسريعة الانفعال والزعل، عزيزة النفس، كثيراً ما كانت تزورنا في بغداد أحياناً وتبيت لليلة واحدة ثم تغادرنا في الفجر.. لم تكن ترضى أن تمد زيارتها لأكثر من ليلة؛ مهما

ألححنا عليها.. كانت خفيفة دائماً، وتخجل ولا تحب أن تُثقِل على الآخرين..

وكامرأة.. كانت شجاعة جداً..

كنت أحبها، خاصة وأنا أرى في عينيها حزناً قديماً قيل لنا إن سببه هو أنها فقدت أحد أبنائها واسمه سعد وقد كان من حرس جدي، حيث تعرضت سيارته لحادث سير أثناء ذهابه لإحضار الغداء له وللحرس وفُجعت به جدتي، ثم فقدت بعد سنوات حفيدها «محمد» ابن عمي جمال كامل، والذي مات غرقاً بعد سقوطه في بئر مكشوفة في حديقة عامة تعود ملكيتها للدولة في ناحية العوجة..

كانت تلك البئر تغذي تلك المنطقة.. وكان محمد يلاحق الفراشات مع شقيقه، وحين رأى الماء قال له: «هذا مال الجنة»؛ وهو مصطلح يستخدمه أهل العوجة للدلالة على ما يعجبهم، واقترب من الماء وسقط فيه.. اكتشفه الحرس بعد ذلك. وبعدها، فقدت حفيداً آخر بسبب مرض السرطان، وهو ابن ابنتها عمتي خالصة. ولم أكن أعلم ولا جدتي صفية أن مأساة ابنها ومحمد ابن جمال ليست شيئاً مقارنة مع المأساة التي ستعيشها خلال سنواتها القادمة..

في منزل العوجة كنا نحضر «ضوءنا» معنا، وهو اختراع قمتُ بتفصيله وطلبتُ من عمال الصيانة في القصور صناعته لي. وهو عبارة عن ضوء به كابل طويل يمكننا وضعه أو تعليقه أو حمله بأي صيغة.. كنا نعتقد أنه اختراعنا الصغير الخاص.. وبه وصلنا إلى قمة العلم.. كان ذلك في العام نفسه الذي أطلق فيه العراقيون الذين قلدناهم بتصميم

((ضوئنا)) الذي نستخدمه في منزل العوجة أول قمر صناعي تجريبي وصاروخ صنع بأيد عراقية ١٠٠٪ إلى الفضاء الخارجي..

قدرات العالِم والموظف العراقي كانت دائماً متميزة وتسبق الآخرين.. وتذلل الصعاب.. كان العامل العراقي يجد الحلول دائماً.. وقد استغربنا حين ذهبنا إلى دول أخرى ورأينا العمال والحرفيين والصنّاع يطلب إليهم عمل أمر ما ويقولون: لا نعرف كيفية القيام بهذا الأمر.. فهذا الجواب لا يمكنك أن تسمعه أبداً من محترف عراقي يعمل في مجاله ويسأل فيه..

احتفالات رأس السنة كانت لها بصمتها المميزة ضمن احتفالاتنا المختلفة. ففي كل عام، كانت العائلة تجتمع في موقع مختلف. وفي أحد الأعوام، وقع الاختيار على مزرعة ماما ساجدة في منطقة الدورة.. كانت هناك دائماً شجرة عيد ميلاد، وجاء بابا نويل لطيف على عربة جميلة تسحبه، ووزع الكثير من الهدايا، وأشاع جواً من المرح. وتبين في سنوات لاحقة أنه كان خالي «عدي»..

وفي رأس كل سنة، كانت والدتي تُحضِر الهدايا التي سبق لها أن طلبتها من مجلات لافاييت الفرنسية ومجلات أخرى ألمانية كانت تختار منها ما ترغب بشرائه، فتصلها في صناديق كرتونية لكي تقوم بتوزيعها علينا في رأس السنة..

كانت اجتماعات رأس السنة واحتفالاتها ثرية؛ فتجتمع فيها الأسرة، ونلعب ألعاب الأحاجي المختلفة، ونقوم برش الأصباغ والسبراي على بعضنا البعض، وننام ملء جفوننا بانتظار الهدايا التي ستضعها والدتي بالقرب من أسرّتنا..

كان والدي حسين كامل لا يحب هذه المناسبة.. وحين يدخل ويرى شجرة عيد الميلاد كان يبتسم ويقول: «شنو هالخرابيط؟!» ولكنه لا يجبرنا على شيء آخر.

والدي كان يعزل نفسه في رأس السنة، كان يستحرم الاحتفال بهذا اليوم ولا يحبه؛ على الرغم من أنه لم يكن ملتزماً بصلواته، كانت الدنيا وبهرجتها آخر همه.. لم أرَه يهتم بملبسه أو هندامه بشكل مبالغ فيه قطّ. كان زيه العسكري صفتّه وميزته.. وفي إحدى المرات، وأثناء خروجه إلى إحدى الزيارات العائلية، كان يرتدي بنطالاً لا يتماشى لونه مع القميص.. وبدأ خالي قصي وخالي عدي وعمي صدّام يضحكون عليه ويداعبونه..

ولكنه كان يبادلهم الضحك، ولم يهتم بالموضوع.. الأمر لم يهمه.. ثقته بنفسه كانت جبارة.. قليل النوم.. شديد النشاط.. قيلولته مقدسة..

كثيراً ما كان يلعب معنا لعبة الخراف والذئب، فيقوم بالعد حتى العشرة وعلينا الاختباء، ثم يبحث عنا هاجماً بركضه السريع؛ حيث كانت لياقته البدنية عالية، ولم يكن يدخن (كان نمط حياته صحياً)، وقد أثبتت السنوات اللاحقة في حروب العراق أنه كان ذئباً حقيقياً..

لوالدي وعمي شقيق يصغرهما بسنوات، وهو عمي حكيم رحمه الله. وقد كان هادئاً.. أردنا أن نلعب معه ذات يوم وألححنا، ولكنه كان قد تأخر على موعد له في الخارج. قمنا بتخبئة مفتاحه، وقلنا له إنه لن يخرج حتى يعثر عليه. لم يغضب، وقام بالبحث عن المفتاح بهدوء.. لوكان والدي مكانه لحوّلنا إلى مفاتيح فتح بها الباب!

من أقارب والدي المميزين كذلك عاصف ابن عمتي مناهل. وقد كان متعهد الألعاب الإلكترونية في العائلة... كان يأخذني في سيارته إلى الكراده، ويقوم بشراء ما أرغب به من حلويات وبالونات وغيرها، وكنت أهدّده بأنني أعرف أين يخبّئ أمواله تحت الكرسي..

حين تستدعي أمي الحلاقة -وهو الأمر الذي لم يكن أبي يحبه بشكل عام- كانت توصيني: «لا تخبري أباك أيتها الفتانة..».

كنا أنا وشقيقي علي نعتبر بمقاييس العائلة شقيّين صغيرين، وكنا نتمتّع بمهارات قيادية في قيادة بقية الأحفاد للشقاوة؛ حيث كان علي يخطط، وأنا أشرف على التنفيذ.. وكان الجميع يعتقد أنني أقف وراء كل شيء؛ رغم أن «علي» كان هو المخطط، فيما كنت أنا «مديرة تنفيذية»!

ورغم أنني كنت قريبة من جميع الأحفاد، إلا أن علاقتي بشقيقي علي كانت متميزة. كنت أشجعه على الدراسة، وأنسق ثيابه قبل ذهابه إلى مدرسته «الإنترناشونال سكول» والتي كانت تسمح للطلبة بالحضور بالزي العادي لا بالزي الرسمي...

في أحيان معينة، كان خالي قصي ينظر إلينا ونحن نخطط «لمشروع ما»، ثم يهزّ كتفيه ويقول: «رغد وحسين شراح يخلفون يعني؟! أكيد شياطين يمشون عالكاع».

في طفولتي، لم أكن أستطيع لفظ حرف الـ «چ» بشكل سليم، وحلق الأذن الذي يسميه العراقيون «تراچي» كنتُ أسميه «كراكي» بالكاف.. وذهبت لقباً..

جاءت حرير كراكي، وذهبت حرير كراكي..

كان جدي صدّام قلقاً على وضعي في البدايات حين تأخرت في النطق، حيث سأل والدتي بأدب ذات يوم: «هل راجعتم الطبيب؟». ففهمت والدتي مقصده، وضحكت وقالت له:

«هل تخشى أنها خرساء؟... لا تخف بابا، إنه تأخر طبيعي».

لم أبدأ بالكلام إلا حين وصلت إلى سن الرابعة. ولكن، في ما بعد، أصبحت والدتي وخالتاي يقلن لي ضاحكات إنني حين بدأت بالحديث عوّضت عن كل ما لم أقله في سنواتي الأربع الأولى..

وبسبب وضعي الصحي، كانت والدتي تحلق لي على هيئة الأولاد لكي لا أمرض أو أصاب بالزكام إذا ما قمت بالاستحمام كثيراً؛ خاصة وأن شعري كان كثيفاً ويصعب تنشيفه بسهولة..

خالتي حلا كانت تضحك وتقول لأمي إن شعري ينبت طولياً مثل أفراد عائلة سيمبسون..

بشكل عام، كان يُفرَض علينا النوم في وقت مبكر؛ حيث تغلق الأنوار ويذهب الجميع للنوم في حوالي السادسة مساء في أيام المدارس. كنتُ أحتال دائماً لإطالة أمد الجلوس قبل النوم، وكانت شقيقتي وهج طفلة هادئة ومطيعة، وكانت تنام فوراً عند ذهابها للسرير؛ على عكسي وشقيقي علي الذي كان يلهو بأورج كهربائي أهداه إياه عمي صدّام كامل حتى وقت متأخر من الليل..

في أيام الإجازة، كان يُسمَح لنا بالسهر لمشاهدة مسلسل تلفزيوني شهير؛ وهو «أيام الإجازة: وديع ولبيبة». فكنا نشاهده أثناء العشاء في غرفة الألعاب.. كنّا نلعب كثيراً تمثيليات أقوم بها أنا بتمثيل دور جدتي ساجدة، بينما يمثل أخي دور المطرب حاتم العراقي.. هو يغني وأنا أدخل

القاعة، ويقوم الباقون بإلقاء نقود معدنية علي وهم يهللون... ألعاب طفولية بريئة..

في أحد الأيام، أقنعنا شقيقتي وهج بألا تنام، وطلبنا منها أن تعزف على الأورج بينما يغني حاتم العراقي -أي علي- وتخرج ماما ساجدة للجماهير؛ أي أنا.. وفي منتصف التمثيلية، وبينما كانت وهج تدير ظهرها للباب، فُتِح الباب، ولكنها لم تسمعه بسبب صوت الأورغ. كانت أمي هي القادمة والعصبية واضحة على وجهها، فتسمرنا في أماكننا..

وبينما كانت وهج لا تزال تعزف بالطريقة الرديئة ذاتها وهي تتمايل.. دخلت أمي، واستمرّت وهج بالعزف دون أن ترفع عينيها.. اختبأنا أنا وعلي..

أمي غاضبة جداً.. وهج ما زالت تعزف دون أن ترفع عينيها عن الأورج.. التفاصيل لا تهمكم كثيراً...

المهم أن وهج كالعادة قاطعت اللعب معنا لفترة لا بأس بها..

* * *

من اختراعاتي الأخرى التي سيسجلها التاريخ سلة الأغذية. وهي عبارة عن سلة من الخوص قمت بربطها بجوارب شتوية قوية. وحين يتم حبسنا في إحدى غرف القصر بسبب مصيبة قمنا بها، كنا نربط هذه السلة بحبل مصنوع من الجوارب المدرسية الشتوية وننزلها للحرس، فيقوم الحرس بوضع بعض الأطعمة فيها تعاطفاً، ونسحبها ونأكل ما فيها..

كان الحرس يأخذون الأمور ببساطة وضحك على عكس العاملات اللواتي كن يأخذن الأمور بجدية خوفاً من مدبرة منزلنا الشديدة (رحمها اللهّ). وحين اكتشفن أمر السلة قمن بمصادرتها..

ولأن والدي حسين كامل كان أكبر أشقائه فقد منحني ذلك امتيازاً؛ حيث كنتُ استأذن من والدي ثم أتصل على منزل عماتي وأطلب منهن إرسال بناتهن -بنات عمتي أحلام أو مناهل- لكي نلعب معاً في أيام الإجازات. عماتي كن يحببن والدي ويحترمنه بشكل كبير، وانعكاساً لحبهن له واحترامهن.. وهو الأمر الذي تميز به آل غفور.. فلديهنّ تقليد لا يكسر، وهو احترام الصغير للكبير. وكانت العمات لا يترددن في إرسال بناتهن لي، شريطة أن يرجعن قبل الحادية عشرة على أكثر تقدير..

في إحدى المرات، كانت صبا وصابرين -ابنتا عمتي أحلام- في منزلنا، وكان أحد المسابح مليئاً بالماء والرواكد المترسبة بانتظار تفريغه وتنظيفه..

وكانت أرضية المسبح من السيراميك الذي يُسبّب الزحلقة، ويزيد المتعة بالنسبة لي..

وقد فُجِعت العاملة المسيحية في القصر وكنا نسميها «أم خوشابه» بالمنظر، وهددتني بأنها ستخبر أمي بأنني صاحبة الفكرة حين تعود إن لم أخرج فوراً. فطلبت منها أن ترمي إلي «بصونده» أو خرطوم الماء لكي أصعد، وفعلت أم خوشابه ذلك بحسن نية. وحين وصلت إلى الأعلى قلت لها إن البنتين لا تتقنان التسلق، وعليها النزول لإحضارهما. وفعلاً، نزلت المرأة الطيبة لإحضارهما فقمت بسحب خرطوم الماء..

بقيت هناك وهي تتوسّل إليّ أن أعيد خرطوم الماء لكي تصعد، وكنت أنزل الصونده بشكل بطيء حتى اذا اقترب منها قمت بسحبه وأنا أضحك. كانت غاضبة جداً، وخلفتّي بداعة «بابا صدام» و «بداعة السيد الرئيس» على عادة العوائل العراقية في ذلك الحين بأن أخرجها، ولكنني كنت أجد في الأمر تسلية شريرة ولطيفة.. وفجأة، انفجرت أم خوشابه بالبكاء.. فتحطم قلبي، وأخرجتها واعتذرت لها.. لروحها الرحمة ولروح أيام الصبا والشقاوة..

في منزلنا كنا نمتلك كلباً من فصيلة اليوركشاير أسميناه پيتي «Pitty»..

وفي تلك الأيام، كانت موضة الأفلام التسجيلية على أشرطة الـ«vhs» الشهيرة، فكنت أتصل باستعلامات القصر وأطلب الأشرطة التي أرغب بمشاهدتها مثل سالي، وأوسكار، وبامبو، وليدي ليدي، وبالطبع ساسوكي. وقد لاحظت أن ساسوكي لا يؤذيه السقوط من المرتفعات نظراً للمرونة والمهارة اللتين لديه..

ذهبت إلى «أم قصي» وهي إحدى العاملات، وكانت مسؤولة عن غسل الأحواش الخارجية للقصر وتنظيفها، وسألتها: «إذا قفز إنسان من أعلى القصر إلى الأسفل فهل يتأذى؟». غير أنها تجاهلتني وأكملت عملها... وكررت عليها السؤال عدة مرات دون الحصول على إجابة.. ولكنني لم أخاطر بالتجربة «الساسوكية» على نفسي أولاً، بل قررت تجربتها على «پيتي» قبلي..

أخذت «پيتي» وذهبت إلى الطابق العلوي. كنت أسمع من بعيد صوت أمي يناديني: «حرير حرير..» ولكن التجربة كانت قريبة التنفيذ..

رميت «پيتي»، ولكن يبدو أنه لم يكن يحب مشاهدة ساسوكي!

في ذلك اليوم اكتسبت لقب «حرير المجرمة» بدلاً من لقب «حرير تراكي»؛ وهو تطور ملحوظ في القصور الرئاسية..

لم يكن «پيتي» يستطيع الحركة، وكانت والدتي مصرة على تلقيني درساً شديداً لأن تلك التجربة أقلقتها، فقالت إني يجب أن أعاقب حتى لا أستهين بالأمور الإنسانية لدى التعامل مع الحيوانات. ولكن والدي وضعني في حماه، ووعد أمي بإرسال «پيتي» إلى زوجة السفير العراقي في فرنسا مع أحد الموظفين في السفارة العراقية الذاهبين إلى هناك وبمعالجته..

وبعد الحادثة، لم تخاطبني خالتاي رنا وحلا إلا بلقب «حرير المجرمة»؛ ما جعلني أحقد على «پيتي»، وأقرر في سري طريقة الانتقام منه في ما بعد..

بعد شهر، عاد «پيتي» وهو مضمد تماماً في كل أجزاء جسده. وعرفت ذلك حين دخلت المنزل ذات يوم ووجدت «پيتي» وقد وضعته والدتي على الطاولة كي لا يتحرك بسبب ضماداته. وسمعتني والدتي وأنا أهمس له: «پيتي كَيِّت» بمعنى «جَيِّت أي اقفز».. لحثه على القفز عن الطاولة!

توفي «پيتي» بعدها بفترة أثناء ركضه خلف بزونه/قطة في حديقة القصر وسقوطه في بالوعة وغرقه..

وأقسم، هذه المرة لست أنا المذنبة..!

حين تزوجت ابنة خال أمي -عدنان خير الله-، طلبت جدتي ساجدة من أمي وخالتي رنا أن تحضرا العرس دون إحضار الأطفال. غضبتُ كثيراً، ورغم أن والدتي كانت ترغب بأخذنا إلا أننا لم نذهب.. أخذت والدتي وخالتي بنات المربية الأرمينية ناني الكبيرات في السن نسبياً معهما إلى

العرس، وبقينا في المنزل نشعر بالملل، ثم قمنا برش الماء على بعضنا بعضاً؛ ما جعل المربية ناني تحبسني في إحدى غرف القصر لحين عودة أهلنا من العرس..

ارتكبت ناني خطأ حياتها حين حبستني في غرفة بها هاتف. فقد قمت بالاتصال بالاستعلامات، وطلبت منهم تحويلي إلى العرس للضرورة القصوى..

وبالفعل، تم تحويلي.. فطلبت ابنة المربية «ناني»، وأبلغتها أن والدتها قد سقطت عن درج القصر..

وبعد فترة، فُتِح باب الغرفة، ورأيت وجه ناني ووجوه بناتها الأرمنية الجميلة مغطاة بآثار الدموع، وتبدو عليها أعتى علامات الصدمة والاستغراب مما قمت به. فاعتذرت لهن، ولكنني حاولت تفسير الأمر؛ فقد أفسدتن يومي وأحببت أن أفسد يومكن..

نو هارد فيلينج!

قالت لي ابنة المربية إنهن كدن يتعرضن لحادث كبير على الجسر بسبب السرعة التي عدن بها.. بينما قالت ناني بالأرمنية كلمتها التي تقولها عند الغضب: «إن شاء الله اني أموت»!

كنت أحب بنات ناني فعلا رغم مشاكساتي، وكان والدي يسمح لي بالذهاب معهن.. وكن يحببنني أيضاً. كانت أجمل الأعراس التي أحضرها هي أعراس الجالية الأرمنية التي يأخذننا إليها.. وهي أعراس مفعمة بالفرح... مختلطة... ولا يوجد بها من يمنع حضور الأطفال.. وخالية من الأزياء العسكرية المتشابهة... فقد كان أغلب الأرمن صناعاً وليسوا عسكريين..

كانت صفة المربية أعلى من صفة العاملة، وكانت كثيراً ما تتواطأ معنا وتسمح لنا بوضع السكر الصناعي في المشروبات بدل العسل الطبيعي، شريطة عدم إبلاغ والدتي بذلك..

ومن الشخصيات الدينية اللطيفة التي حققت قبولاً في الساحة الدينية والشعبية تلك الأيام كان الشيخ عبد الغفار العباسي، المشهور في القنوات التلفزيونية بردوده اللطيفة على المشاهدين حينها..

طلبت أمي منه أن يأتي إلينا بشكل دوري لتعليمنا القرآن والتجويد والحديث..

وكان يأتينا مرتين في الأسبوع إلى القصر، ويتنوع درسه ما بين السيرة وقصص الأنبياء وتبيين الحلال والحرام. كان مضحكاً جداً ولطيفاً، وقد غير نظرتنا النمطية عن علماء الدين الذين كنا نراهم على القنوات التلفزيونية..

وذات يوم، طلب من الأولاد ارتداء الدشداشة، وطلب منا ارتداء لبس ساتر ووضع غطاء على الرأس. وفعلاً قاموا بخياطة ملابس لنا تليق بهذه المناسبة، وقال لنا إنه سيأخذنا لنصلي في خلوة في مكان خارج البيت..

فرحنا جداً.. وأخذنا فعلا إلى أحد مساجد بغداد الشهيرة، وربما كان مسجد الإمام أبو حنيفة...

صلينا هناك، وتم إعطاء كل منا مبلغاً للتبرع به لفقراء المرقد. وعندما بدأنا بذلك، تكالب علينا عشرات الطلّابة بشكل مفاجئ وسريع، فخفنا من المشهد الذي لم نره من قبل.. عندها، تصرف الحرس بذكاء وسرعة، فسحبوا المبالغ التي كانت بين أيدينا الصغيرة وقاموا برميها

في مكان آخر لكي يتوجه إليها الطلابة.. ثم قاموا بتطويقنا إلى أن خرجنا من الازدحام وعدنا إلى سيارات الحرس الرئاسي..

في لعبة «بيت بيوت» التي نلعبها كنا نتشاكس كثيراً، فنزعل ثم نتصالح، ونعود إلى الخيمة التي بنيناها والتي تمثل المنزل الرئيس..

وكنا نمثّل الجميع؛ هذا عدي، وهذا قصي، وهذه جدتي ساجدة.. الوحيد الذي كنا ونحن أطفال نعرف أن أحداً لا يستطيع تمثيل دوره، أو يمكنه ملء مكانه هو جدي صدّام... لا أعرف إلى اليوم لماذا بفطرتنا الطفولية لم يطلب أحدنا ذات يوم أن يمثل دور جدي في لعبة بيت بيوت.. ولكنني اليوم أفهم..

فثوب جدي أكبر من أن يلبسه غيره..

كما أفهم أن العراق مثل لعبة بيت بيوت.. إذ يتخاصم أهله كثيراً ويتقاطعون... ولكنه في النهاية سيجمعهم.. فلا سماء لهم إلا خيمته..

دخل مصطفى ابن خالي قصي على والدتي بشكل مفاجئ وهو يقول: «عمتي، بابا يقول إنه لديكم سبع دقائق للإخلاء..!!!».

وبسرعة شديدة، وبملابس النوم التي نرتديها ارتبك المشهد كان علي أن أرتب في ذهني أهم الأمور الي سأحتاج إليها..

أحضرت دواء نوبات الربو.. ست دقائق..

قمت بإحضار «شنطتي» الصغيرة ووضعت الدواء فيها.. وضعت الكتب المدرسية.. خمس دقائق..

الجميع يركض باتجاهات مختلفة في المنزل.. والدتي تصرخ وهي تحثنا على الاستعجال.. أحتاج للذهاب إلى دورة المياه.. تصرخ أمي: «ليس الآن..». أربع دقائق..

أعتقد أنني قد نسيت أمرأ ما أقف في وسط الغرفة بانتظار أن أسمع صافرات الإنذار التي ستملأ سماء بغداد بعد لحظات.. ثلاث دقائق..

تقف أمي في الأسفل وهي تكرر: «ياالله.. ياالله».. أحمل حقيبتي.. ننزل السلم على عجالة.. السيارة أمامنا والسائق يستحثنا: «هيا. بسرعة...».

نركب في السيارات على عجل وكيفما اتفق.. يضع كل منا حقيبته على حضنه..

الآن تذكرت ما الذي نسيته.. «أمي، لم أحضر زياً مدرسيا للغد..»... ينطلق السائق بسرعة حتى قبل أن تفكر أمي بأي شيء.. تنهب السيارة الأرض نهباً في طريقها.. إلى ما يعرف «بالمنزل الآمن».. لم تكن تلك هي المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة.. كان هذا نمط حياة في عائلتنا..

كان جزءاً من الضريبة التي دفعناها للحفاظ على عراق قوي وموحد.. أن تكون دائماً مهدداً من أعداء العراق..

وألا تعرف في أي يوم لن تنام في سريرك..

طفلاً كنت أم بالغاً.. المهم أنك مستهدف طالما أنك من عائلة صدّام حسين..

* * *

في أحيان مختلفة، تكون المدة مختلفة أيضاً.. فقد نُمنَح عشر دقائق أو ربع ساعة أو يطلب منا المغادرة حالاً؛ بحسب نوع التهديد. فمنذ طفولتنا المبكرة، وتحديداً بعد عام ألف وتسعمائة وتسعين، كثرت اختراقات أجواء العراق من الطائرات المعادية، الطائرات كانت تعبر الحدود وتُنفّذ قصفاً جوياً وتخرج. ولمّا كنّا كأسرة مستهدفين دائماً بالدرجة الأولى، كان هذا الإجراء يتم مع كل اختراق أو إنذار يتم فيه تقدير مدة وصول الصواريخ إلى بغداد، فيتم إخراجنا من الأماكن المعروفة لنا ومن منازلنا إلى البيوت الآمنة التي تسمّى «البيوت البديلة»..

تذهب بنا السيارات عادة إلى بيوت لا نعرفها، يتم استئجارها من الدولة وإبقاؤها كبيوت بديلة. في العادة تكون بيوتاً لا يقطن فيها أهلها، أو انتقلوا إلى مكان آخر. اليوم الأول الذي نتواجد فيه في البيوت البديلة يكون عادة مفعماً بالحركة ومتعباً في الوقت ذاته، فلدى العائلة كلها

هوس بالنظافة. فتقوم جدتي ساجدة بتنظيف المطبخ وغرفتها مع والدتي وخالتي. كنّ يبدأن حملة التنظيف أولاً بغرفهن في البيت الذي تم اختياره كمنزل آمن..

يمكنكم بالطبع تخيل منظر أو شكل منزل لا يعيش أصحابه فيه منذ مدة؛ كميات الغبار، وأدوات الطبخ، وأدوات المنزل، والأبواب والشبابيك..

وغيرها من الأمور التي يجب تنظيفها لأننا لا نعلم على وجه التحديد كم سنمكث في هذا البيت الآمن.. أحياناً، عدة ساعات، وأحياناً ليوم واحد، وأحياناً لعدة أيام أو ربما أكثر.. وأحياناً، كانوا يطلبون من شخص يعمل في الأجهزة الأمنية أن يذهب إلى محافظته، ويستأجرون البيت منه لأيام، أو يُعطى صاحب البيت إجازة كي يضعوا عوائلنا فيه..

كان أول شيء تقوم به جدتي دائماً حين ننتقل إلى أحد البيوت الآمنة هو أن تحضر شريطاً لاصقا عريضا وتقوم بوضعه على الشبابيك على هيئة حرف (X) باللغة الإنجليزية (هذا ال Xالذي كنت أراه كثيراً وأرى آثاره بعد إزالته في منازل العراقيين على الشبابيك)، وذلك تحسبا لتكسر الشباك بسبب القصف فلا يسقط ويؤذي الموجودين داخل المنزل بشظاياه. كانت تنتقل وتقوم بهذه العملية بنفسها مع حرسها من شباك إلى شباك آخر..

تكون البيوت الآمنة عادة بين بيوت العراقيين. ولهذا، كنا نحرص على عدم إصدار أصوات عالية أو ما شابه ذلك لكي لا نلفت الانتباه إلى وجودنا في منزل يعرف جيرانه أنه غير مستخدم. وعادة، يكون الحرس - سواء أكانوا حرس جدتي ساجدة أو الحرس الآخرين من الأسرة- موجودين معنا، ولكن بثياب مدنية أو بالدشاديش العربية. وكانوا يخفون نطاق

الرصاصات عبر ارتداء «جاكيت» طويل فوق الدشداشة، وفوق رؤوسهم الشماغ العربي التقليدي.. كانوا يجلسون أمام مدخل المنزل داخل المرأب المؤدي إليه وليس خارج المنزل، مع الحرص على إغلاق الباب الخارجي عند دخولهم خروجهم، كان سلاحهم بجوارهم دائماً، وكنا نحب أن نجلس إليهم ونتغدى معهم.. وتذكرنا والدتي وخالتي دائماً بأهم الأمور التي علينا الانتباه إليها لدى تواجدنا في البيوت الآمنة:

لا تفتحوا الأنوار في الليل أبداً.

لا تتحدثوا بصوت مرتفع.

لا تقتربوا من الشبابيك.

يجب ألا يشعر الجيران بأي شيء يدور في هذا المنزل.

لا يجب أن يشعر أحد بوجود حرس في المنزل.

يقوم شخص ما بإحضار المواد الضرورية مرة واحدة في اليوم، ويجب تجهيز قائمة بها في اليوم السابق.

فقط الأمور الضرورية هي التي يمكن وضعها في القائمة.

وفي حال انتبه الجيران لوجودنا يتم الإخلاء على الفور. يتواجد الحرس عادة على فترتين (وجبتين)، فيقوم خمسة منهم مثلاً بالتواجد معنا على سبيل المثال من الثانية ظهراً وحتى الثانية من بعد منتصف الليل، ثم يأتي خمسة آخرون ويحلون محلهم من الثانية بعد منتصف الليل وحتى الثانية ظهراً.. وهكذا..

كان يوجد بين الحرس السائقون الذين قاموا بإيصالنا إلى المكان. وبالجمل، شخص أو اثنان فقط كانا يعرفان مكان البيت الآمن قبل نقلنا إليه؛ لأسباب أمنية بالطبع..

ورغم كل شيء، كان أحد أول الأمور التي نقوم بها بمجرد وصولنا هو أن يخرج الجميع كتبهم الدراسية؛ رغم إيقاف المدارس مؤقتاً في بعض الفترات..

لسان حال العراقيين في كل تلك الحروب كان يقول: إن البلد الذي علم العالم الحروف والقراءة لن يموت!!

في السنوات الأخيرة قبل الاحتلال، لم تكن الطائرات الأمريكية فقط هي التي تقوم بالاختراقات، بل أصبحت في أحيان أخرى تجرى اختراقات من طائرات «مجهولة الهوية». وقد كانت الخيانة واردة دائماً من نظام الخميني، وكان جدي صدام حسين يذكر دائماً كيف أنهم يمتطون الدين لأغراضهم الخبيثة، وأن لديهم أحقاداً تاريخية غير مبررة هدفها التدمير فقط، وأن هدفهم الأول كان وسيبقى العراق. في أحيان كثيرة، كان جدي يذكر أن نظام الخميني حطم إيران والحضارة الفارسية، وأنها لم تكن هكذا أيام الشاه، بل كانت دولة للفنون والموسيقى والطعام، وكان الناس فيها راقي الهندام، وكانت سياساتها تجاه العراق منطقية..

بعد استقرارنا في أحد البيوت الآمنة تبدأ العملية الأكثر جمالاً؛ وهي جلوسنا كأطفال. كنا نحب تجمعنا ذاك بالرغم من المعاناة من الصواريخ... وكنا نتخيل الأشخاص الذين سكنوا المنزل.. بالإضافة إلى سماعنا تحليلات الكبار وهمساتهم بالتعليق على يومياتهم في تلك الفترة وذلك المنزل.. «كيف يمكن أن يكون الحمام هكذا؟».

كنا نحصل على الكثير من التسلية نتيجة هذه التحليلات والتوقعات غير المنطقية أو المنطقية أحياناً.. فتتخيل أصحاب المنزل، ونرسم لهم صوراً في أذهاننا... ونحاول تخمين عددهم... ونعطيهم أسماء لتمييز ذكرياتنا في المنازل الآمنة.. حين كنا في البيت الأسود.. أو حدث في بيت أبو علي... أو في بيت أبو خالد.. ومع الأيام كنت أنسى الـ «nick names» الخاصة بالبيوت البديلة، ولكنني أذكر منها «بيت فاروق ومرته» والذي كانت له قصة خاصة.. سأرويها لاحقاً.. قصة خاصة جداً..

في كل يوم، كانت المؤونة تأتي مرة واحدة في وقت الغداء، مع احتياجاتنا التي نكون قد سجلناها مسبقاً قبل يوم، وتم شراؤها وإحضارها مع الغداء.. وتتضمّن الاحتياجات اليومية حفاضات أطفال، بدءاً من حديثي الولادة إلى الذين بلغوا ست سنوات أو سبع... وحليب أطفال ومعلبات واحتياجات العائلة الأخرى، والتي يتم تجهيزها وإحضارها مع وجبة الغداء يومياً..

السؤال هنا هو: هل كان الأمر هوساً أمنياً أم كانت القصور مستهدفة فعلاً وقد تُقصف ويسقط منها بعض أفراد الأسرة؟ الجواب بالطبع نعم، فقد استهدفت كل المنازل.. وعلى سبيل المثال، كانت عمة جدتي رحمها الله طليعة طلفاح امرأة كبيرة في العمر وعجوز، وحين تقدم بها العمر جاءت بها جدتي ساجدة لتسكن معها في القصر الجمهوري. تم وضع مشتمل خاص لها، وتخصيص أخصائيين في العلاج الطبيعي يأتون إليها بصفة دورية، وكانت تسير على العكاز المزدوج ذي الأرجل الأربع. تم قصف المكان الذي تتواجد فيه في القصر الجمهوري في أحد الاختراقات لترتقي روحها إلى بارئها شهيدة في آخر سنوات عمرها...

كما استُهدف منزل خالتي حلا مرتين متتالتين، ومنزل جدتي في العوجة أكثر من مرة، وكان القصر الجمهوري يستهدف دائماً وبشكل متكرر في كل غارة أمريكية. وقد كان ذلك المنزل يحتوي على ملجأ قامت شركة ألمانية لها سمعتها في هذا المجال بتصميمه. قامت هذه الشركة بنشر خارطة المنزل في أحد الصحف الألمانية قبل الحرب. وبعد ذلك، أصدر جدي قراراً بمنع جلب أي شركة أجنبية لبناء أي شيء في العراق تحسباً لوقوع خروقات أمنية جديدة.. ورغم القصف الشديد، أتذكر ذهاب خالتي رنا ووالدتي لشراء ملابس ولعب أطفال لبنات خالتي حلا الصغيرات؛ بالرغم من الغارات والقصف المستمر وأرسلتاها إلى خالتي حلا، حيث فقدوا كل ما كانوا يملكونه في القصف..

وحين تهدأ الأمور وتنتهي الاختراقات أو التهديدات الأمنية، أو تخف حدة التصعيد بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية، كنا نعود إلى منازلنا. وقد أصيب صغار العائلة بعد حرب التسعين بالتهاب في بطانة الفم ناجم عن الخوف. فلم نكن نستطيع أن نأكل أو نشرب لعدة أيام.. وتم أخذنا إلى المشفى البديل تحت القصف ليعايننا الطبيب.

سؤال آخر مهم قد يطرحه البعض: إذا كان استهداف بيوت صدّام حسين منطقياً، فلماذا يرغب البعض باستهداف حسين كامل أو منزله أو أهله؟ وما هي أهميته في النظام الحاكم في عراق صدام حسين؟

وهنا، علي أن أوضح لمن يجهل حسين كامل من هو هذا الرجل.

منذ أن فتحنا أعيننا على الدنيا، كان هناك أمران نلاحظهما باستمرار على والدي وعمي. الأول، هما دائماً وغالباً يكونان في «الواجب»، أي في العمل. والثاني، هو العلاقة الأكثر من ممتازة التي تربطهما بخاليَّ عدي

وقصي.. ما زلت أذكر عودة والدي بصحبة خالي عدي من الجبهة في حرب الكويت بلبسهما العسكري المليء بالتراب، وجدتي ساجدة وهي تستقبلهما عند الباب وتقول بامتعاض: «ها أهل المشاكل؟!» فينظر خالي ووالدي أحدهما إلى الآخر، ويضحكان كثيراً بعد أن فهما قصدها جيداً. إذ لم تكن جدتي تؤيد حرب الكويت أبداً، وكانت دائمة الانتقاد لهذه الخطوة.

برز اسم والدي بشكل استثنائي وسريع، وأصبح حسين كامل من الشخصيات التي لها اسم ووزن في الساحة العراقية..

وقد عزا البعض ذلك إلى تحقيق والدي رحمه الله الكثير بفرصة أتته من جدي صدام حسين.. وبالطبع، لقد منح جدي والدي فرصة، وبالتالي كان صاحب فضل كبير عليه. ولكن هذه الفرصة لم يمنحها جدي لوالدي فقط، بل مُنِحت الفرصة والإمكانات ذاتها للعشرات غيره، ولكنّ قلة من أولئك الأشخاص فقط حققوا إنجازات للعراق، وأثبتوا للرئيس جدارتهم مثل والدي حسين كامل.. فقد خدم منصبه بضمير، وأفنى عمره في خدمة عمله، وكانت لديه قناعة مطلقة بالعراق والمنتج الوطني..

وكان يحلم بأن تكون الصناعة الوطنية في العراق من الإبرة إلى الصاروخ.. وقد كان ما أراده حرفياً؛ حيث صنع العراق قبل عام ١٩٩٠ كل شيء من الإبرة إلى الصاروخ.. وكانت بدايات تحقيق ذلك الحلم في الثلث الأول من الثمانينيات،

حين جاء جدي صدام حسين بوالدي وشقيقه. في البدايات، لم يكن الأمر مرده إلى صفة القرابة معهما فقط، ولكن ما هو أهم من ذلك أنه

التمس فيهما الشجاعة والقوة والكتمان منذ نعومة أظفارهما، ولذلك قرّبهما إلى دائرة الحماية الخاصة..

كانت لجدي فراسة خاصة في تمييز الناس. وقد تقدّم والدي بسرعة قياسية إلى المناصب العسكرية حتى وصل الى رتبة عقيد، وذلك قبل أن يتزوج من والدتي..

كان من المعروف والشائع أن حسين كامل حين يمسك ملفاً ما فإنه يتقن معرفة نقاط الضعف بسرعة، ويقوم بتطوير الجهاز..

ومن بين أكبر النجاحات التي حققها والدي كان نجاحه في إدارة منظومة التصنيع العسكري العراقية. فقد كان التصنيع العسكري بعد حرب عام تسعين معنياً بعمليات إعادة الإعمار. وحتى قبل التسعين، نجح في إقناع العلماء العراقيين الذين كانوا قد هاجروا إلى الخارج بسبب الحروب أو لأسباب أخرى بالعودة، كما أقنع الدولة بإعطائهم الأمان، وتهيئة المناخ المناسب لهم للإبداع، وإعطائهم عروضاً مغرية. وكما هو معلوم، بسبب الحصار، كانت أغلب المواد الأولية الخاصة بالإعمار ممنوعة التوريد إلى العراق. ولكن والدي كان يتكلم باستمرار على الغداء عندما تجتمع العائلة على الغداء كل يوم وهو مؤمن بالتطوير والأمل والقدرة على الإنجاز. كان يتحدث بشكل دائم عمّا أنجز في إعادة تأهيل الشوارع والبنى التحتية.. وفي إحدى المرات، كان يتكلم بحرقة عن الجسر المعلق.

ورغم الإمكانات الضعيفة في ظرف الحصار وعدم توافر المواد الأولية إلا أن والدي أخذ المشروع، ووعد جدي بإعادة افتتاح الجسر الذي عُرف رسمياً باسم الجسر المعلق، وهو من أكثر الجسور التي تعني للعراقيين بشكل كبير، ويعتبر رمزاً مهماً من معالم العراق. كانت هناك عشرات العراقيل،

وكانت إحدى المواد الأساسية غير متوفرة ويُمنَع تصديرها للعراق رسمياً..

قرر والدي إعادة افتتاح الجسر في الوقت المحدد؛ لأن القضية كانت أكبر من الجسر، فالقضية كانت رمزية؛ هل يستطيع العراقيون الاستمرار بالبناء والحضارة والحياة؟.. وقد أصر والدي على إحضار الحبال الخاصة من الخارج رغم صعوبة دخولها، حيث تمت مصادرتها من الأردن عدة مرات. وأصر أيضاً على بناء الجسر بالطريقة القديمة نفسها رغم أن جدي صدام حسين اقترح عليه أن يُلغي الحبال، ولكنه قال له: «سيدي، لقد وقف الكثير من العراقيين عندما قصف الجسر المعلق أمامه وبكوا، ولذلك أنا مصمم على أن أنجزه بالطريقة نفسها لكي أرفع من معنوياتهم وثقتهم بالقيادة من جديد». وفعلاً، وبعد عدة مصادرات للحبال المخصصة لحمل الجسر، نجحت إحدى محاولات التهريب بعد إيصالها بطريقة تسمى بالمصطلح العراقي «قجق»؛ طريقة غير قانونية، ولكنها وصلت بعد ثمانية أشهر.. هم يستسلمون... ولكننا شعب لا يستسلم..

قام والدي بمحاولة لتهريب المادة عبر الأردن، واكتشفت المحاولة مرتين، ولكنها سلمت في الثالثة وتم تهريبها إلى العراق، فتم إنهاء أعمال البناء وافتتاح الجسر في موعده..

ما زلت أذكر فرحته عند افتتاح الجسر إلى اليوم..

عاد إلى بغداد أحسن جسورها وأهمّها..

في حرب الخليج قُصفت مصفاة الدورة، وهي مصفاة مهمة لتوليد الكهرباء. وقد قدّر الخبراء أنها تحتاج إلى ما بين ثمانية أشهر وسنة

لإعادتها إلى العمل بطاقتها السابقة. فطلب والدي من جدي إسناد الأمر إليه، ووعده بمدة أقل من تقدير الخبراء..

وخلال ثلاثة أشهر، عادت المصفاة للعمل... السر كان في أن والدي اتخذ من أحد أركان مصفى الدورة مكتباً له، وكان يوصل الليل بالنهار، ويسهر ويعرف تفاصيل الأمور، يذهب هناك كل صباح وعدة مرات في اليوم نفسه.. كان عمال والدي يحبون العمل معه لأنه يعمل معهم ويشعرهم بالإنجاز.. كان والدي لا يؤمن بالمستحيل؛ فهو رجل المهمات المستحيلة.. وبعد حرب الكويت عام ألف وتسعمائة وتسعين، قامت إيران بضخ الآلاف من الغوغاء إلى الجنوب العراقي وإشعال ثورة ضد النظام..

وفى ظل الفوضى، والهزيمة في الحرب، والكثير من المعطيات الأخرى، بدأت ثورة غوغائية.. احرقت فيها المنازل، وهدمت المساجد.. وقُتل الناس في الشوارع..

وبدأت المدن تسقط واحدة بعد الأخرى، وبقيت أربع محافظات فقط بيد الدولة؛ أربع من أصل ثماني عشرة؛ وهي بغداد والموصل والأنبار وصلاح الدين. عندها، اجتمع جدي بأعضاء القيادة وقال لهم الحقيقة: «يظهر أن الدولة سوف تسقط.. ولكننا سنقاتل إلى آخر لحظة»..

ثم نظر إلى الجالسين وسألهم في لحظات صعبة: «لقد سقط الجنوب في يد الغوغاء، فمن سيذهب لتحريره؟!». وكان ذلك بعد أن عين السيد النائب عزت إبراهيم آنذاك لتحرير كركوك..

أدار جدي عينيه متأمّلاً الوجوه، ولكن الصمت المطبق كان الجواب، إلا صوت والدي الذي أجاب بعصبية بسبب سلبية البقية. «أنا أذهب يا

سيدي... أنا سأحرر الجنوب. ولو كنت مكانك لعاقبتهم بقوة على ذلك التردد».

قاد والدي الجيش العراقي، وكان جيشاً وطنياً في أيام لم يعرف الناس فيها إلا الولاء للوطن بكل مكوناته. وقد تقدّم والدي الجيش في أول دبابة، وذهب إلى الجنوب لمطاردة عصابات الغوغاء.. ولقي مقاومة شديدة في كربلاء، استشهد على أثرها حرسه الخاص..

وقد ذكر والدي قصة، وهي أنه في إحدى الحملات ضد الغوغاء، وفي قصف لأحد الأماكن، كان بجواره ضابط شيعي فلم يرد أن يحرجه بقصف منطقة معينة، وطلب منه الرجوع إلى دبابة أخرى، غير أن الضابط رفض بشدة، وقال لوالدي: «سيدي، إنها قضية بلد وليست قضية سنة وشيعة».

وبعد ذلك تم تحرير النجف، ثم الحلة، وحُررت جميع تلك المحافظات، ثم التحق بالنائب عزت إبراهيم، وتم تحرير كركوك أيضاً..

أما بالنسبة لبغداد، فقد قام بتحصينها وضمان أمنها لحين استتباب الأمن نهائياً..

كان مرافقوه يروون لي رفضه أن تكون هناك أية دبابة أمامه..

لم يكن حسين كامل رجل المهمات الصعبة فقط، بل كان رجل القضايا الشائكة أيضاً. وبعد حرب الغوغاء ونجاحه في القضاء عليها لمع نجمه أكثر وأكثر.

قام والدي والجيش العراقي البطل بإخماد الغوغاء والقضاء عليهم في فترة وجيزة، والقبض على العملاء الذين اتضح أنهم جاؤوا عبر الحدود

الشرقية للوطن العربي بمساعدة مخابرات عالمية أخرى. ولكن، لا حرب بلا خسائر.. وقد كانت إحدى أبرز الإشاعات الكاذبة التي بدأت تتشر من قبل أزلام نظام الخميني أن والدي قد قصف المرقد في كربلاء؛ في محاولة منهم كعادتهم استغلال العاطفة الدينية لدى البسطاء بهدف التأثير على ولائهم الوطني..

قالوا إن حسين كامل قصف المرقد وقال للإمام الحسين رضي الله عنه: «أنا حسين وأنت حسين!)».. وهم يجهلون أن أحداً لن يتخاطب بهذا الشكل مع تاريخه وأجداده.. هذه جملة تعتبر من الكفر، وقد كان أهل والدي وأهلي يحرّمون الكفر..

ما حدث حقيقة هو أن الغوغائيين أخذوا معهم أسرى من النساء، وتحصنوا داخل المرقد، وكانوا يطلقون النار على الجيش من داخل المرقد، فاضطر والدي لمهاجمتهم في مكانهم وتحرير النساء.. وفي المنطقة نفسها حدثت انتهاكات وتصفيات جسدية كثيرة، واتخذوا من المكان حصناً لهم، وقاموا بنصب المشانق داخل الضريح لشنق الناس..

ومن المعروف أن المقدسات لا تُمس إلا في حال قام طرف ما باستغلال قدسيتها بهدف الأذى ومقاتلة الناس..

كان الناس يعودون من حرب الغوغاء بذكريات مرعبة تشبه ما اقترفه هولاكو... ليس للغوغاء دين أو منهج أو أخلاق.. إذ كانوا يربطون العراقي بالسيارات التي تسير في اتجاهات مختلفة لإعدامه..

كانوا شراً يجب القضاء عليه..

وقد فعل أبطال العراق ذلك..

ترقى والدي بعد الحرب إلى رتبة فريق أول ركن..

وتم تعيين عمي صدّام كامل رئيساً للجان التحقيق مع الغوغاء، وكان يعود كل يوم من التحقيقات وهو يمسك برأسه ويقول: «لم أكن أتوقع وجود هذه الحثالة على وجه الأرض...».

كان أغلب الغوغاء من إيران ومناطق أخرى، وقد عاثوا في الأرض فساداً..

يقول عمي إنه أثناء أحد التحقيقات كان يسأل اثنين عن علاقتهما ببعضهما، فقال أحدهما إنه شقيق الآخر ووالده في الوقت نفسه، ويكمل عمي بأنه كثيراً ما قام بإحضار سلة المهملات واستفرغ بها في اللحظة نفسها من هول القصص التي يسمعها...

استمرت اللجنة القانونية بعملها لأعوام طويلة حتى عام خمسة وتسعين، وظلت تطارد فلول الغوغاء لحد قيام الحرب العراقية - الأمريكية الأخيرة..

حين يتحدث والدي أو عمي عن جدي صدّام حسين كانا يقولان «عمنا» فهذه صفته في حديثهم البيتي عنه..

وحين يخاطبانه وجهاً لوجه كانا يخاطبانه باستخدام لقب «سيدي».. وهو اللقب ذاته الذي يخاطبه به العسكريون العراقيون جميعاً. بعض العراقيين من غير العسكريين كانوا يخاطبونه بلقب «سيدي الرئيس».. اما كبار السن فكانوا يخاطبونه بـ «أبو عدي»، وأطفال العراق كانوا يخاطبونه بـ «بابا صدام» ونحن مثلهم.

لم أسمع أحداً يخاطبه باسمه المجرد «صدام»، وإلى اليوم ما زال الناس المحبون محتفظين بلقب السيد الرئيس..

الإنصاف والحق يقودانني هنا للتأكيد على أنه على الرغم من أنني لا أكن أي حب لعمٍّ والدي علي حسن المجيد لتسببه بما حدث في ما بعد لوالدي إلا أنني أعلم ومن خلال الأحاديث الخاصة للأسرة بأنه بريء من القصة التي تسببت بإلصاق لقب «علي الكيمياوى» به؛ وهي تهمة قصف مدينة حلبجة العراقية بالكيمياويات..

فأثناء الحرب العراقية الإيرانية كما يقول علي حسن المجيد، قام بنشر إشاعة عن أنه سيقوم بضرب المدينة بالكيمياوي، وكان الهدف من الإشاعة هو أن يضطر الموجودون فيها من النساء والأطفال والأسر لمغادرتها لكي لا يتضرروا؛ لأنه كان ينوي أن يقصفها بقوة وشراسة..

وتقرر أن يقصف المدينة بأكياس من الطحين الخاص بالحصص التموينية لإعطاء انطباع بوجود انفجارات كيميائية. وبعد أن بدأ القصف، فوجئ مثل غيره بأن المدينة قد قصفت بالكيمياوي فعلاً.. ويفسر علي المجيد الأمر بأن إيران استغلت خدعته لكسب الأكراد إلى جانبها في الحرب.. والدليل على ذلك هو انسحاب الحرس الإيراني من الحدود في الليلة نفسها (أن تكون على خلاف مع أي شخص لا يبرر أن تقوم بتشويه سمعته، وأنا هنا أتحدث عن أحداث تاريخيه حصلت). طريقة عمل الجيش العراقي في تلك الأيام هي أنه لا يمكن لعلي حسن أن يتحرك منفرداً دون موافقة جدي..

وما حدث كان مجزرة حقيقية..

ولو فعل علي هذا الأمر فعلاً فأقل ما كان سيفعله جدي هو إعدامه مباشرة..

لشرح تفاصيل علاقة والدي بأعمامه.. جد والدي لجهة أبيه اسمه حسن.. ولديه عدة أبناء؛ جدي كامل حسن، وشقيقه علي حسن المجيد، ولديهما شقيقة اسمها فاطمة الحسن وقد تزوجها خير الله طلفاح جد والدتي لأمي.. أي ضرة «ليلو» بركة منزلنا التي تحدثنا عنها.. ولدى جدي شقيقة أخرى هي والدة كل من جمال مصطفى زوج خالتي حلا، وشقيقه الفريق كمال مصطفى. وعن علاقة العم بابن الأخ (والدي)...

كانت أسرة جدي كامل أسرة غنية. فهي الأسرة التي اشترت أول سيارة «مرسيدس» في منطقتهم «العوجة»، وهي أول أسرة أدخلت التلفاز للعوجة، وكانت بقية أسرنا تجتمع في بيتهم لمشاهدته..

وعلى الرغم من المحبة والصداقة، كان عمي صدام كامل أقرب لخالي قصي، بينما كان والدي حسين كامل أقرب إلى خالي عدي بحكم شخصية كل منهما..

في عامي ثلاثة وتسعين وأربعة وتسعين.. بدأت الخلافات تطفو إلى السطح.

بدأت الحكاية حين حدث خلاف في إحدى السهرات على خلفية خلاف تجاري بين أحد أفراد عائلة «خطاب» وهي من العشيرة نفسها وبين شقيق عز الدين المجيد واسمه وائل؛ وكلاهما من بيت «الغفور»..

وعلى أثر هذا الخلاف، ألقيت قنبلة على مكتب وائل، أخي عز الدين، حيث كان وائل متواجداً هناك وقتل فوراً بسبب القنبلة..

وهكذا، بدأت حرب عشائرية، وما أدراك ما هي الحروب العشائرية؟!

هي أول ما ينقض عُرى مجتمع ما ويعيده للجاهلية الأولى..!

كان الخلاف بين هاتين «الصفحتين» من العشيرة يمتد منذ وقت طويل بعض الشيء. فدائماً كان هناك خلاف بين آل خطاب وآل غفور، كما كان هناك تنافس ومناوشات كلامية حتى أحداث الـ ٩١ التي تلت موضوع الكويت؛ حيث تشاحن شباب من آل غفور مع آخرين من آل خطاب يقربون إلى إخوة جدي غير الأشقاء. فقد حدثت مشاكل بينهم تخص أموراً تجارية وأمور القنبلة المذكورة، فازدادت هوة الخلاف بين الطرفين.. وتم تشكيل لجنة تحقيق تضم أفراداً من الطرفين لتحقق في الحادث بأمر من جدي.. وكان ضمن أولئك الأفراد والدي حسين ممثلاً عن آل غفور، وعبد حمود ممثلاً عن آل خطاب، واطلع جدي بعد ذلك على تفاصيل التحقيق، وقرر أن يجتمع بأهل المقتول. وهنا وخلال الاجتماع وإكراماً لوجوده بينهم قال أبو المتوفى وهو أبو عز الدين. «إنه إكراماً للسيد الرئيس نطوي صفحة وقال لجدي حرفيا: أبو عدي الموضوع صار جوه البساط». وانتهى الموضوع إلى هذا الحد، وتوقف موضوع الثأر وحجم الموضوع على أساسه كي لا ندخل في تصفيات ثأر عشائرية..

لكن وعلى ما يبدو، بقيت هناك أشياء في النفوس لدى الطرفين تجاه الطرفين.. وظلت هناك مشاورات جانبية بين آل غفور حول ما حدث وكيف ولماذا..

تكوّنت لدى والدي قناعة في ذلك الحين؛ حيث كان أحد الأطراف المهمين في التحقيق، وهي أن مظلمة قد أصابت بيت عمه.. وقويت على أثرها علاقة والدي حسن بعز الدين..

ولم يفهم أي منهما سبب المجهود الحقيقي الذي بذله الرئيس، والذي كان سببه ألا تبدأ حرب عشائرية.

تأبى العصي إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت آحادا..

هنا بدأت الفتنة، وتفرّقت عصي العائلة.. ما جعلها تضعف يوماً بعد يوم..

الفصل السابع الفتنة الكبرى: انشقاق حسين كامل والهروب إلى الأردن

فتح السفرجي التابع لخالي عدي والذي يعمل في جناحه علبة السفن أب، ووضعها تحت نظرات خالي الضاحكة أمام والدي ليشربها..

قال لي والدي ضاحكاً: «حرير، اذهبي معه وتأكدي من أنه سيعطيك علبة مغلقة».

لم تفت ضحكة خالي عدي المكتومة التي حاول إخفاءها بقناع من الجدية والكرم على والدي.. كان السفرجي المؤدب في جناح خالي عدي يضحك أثناء ذلك الحوار بينهما دون أن يتدخل، ولكنه عرف أن والدي قد اكتشف المقلب.. فلأنه لا يشرب، يحاول خالي عدي مناكفته بشكل طريف ومستمر بوضع مشروب في علبة السفن أب الباردة لكي يتورط والدي حين يطلب من السفرجية إحضار علبة سفن أب من الثلاجة. ولكن والدي بحسه الأمني العالي كان يكتشف الأمر في كل مرة..

حين أتذكر الكثير من تلك المواقف اللطيفة، وكم المحبة الذي كان يربط بين والدي وخالي عدي.. وبين أعمامي وخالي بشكل عام.. لا أستطيع أن أمنع نفسي من التساؤل.. لماذا تفرقتم يا أبطالي؟.. ما الذي حدث!؟

أي عين أصابت عائلة صدّام حسين..؟

في عام خمسة وتسعين، وقبل أيام من احتفالات ذكرى النصر على إيران الخميني..

ذكرى انتصار الحضارة والعلم والتطور..

على أولئك الذين يريدون تخدير الناس..

وبدلاً من التعمير والبناء يريدون قوقعة العراقيين في أحداث وقعت منذ آلاف السنين، واستنزاف طاقاتهم وأحاسيسهم.. أما العراقيون فكانوا يحتفلون كل سنة بهذه الذكرى.. وكان جدي يشاركهم احتفالاتهم.

ذكرى الانتصار على قوى الشر التي تريد للعراق أن يعيش بطائفية يقتل فيها الأخ أخاه والجار جاره، بدلاً من أن يتوحدوا جميعاً تحت راية الوطن الواحد..

ولن يضر نهر الفرات يوماً أن بعض الكلاب قد خاضت فيه..

في الثامن من آب/أغسطس عام ثمانية وثمانين.. وهي الذكرى التي ستتكرر مرة أخرى إن شاء الله، وسيعود العراق بعدها ليزدهر بأبنائه.. بجميع أبنائه بلا استثناء..

في عام خمسة وتسعين، وأثناء الاستعدادات للذكرى السابعة لذلك الانتصار.. وقبلها بيوم..

كنت أمارس هواية السباحة في الفترة المسائية.. ودخلت علي المربية وهي تقول لي: «يجب أن تخرجي حالاً سنذهب للعوجه»..

كان الأمر عادياً لأن الذهاب إلى العوجة وخاصة في الإجازات الصيفية لا يعتبر أمراً غريباً..

الناس كلهم حول العالم يعودون إلى بلداتهم وقراهم في الإجازات الطويلة والقصيرة..

شعرت بجو من التوتر يحيط بنا، وخاصة بوالدي ووالدتي..

وكذلك كان شعور إخوتي والمربيات والسائقين والحرس والجميع...

ركبنا في المرسيدس الخاصة بوالدي.. وركبت والدتي بجواره، وكانت شقيقتي المولودة حديثاً بنان تجلس في حضن والدتي..
ونحن- الأشقاء الأربعة الباقون- في الخلف، وخلفنا كانت سيارة بها عائلة عمي صدّام كامل وزوجته خالتي رنا وأبناؤها.. وخلفنا بمسافة قريبة سيارة حماية بها عمي حكيم وعدد آخر من الحرس..
استمرت السيارات الثلاث تنهب الأرض نهباً.. وبعد مسافة من الطريق المرهق.. رأينا عبارة «بغداد تودعكم» وعرفنا أننا في طريقنا إلى الأردن.. ولسنا في الطريق إلى العوجة.. لم تسعنا الدنيا من الفرحة..
فقد كانت أمي منذ مدة تطلب من أبي إقناع جدي بالسماح لنا بالخروج من العراق عن طريق الأردن لقضاء بعض الوقت في الخارج لتغيير الجو؛ فجميعنا اشتقنا للسفر.. فمنذ أن تم منعنا من السفر افتقدنا إلى ذلك الشعور بالمغامرة والاستكشاف الذي يصاحب السفر..
كنت أعتقد أن إلحاح والدتي على والدي بأن يقنع جدي للسماح لنا بالسفر قد أتى ثماره أخيراً..
انطلقت صيحات السعادة المكتومة منا بيني وبين إخوتي، غير أننا لم نستطع أن نطلقها بأريحية لما لمسناه من توتر في جو الرحلة لم نعرف له سبباً..
رأيت أمي وقد نظرت إلى السيارة التي بها عمي حكيم والحرس، والذين كانوا يشيرون إليهم وهم يستغربون أننا سلكنا هذا الطريق وهي تقول لأبي بلغة ذات معنى: «أخيراً انتبهوا!»... كان هناك أمرٌ ما في الجو بين أمي وأبي.. سرّ ما لا نعرفه...!
وهنا بدأنا ننتبه إلى أن والدي كان صامتاً أثناء الطريق، ولم يتحدث كعادته، ولم يذكر لنا عن منجزاته هنا أو هناك..
أبي الذي كان يمزح في أقسى الظروف كان صموتاً جداً في ذلك اليوم..
كان سلاح أبي في نطاقه كالعادة -وهذا ليس غريباً- حاولنا تجاهل هذه الإشارات، والاستمرار بالتفكير ومحاولة تخمين الوجهة التي سنسافر إليها..
من ألعاب محلات حسن..

كنا نقوم بإشارات طفولية سعيدة لأبناء خالتنا وعمنا في السيارة الأخرى. وحين أصبحوا وراءنا، قمنا بما نقوم به عادة، حيث نتمدد في المساحة بين الكرسي الخلفي والزجاج الخلفي..
جاءتنا صيحة هادرة من والدي تطالبنا بالنزول.. لاحظنا عصبية أبي الإضافية في ذلك اليوم..
فعدنا إلى مقاعدنا، ولاحظت ملامح أبي التي كانت في عزلة غريبة في ذلك اليوم..
رغم أننا قمنا بذلك بهدوء وليس مثل الأيام العادية لأننا لاحظنا الأجواء المتوترة.. كنت حساسة جداً من طريقة معاملة أبي لي، وخاصة لأنني كنت فتاته؛ فلا أذكر أنه قد ضربني ذات يوم على الإطلاق.. فقد ضرب أخي «علي»، وضُربت أختي «وهج» مرة واحدة سأذكرها بعد قليل، ولكنني على عكسهما لم أضرب قط! ولم يُصرخ علي إلا في حالات نادرة.. إحداها في عمان..
وصلنا إلى النقطة الحدودية مع المملكة الأردنية الهاشمية في منطقة طريبيل، وتم وضعنا في سيارة «كرافان» على الحدود. كنا تسعة أطفال، ولم نتكلم بناء على طلب والدي. وكان عدم إصدار الأصوات صعباً بالنظر إلى وجود رضيعين معنا، وقد بلغ بنا التعب مبلغه. كانت هناك حالة من التوتر العام في الجو، وليست حالة من السعادة التي تصاحب أسرة ذاهبة للإجازة والاستجمام في فصل الصيف..
كان الجنود في النقطة على علم بهوية الزائر؛ فقد وصل عمي صدّام كامل قبله بثلاث دقائق، وطلب من الجنود تفريغ الحدود لأن حسين كامل سيعبر.. وحصلنا على حالة من الاهتمام، وكنا نسمع الجنود وهم يخاطبون والدي بلفظ سيدي وباحترام كبير. أفهمهم والدي بأن لديه ضيوفاً سريين في «الكارافان» وعليه عبور الحدود بسرعة. كان «الكارفان» مغلقاً، وقد غطيت الشبابيك بستائر لكي لا يظهر الأطفال داخله..
ويبدو أن جنود الحدود كانوا معتادين على هذا الأمر؛ فقد عبرنا الحدود العراقية بسرعة ويسر وبدون مشاكل تذكر.. فقد كان اسم حسين كامل يكفي لفتح جميع البوابات أمامنا..

وطلب والدي من مسؤول المخابرات العراقية في الحدود أن يركب معه لتجنّب الزحمة في الحدود العراقية، وتكرر الأمر في الحدود الأردنية ولم نتأخر إطلاقاً..

وقد فعل والدي ذلك بذكاء لغرضين: الأول هو أن ينهي عبورنا للحدود بسرعة، والثاني كي لا يستطيع ضابط المخابرات إبلاغ بغداد بأننا غادرنا..

وقد أصدر جدي صدام حسين بعدها قراراً يمنع حرس الحدود من إخراج أي ضابط مهما كانت رتبته قبل الاستئذان من بغداد..

وصلنا إلى عمّان حوالي الرابعة صباحاً.. ولاحظنا أن حرس والدي متوترون جداً؛ للحد الأقصى.. ولكنهم لم يسألوا عن أي شيء..

أضعنا الطريق.. فأوقف والدي أحد الحرس وسأله عن فندق جيد قريب، فأشار إلى شارع ما وقال له: «سيدي، هناك فندق «بالاص»». لفظها بالصاد بطريقة جميلة، فضحكنا نحن الأطفال عليها كثيراً.. ثم طلب الحرس من سيارة أجرة أن تمشي أمامهم، واستقر الرأي بعدها على النزول في فندق يسمى «عمرة» وكان ذلك عند الساعة السادسة صباحاً..

عندها، سلم والدي على فريق حمايته وقال لهم: «يعطيكم العافية! من يرغب منكم بالعودة إلى بغداد فله ذلك». لن أنسى نظرة أفراد فريق حمايته الذين كانوا في أغلبهم من أقاربه.. وأذكر أن أحدهم قد بلع ريقه في تلك اللحظة..

... سمعنا في ما بعد أن أفراد الحماية قد تم سجنهم والتحقيق معهم..

ثم أطلق سراحهم بعد أن تأكدوا أنه لا علم لهم بتفاصيل الخروج.

كنا على الرغم من الجوع والتعب والرغبة الملحة باستخدام الحمامات نعيش في حالة من الإثارة والسعادة..

ولكنّ ما نكد علينا هذه السعادة كان العصبية غير المبررة لدى والدي؛ على عكس الهدوء الذي ليس بالغريب لدى عمي صدّام كامل..

في الطابق الأخير من فندق «عمرة» والذي حجزه والدي بالكامل تقريباً.. كانت هناك العديد من الأجنحة المحجوزة لنا ولغيرنا من الأسر، وكانت غرفتنا تقع بالقرب من غرفة والدينا...

كنا سعيدين في الغرفة، ونلهو ونلعب. وجاء الطعام من الأسفل، وأكل الجميع إلا والدي الذي لم يذق أي شيء..

سمعت أبي يقول لأمي بألم: «كان يجب أن أترك يا رغد! يجب أن أبتعد قليلاً».
وأمي كأي زوجة عراقية تتبع زوجها إلى آخر نقطة في هذا العالم..
وكانت أمي تعتقد أن زوجها قد غضب، وأن الموضوع موضوع وقت.. ولم تكن أمي تعرف أن والدي قد أقدم على خطوة ستؤدي إلى الموت..
أحدثنا الكثير من الإزعاج في غرفتنا بسبب لعبنا. وبعد دقائق، سمعنا طرقاً قوياً ومخيفاً وبعصبية من والدي على الباب.. فخفنا، وطلب كل منا من الآخر أن يفتح هو الباب الذي كان والدي لا يزال يصرخ خلفه: «افتح لكم».. و(لكم) هو تدليل عراقي لعبارة «ويل لكم». طلبنا من شقيقتي وهج أن تفتح الباب، فهي الصغيرة والمدللة ولن يصيبها سوء..
فصدقتنا وهج، وقامت بفتح الباب لتنال أول راشدي (صفعة) في حياتها..
قال أبي بعصبية ليثٍ حبيس: «إذا أسمع صوت أكسر روسكم.. خلوني أشوف واحد بيكم قاعد».
فبدأنا نشعر كأطفال بأن هناك أمراً خاطئاً في القصة كلها.. وبالطبع، قاطعتنا وهج، وقررت للمرة الألف بأنها لن تلعب معنا مرة أخرى..
في الصباح، كنا نشاهد من نافذة الغرفة الناس وهم يسبحون في المسبح أسفل الفندق، فجاء أبي بشكل عصبي وأغلق الستارة وقال: «من العيب أن تشاهدوا أناساً يسبحون وهم لا يرتدون ملابس محتشمة...» عرفنا أن الوضع الاجتماعي في الأردن يختلف عن العراق، وطلبنا أن يسمح لنا بالسباحة، غير أن والدي رفض بشكل قاطع ووبخنا..
بينما سمح عمي صدّام لأبنائه بالسباحة... وكنا لا نزال مستغربين من عصبية والدي المفرطة..
بعدها بساعات، جاءت سيارات الضيافة الأردنية وقامت بنقلنا جميعاً إلى قصر الهاشمية في العاصمة الأردنية (عمّان)..
كنا سعداء جداً حين ذهبنا إلى قصر الهاشمية؛ فقد أحسسنا بأن الإجازة قد بدأت. فهناك غابة جميلة تحف بالقصر، ويتكون القصر من ثلاثة طوابق، وبه «ستاف» طاقم خدمي ممتاز». من الطابق الأول الذي يحتوي على غرفة النوم الرئيسة يمكن الهبوط عبر درج رئيس إلى السرداب الذي يحتوي على العديد من الغرف بنظام الفنادق. وكان طاقم الخدمة من الأردنيين، وكنا

كعائلة صدام حسين نشعر بجو من الحب من الجميع. وكان الطعام يوضع في القصر ثلاث مرات في اليوم في مواعيد محددة بدقة..
وأيضاً، لم يكن الطعام كلاسيكياً مثل مطابخ القصور في العراق. إحدى أجمل الذكريات المميزة..
هي «كورن فليكس» الدب بطعم الشيكولاته الذي كان الأكثر شعبية بالنسبة إلينا..
طبيعة الحصار في العراق، بالإضافة إلى طبيعة العمل في قصور عائلة صدّام حسين كانتا تحتمان علينا ألا نعرف الكثير عما هو موجود خارج العراق. لا توجد أسرة حاكمة غير مترفة.
يعتقد الناس دوماً أن الشخص الذي يكون في قمة هرم السلطة يكون أسعد الناس. ولكن الحقيقة التي يفهمها كل من جرب أن يكون في السلطة ذات يوم هي أن وجود أسرة ما في السلطة يعني أقصى درجات التضحية من أجل الوطن، وأقل درجات تلك التضحية هي عدم الحصول على الحرية وراحة البال، دعك عمّا إذا كان البلد في حالة حرب، النوم القليل، المسؤولية المستمرة.. الخوف على الأسرة...
كذلك روحك التي تكون على علم بأنها مستهدفة في أي لحظة.. أنا أتعاطف بشكل كبير مع جميع السياسيين، حتى إن اختلفت آرائي معهم؛ لأنني أعلم أنهم لم يناموا كما يريدون، ولم ينعموا براحة البال قط، حتى لو امتلكوا مليارات الدنيا وجميع وسائل الراحة..
على أن فترة الراحة لم تطل لكي نفهم ما يحصل. فبعد فترة، ظهر والدي على شاشات جميع وسائل الإعلام العالمية وهو يقول أموراً كثيرة لم نفهمها، ولكننا صدمنا من ردة فعل والدتي. فقد كانت تشاهده على التلفاز بوجود إحدى الضيفات من الأردن، ثم..
انهارت فجأة وأغمي عليها!!!
كنا خارج غرفة والدي نسترق السمع ونسمع صوت الشجار. سمعنا مقتطفات من حديثهما..
«لماذا لم تخبرني منذ البداية...؟».
«لقد جئت معك بناء على تربيتي، ولكنك خدعتني...».

«لا تضعني في خيار بينك وبين أبي، فاختار أبي...». وغيرها من العبارات التي كانت أمي ترددها غاضبة..

* * *

وبعيداً عن تلك المشاحنات، استمرت سعادتنا الطفولية لفترة. وبعد انقضاء أيام قليلة وعلى عادة الأطفال.. اشتقنا لجدي صدّام وجدتي ساجدة..

اشتقنا للمربيات..

اشتقنا لألعابنا اليومية..

اشتقنا لبنت خالي وبنات عماتي..

إنه ذلك الطعم المر نفسه الذي عشته، والذي يفهمه جميع العراقيين..

فرق كبير آخر.. في عام خمسة وتسعين، فقدت مثل الكثير من العراقيين والناس أباً.. ولكنني اليوم فقدت وطناً كاملاً..

جاءت ليلة القدر عام خمسة وتسعين، وتفرغنا أنا وإخوتي للدعاء بأن نعود للعراق.. بأي طريقة كانت..

للتاريخ، وقبل العودة، كان أبي يعرف أنه سيقتل إن عاد.. ومشكلة والدي رحمه اللّه هي أنه عصبي وسريع الاستفزاز. لقد كان أبي عسكرياً، ولم يكن رجلاً سياسياً أبداً. الرجل العسكري له إيجابياته وسلبياته في أي دولة وفي أي زمن»

فإيجابياته هي أنه مخلص ومستعد للتضحية، ويسهر على أمن وطنه، ويحلم دائماً بتطوير البلد، ولا يمكن للرجل العسكري الحقيقي أن يرضى باحتلال بلده تحت اي مسمى او اي ذريعة كانت.. اما سلبيات العسكريين فهي في العصبية والعاطفة الجياشة وسهولة استفزازهم..

كما أنه يمكن تكهن ردود أفعالهم بسهولة على عكس السياسيين..

و جدي عندما بلغه خبر هروب أبي للخارج انفعل ووصفه بالقول: البغل والخائن والحرامي..

وهو الأمر الذي جعل والدي يفقد صوابه ويكرر: «هل هذا جزائي على ما قدمته للعراق؟؟».

ثم يخرج غاضباً، ويذهب لعقد المؤتمر الصحفي الشهير في عمّان.. ورغم سخافة الأمر في بداياته كخلاف عائلي، إلا أنه تطور للأسوأ بشكل كبير وسريع بتدخل الأطراف الخارجية..
فقد بدأت المخابرات العالمية و المعارضة العراقية تتواصل مع والدي بشكل يومي..
وهنا انتهى السيناريو الجميل الذي كانت والدتي والخالة رنا ترسمانه؛ بأن الموضوع زعلة وستذهب... لأنهم جميعاً أهل وأنساب وأقارب...
كما أن الموضوع أصبحت فيه إساءات متبادلة وتدخلات خارجية.. وخرج الخلاف إلى العلن ...
استمر زوار الليل والنهار لوالدي بمن فيهم الأمريكان..
جاءت المعارضة التي تحكم العراق اليوم لتجلس معه، وجلسوا معه عدة جلسات، واستمرت الزيارات من الامريكان والمعارضة لوالدي بشكل شبه يومي
وهكذا، انتهت الحفلة قبل أن تبدأ، وهدأت الأمور مؤقتاً..
بقيت أيامنا في الأردن تمر متشابهة، وبقي والدي يكابر، ولكنه في الحقيقة كان حزيناً وعصبيا..
عمي صدّام بدوره كان يعتصره الألم، ولكنه كان صموتاً وصابراً وأكثر تقبلاً للواقع الجديد من والدي..
بدأت أعراض «حمى العراق» تظهر علينا، وراحت والدتي تشتري الصحف العراقية لتملآ عينيها من أخبار جدي..
وتتنغص خالتي حين ترى شيئاً في السوق مناسباً لأمها ولشقيقتها حلا..
الجميع يتحدث عمّا سنفعله حين نعود إلى العراق..
اشترت والدتي وخالتي رنا «شنطة» كبيرة ملأتاها بالهدايا تفاؤلاً بيوم العودة.
وفي أحد الاتصالات مع خالتي حلا أبلغتاها بما تجهزانه لها، ولكنها لم تبد أي ردة فعل؛ ما أثار استغرابهما للحظات ثم نسيتا الأمر بعدها..
بدأ السفير العراقي في الأردن نوري الويس يقوم بأعمال مخابراتية عن طريق ربط والدي بخالي عدي وقصي وترتيب الاتصالات بينهم للتنسيق للعودة..
كان أبي لا يزال متألماً جداً من موقف جدي واستغنائه عنه..

مرت الأيام في الأردن، وبدأ العام الدراسي، ودرسنا في مدارس الأردن، وهناك تعرضنا لصدمة نفسية غريبة. فقد كان في المدرسة بعض الطلبة الكويتيين الذين يكبروننا في السن، والذين قذفوا علينا كرات الثلج من الطابق الثاني.. استغربنا عداء الطلبة الكويتيين لنا..

... اشتكينا عليهم.. وأخبرتنا المدرسة بالتفاصيل، وبأنهم لا يحبون جدنا.. كانت تلك هي المرة الأولى التي نفهم فيها أن هناك من لا يحبّ جدي في هذه الدنيا.. غامت الدنيا في عيوننا..

وأدركت حينها أن العالم كله يعيش في صراعات مختلفة، نفهمها كلما كبرنا في العمر ويصعب علينا هضمها في كل مرة..

اليوم، حين أذكر غضب الطلبة الكويتيين أفهم بعد أن قرأت أكثر، وعرفت أكثر، وسمعت أكثر. قضية الكويت تبقى من الأخطاء الرئيسة التي أدّت إلى المآسي التي حدثت بعدها. ولكن، هل كل الأطراف فيها بريئة؟ الجواب هو قطعاً لا. فقد أخطأت الأطراف التي استفزت الدولة العراقية بالإضرار بالملاءة المالية العراقية؛ وهو البلد الخارج من حرب مدمرة ويريد إعادة إعمار نفسه، وأخطأ من لا يرى الألاعيب المخابراتية للاستخبارات العالمية التي تهدف إلى توريط العراق في الكويت، وخلق الذريعة لتحطيم حضارة العراق.. وبمعرفة شخصية جدي بشكل دقيق، واستفزازه بعبارات تمس الشرف والعرض..

الهدف كان تدمير العراق أولاً وأخيراً.. وتحجيمه بحجج مختلفة.. كان الهدف هو إعادة العراق إلى العصور الظلامية الأولى.. لم ينجح الأمر في حرب التسعين؛ رغم وجود المبرر، ولكنه مع الأسف نجح في حرب عام ألفين وثلاثة وبدون وجود مبرر.. وذلك حين نجح الآخرون بتمزيق النسيج الوطني العراقي..

وأقول اليوم لأطراف أزمة الكويت: «كن دافناً للشر بالخير.. تسترح من الهم!»

في تلك الأعوام سمعنا للمرة الأولى مصطلحات كالغوغاء والثورة... ولم نكن نعرف عن تلك المصطلحات من الأساس..

كل يوم، كان الملك حسين يرسل لنا عربة خاصة بالآيس كريم. وكان الرجل الأردني الذي يحضره لنا يسميه «بوضة»؛ وهو الاسم الذي كنا نراه مضحكاً..

كنا نطلب آيس كريم «جوزي» فلا يفهم، فتفهمه بأنه اللون البني فيضحك. وهكذا، بدأنا بتكوين حصيلة لغوية ربما بقيت بقاياها معنا إلى اليوم.. لكن، يبقى اعتزازي كبيراً بلهجتي ولغتي العراقية، وحرصي على استعمال المفردات العراقية في حديثي.

علاقتنا بالفريق الخدمي في القصر كانت ممتازة، إذ كنا نذهب إلى غرفهم الصغيرة، ونلهو معهم ونتحدث كثيراً. وكانت ((تاضي)) مربيتنا نفسها التي جاءت معنا إلى الأردن، ولازمت أبي في حياته ووفاته، شديدة علينا في علاقاتنا بالفريق الخدمي، وكانت تحذرنا من التمادي في الحديث أو الإجابة عن أي سؤال..

وفي عدة مرات، كان جلالة الملك حسين بن طلال يأتي لزيارتنا بمفرده في سيارة يقودها بنفسه..

كنا نهرول إليه لأننا نعرف أنه صديق بابا صدّام، فيحتضننا بقوة ويقبلنا.. وفي حال كنا داخل القصر، كانت أمي تأتي وتقول لنا: «تعالوا وسلموا على جلالة الملك».

كان اللقاء الأول الذي جمعنا بجلالة بالملك حسين تحديداً مميزاً جداً؛ فقد جلس الملك على ركبتيه واحتضننا واحداً بعد الآخر. لجلالة الملك حسين أسلوب مميز في التعامل مع الأطفال..

في أعياد ميلادنا كان يأتي بنفسه مع عدد من الأمراء والأميرات، وكان يحرص على معرفة الحالة النفسية لكل من والدتي وخالتي رنا، وكانت بناته الأميرات عالية وعائشة وزينة والأميرة هيا يحضرن أعيادنا باستمرار، ويزرننا بشكل دوري. وبالمثل، كانت الأميرة عالية الفيصل زوجة الأمير فيصل بن الحسين سابقاً تأتي لزيارتنا بشكل دوري..

يجلس جلالة الملك في أحيان كثيرة مع والدي بشكل منفصل.. ولكن جلساته مع والدي لم تستمر لوقت طويل..

كانت أجمل هدايا جلالة الملك حسين بالنسبة لنا هي كعكة معينة يحضرها من محلات «جبري» تكون مغطاة برقائق من الشيكولاته البيضاء، وفي منتصفها فراولة موضوعة بشكل هرمي ومغطاة بطبقة حمراء... كنا نعتبرها هدية العائلة المفضلة..

كنا نتحدث عمّا سنقوله لجدتي صفية وماما ساجدة وبابا صدّام حول ما رأيناه في الأردن.. كانت اتصالات والدتي وخالتي مع جدتي قليلة جداً؛ بمعدل مرة واحدة شهرياً ومركزة.. بينما لم يكن جدي يستخدم الهواتف أصلاً..
كان أبي يذوي أمامي يومياً كزهرة لا تُسقى... وكنت أراه يذبل يوماً بعد يوم..
لم يكن يتحدث مع عمي صدام كامل عن جدي إلا وهما يقولان «عمنا».
ولم نعرف لفرط أدبهما حين يتحدثان عنه بوجود خلاف أصلاً.. كان كلاهما حزينين، وكل منهما يعبر عن حزنه بطريقته.. إما بالغضب والذبول.. وإما بالصمت التام..
كانت اتصالات ما يعرف بالمعارضة العراقية وزياراتها المشؤومة قد أصبحت قليلة. وذات يوم، سمعنا والدي يصرخ قائلاً لأحد الضيوف في إحدى الغرف: «أتقطع وصل على الحدود ولا أشوف العراق يتقسم». لقد كان تقسيم العراق مخططاً قديماً..

وفي اثناء هذا الوقت الذي مضى على وجودنا في الاردن وفي الوقت نفسه، بدأت أعراض الحنين إلى الوطن- أو ما يسمى «الهوم سيك»- القوية تظهر على والدي..
كان يبقى في الفراش لأوقات طويلة وكأنه مريض..
كما تأثرت نفسيته بشكل ملحوظ. وكان وهو الرجل العسكري ينجح في تضليل الرقابة على القصر بسهولة، ويخرج منفرداً، ويتمشى في شوارع عمّان، ويزور بعض أصدقائه هناك..

ومع مرور الوقت، أصبح والدي لا يخرج من القصر أو ربما من غرفته إلا لأمر مهم.. وقد حرّم على نفسه وعلينا السهر و الاستمتاع..
عمي صدّام كامل كان أكثر تأقلماً مع الواقع، وقد قام بافتتاح مكتب تجاري صغير، وبدأ بممارسة عمله؛ إذ أراد أن يعيش بشكل طبيعي.. أما والدي فقد أحاط نفسه بأصدقاء المصلحة، وبدد الكثير من الأموال التي كانت بحوزته كعادته في إعطائها لأشخاص ليسوا ثقة وقاموا بالتلاعب بها.. كان عمي صدّام يذهب يومياً إلى مكتبه وهو يحمل معه حقيبته السامسونايت الجلدية الجوزية.. أو البنية كما تعلمنا في الأردن. وكان عز الدين المجيد وزوجته

عمتي وإخوته معنا، وقد سكنوا في القصر مع ساكنيه.. ظل عز الدين معنا في القصر لمدة شهر واحد، وبعد ذلك غادر بمفرده، واتضح في ما بعد أنه ذهب إلى زوجته الثانية، تاركاً عمتي إلهام وأولادها الأربعة في القصر معنا. سكن جميع العزاب بمن فيهم عمي حكيم في غرف السرداب، وكانت للغرف شبابيك تطل على الحديقة. كنا نجلس بجوار الشبابيك من الخارج، ونستمتع برؤيتهم من الشبابيك المطلة على ملعب الغولف وهم يتحدثون مع بعضهم أو عبر الهاتف..

كنا نرى عمي «حكيم» وهو يفتح الشباك، ويخرج منه هرباً من الرقابة الصارمة التي يفرضها والدي عليهم أيضاً، ويخرج للسهر في شوارع عمّان ثم يعود آخر الليل..

كان أبي «يقلب الدنيا» إذا تناهى إليه خبر خروج أحد من القصر دون إذنه.. والدتي وخالتي رنا بدأتا بتسلية نفسيهما بالطبخ في القصر.. وفي التسوق واستبدال الذهب العراقي الثقيل بالأنواع الجديدة من الذهب الأردني المختلف في رونقه.. وكذلك عمتي إلهام..

أما نحن فقد بدأنا نكره المدرسة؛ رغم أنها كانت تعد من مدارس عمّان الراقية.. مدرسة عمّان الوطنية.. وكنا نفتقد إلى الشبيبية بشكل كبير.. ورغم أن المدرسة كانت فيها بعض الأمور المسلية أو المختلفة التي لم تكن في العراق؛ مثل الخروج في الصباح الباكر عند الخامسة والنصف، والطريق الطويل الجميل المؤدي للمدرسة، وإمكانية لعب كرة السلة، ولكنني مع خصوصية الأحداث تلك الفترة ومع بداية مراهقتي تعرضت لأزمات كثيرة كانت تفقدني التركيز... وقد عانيت من مشاكل كبيرة مع مادة الرياضيات وجدول الضرب بشكل خاص..

علمتني عمتي إلهام زوجة عز الدين المجيد بعض الحيل الرياضية التي تساعدني على الحفظ، مثل أن أحفظ أول خمسة نتائج في جدول الضرب الخاص بالرقم تسعة ثم أقوم بقلبها بالعكس في البقية فتكون النتائج صحيحة، وكمثال على ذلك أن ١٨ = ٩*٢ وفي نهاية الجدول ٨١ = ٩*٩ وهكذا.. وبالفعل، جاء سؤال عن جدول الضرب للرقم تسعة، وقمت في الفصل

بكتابته بالاعتماد على هذه المعلومة بشكل سريع، وسلمت الورقة بسرعة ما أثار حفيظة أحد الطلبة الأردنيين الذي اتهمني بالغش..
فقالت المعلمة التي كان واضحاً عليها أنها تأخذ وجودنا بشكل شخصي لم أكن أفهم سببه حينها إنني سلمت الورقة بسرعة، وإنني كنت أغش فعلاً. حاولت جاهدة إقناعها بأن تسمح لي بكتابته أمامها، وفي غمرة الارتباك، ومع نظر الفصل كله إلي ارتبكت.. وفشلت في كتابة الجدول مرة أخرى على السبورة أمام الجميع؛ في ظل الضغط النفسي وأنا أحاول استرجاع الأرقام الأولى.. وصمتني بالكاذبة مرة أخرى، وسحبت الورقة من يدي.. في تلك اللحظة، أحسست بالغربة الحقيقية لأول مرة في حياتي..
أحسست بالظلم..
أحسست بأن شيئاً من هذا لم يكن ليحدث لي لو أن صدّام حسين كان هنا...
أريد ان أعود إلى العراق..
بعدها، أصبح نمط حياتنا قبل النوم.. نقرأ الفاتحة، ثم قل هو الله أحد والمعوذتين، وننفخ فيها في أيدينا، ونمررها على أجسادنا... ثم نستجمع كل طاقتنا الروحية ونقول بصوت خفيض: «يا رب نرجع للعراق»...

الفصل الثامن نافورة الدم: العودة والمجزرة الكبرى

ولكن السؤال الذي يسأله الكثيرون هو: لماذا؟

لماذا كان الخروج والزعل منذ البداية؟ وللإجابة عن هذا السؤال، يجب العودة بعقارب الساعة بضعة أشهر مضت..

استمرّت هوة الخلاف بالاتساع بين مختلف التيارات داخل الأسرة. ولكن، يمكن القول إن الولاء للعراق ورئيسه جدي صدام حسين كان ثابتاً؛ رغم تلك العواصف.. ومن جميع الأطراف..

بعد فترة، حدث خلاف تجاري ومالي كبير بين خالي عدي و احد الاقارب؛ حيث حدث من طرف هذا القريب نوع من التجاوز على مكانة خالي عدي.

وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن خالي عدي يُكنّ أي ود لهذا الرجل نهائياً؛ حتى من قبل حدوث الخلاف..

وهنا، استغل هذا الرجل قربه من والدي وتأثر والدي به، فاستعان بوالدي مستنجداً به، فقام والدي بإيوائه، وخبأه في مزرعتنا في الدورة؛ وهي مزرعة معروفة لدى الجميع بأن ملكيتها تعود لوالدي، وكانت تقع بالقرب من مصفى الدورة والجسر..

وفعلاً، سكن هذا الشخص هناك لمدة تزيد عن الأسبوع، ولم يعترضه أحد من رجال خالي عدي إكراماً لوالدي؛ رغم أن خالي «عدي» قام بالتهديد مسبقاً.. وقد استغل هذا القريب تلك المرحلة، وصار يملأ أذني والدي بالكلام، ويحاول التأثير عليه. وهنا لا أقول إنني أنصف خالي، أو إنه لم يكن مخطئاً، ولكنني لا أبرّر نوايا الرجل الآخر..

لم تكن والدتي تحب نوايا هذا الرجل على الإطلاق. وكان لديها حدس قوي بأن هناك ما يجول في فكره ويحاول تنفيذه عن طريق والدي. فرغم محاولة والدي إخفاء بعض التفاصيل عمّا يدور بينه وبين هذا الرجل من كلام. كانت والدتي تفهم وتشعر بأن هناك ما يخفيه، وكانت تنّبهه باستمرار؛ إلا أن والدي لم يقف كثيراً عند تلك التنبيهات. وكانت تحاول بشكل مستمر إبقاء والدي منشغلاً في البيت ومعنا لكي تقلل من تلك اللقاءات، غير أنها لم تفلح كثيراً..

كان عمي صدام يراقب ما يحدث بهدوء كعادته، ولكنه أيضاً كان يميلُ إلى جهةً هذا القريب . لذا، صار الخلاف بين خالي عدي وخالي قصي من جهه وبين عمي صدام والدي حسين كامل من جهةً.. بغض النظر عن رأيي في الخلاف

الذي لا أعرف الكثير من التفاصيل عنه بسبب صغر سني آنذاك، ولم ألجأ للكثير في سؤالي عن تلك التفاصيل خشية أن أكتب التاريخ حسب أهواء الآخرين، لكنني لست مع تلك الخلافات أياً كانت. فمواجهة أعداء البلد أولى بأن نرجّحها على كل الخلافات العائلية. وبالمقارنة مع قضية البلد، يجب أن يذوب كل ذلك وتبقى قضية البلد هي الراجحة؛ خصوصاً وأن كل هؤلاء أبطال وبدرجات.. وعندما يخسر البلد رجالاً على هذا القدر من الشجاعة تكون خسارته كبيرة.. ناهيك عن أن في هذه الخسارة ستبدأ السلطة وأمن البلد بلفظ أنفاسهما الأخيرة ...

كان والدي على ما يبدو قد بدأ شيء من الإحباط النفسي يتسلل إليه، وأصبح يفضل الاستلقاء في وقت راحته على سرير طبي. حتى إنه في بعض الأحيان كان يستقبل أصدقاءه او المقربين على ذلك السرير..

لم يكن والدي حسبما أتذكر وتسرده لي والدتي في بعض القصص يكنّ لأهله العداء أو الضغينة؛ عدا عن بعض الخلافات التي تكون أقرب إلى الطبيعي بالنسبة لأشخاص يعيشون في إطار السلطة. حتى إنني سألتها ذات يوم عن سر كره أحد الاشخاص من هذه العشيرة ، وحتى إنهم لا يحبون جدي؛ وقد عرفت هذا حين حدثت معي مناوشات من قبل أحفادهم بعد الاحتلال بسنين طويلة، وعندها استغربت مصدر كل ذلك العداء وسببه فابتسمت والدتي قائلة لي: «حرورة، رغم أنني لا أفضل أن تشغلي فكرك بمواضيع بالنسبة لي لا قيمة لها، وأرغب في أن تخططي لحياتك ومستقبلك عوضاً عن ذلك، إلا أنني سأسرد لك بعض القصص، وأنت ذكية بما فيه الكفاية لكي تربطي الأحداث ببعضها وتخرجي بخلاصة، وتفهمي السر وأسباب هذا العداء».

وفعلاً، بعد أن سردت لي عدة قصص، أثّرت بي إحداها جداً. وهي أن أحد أفراد هذه العائلة من الكبار منهم والمقاربين في السن لوالدي هرب إلى إحدى الدول العربية كلاجئ سياسي؛ وذلك بعد أحداث العراق، وقالت مبتسمة: «لا أعلم ما حدث لدماغ ذلك الرجل؛ خصوصاً وأنه شهد أحداث خروجنا وعودتنا، إلا أنه غادر العراق على حين غفلة». لا أعلم الكثير عن أسباب مغادرته، وليست لدي رغبة حتى بمعرفة تفاصيلها، إلا أن القصة ببساطة هي أنه خرج وتكفل إخوته هؤلاء بإعادته إلى البلد، وهم الذين سيقومون بتصفية ثأرهم

معه، وتصفية عارهم على حد قولهم بأنفسهم. وفعلاً، بعد أن قدّم إخوة هذا الشخص التطمينات له بعودة آمنة، عاد إلى العراق.. عاد ذلك المسكين إلى العراق، وأسرع إخوته من هذه العائلة بتصفية أخيهم وقتله ودفنه في مزرعتهم. وتناقل العراقيون والأقارب هذا الحدث مستغربين ما حصل. ومن المفارقات غير اللطيفة أن أحد رجال العائلة نفسها قام بتصفية والدي وأعمامي عندما عادوا من الأردن إلى العراق. حتى إن والدتي عندما سردت لي القصة قالت لي: «أستغرب يا حرير أن يحصل الإخوة على حساب تصفيتهم لأخيهم على «العفية» إرضاء لأي طرف كان؛ حتى لوكان كما يدعون رأس الهرم في السلطة. وقد انتقد الكثيرون من أفراد العشيرة تصرف هذه العائلة، ورد فعلهم مع أخيهم إكراماً لمصالحهم الشخصية. ولكنني لا أستغرب ذلك السلوك على تلك العائلة..

والله، لو أن أحداً يساومني على حياتي مقابل حياة أحد إخوتي إرضاء لتلك الجهة أو ذلك الشخص فأنا أفضل الموت مئة مرة على أن أعيش ذلك الخزي وعذاب الضمير»...

وهذه القصة أشد ما أثّر في، وكان وقعها كبيراً علي، ولكنها وضحت لي أبعاد الكثير من الأحداث التي لم أجد لها تفسيراً في وقت ما..

هناك قصة أخرى طريفة وغير طريفة في الوقت نفسه. فقد حدثت في يوم ما مشاكل بين رجال هذا المنزل ووالدي، وبينما كان والدي قاصداً مزرعة الدورة كان يجب عليه الهبوط من جسر قرب الزيوت النباتية، حيث يجب عليه المرور بالقرب من مزرعة هذه العائلة ، ثم مزرعة علي حسن المجيد في طريقه إلى مزرعته في الدورة. حينها، رشقت سيارته بطلقات نارية، وهنا جنّ جنونه. وبما أن العادة هي أن نذهب للغداء كل يوم تقريباً عند جدي، فقد سأله جدي عن تلك الحادثة قائلاً: «ها حسين، هم رح تشفعلهم ما اسجنهم؟». فأجابه والدي: «لا سيدي. هذه المرة ما رح اشفعلهم، اسجنهم». فرد عليه جدي: «يعني أكيد ما تجي تتشفعلهم بعد كم يوم؟». وبعد أن فهم والدي ما قصده جدي ابتسم. فعلى ما يبدو، كان والدي كثير التشفع لأقاربه؛

وعن سر الهجوم الكبير الذي تعرضت له في الأيام نفسها التي قرّرت أن أكون فيها شخصية عامة.. تفاجأت بكم الهجوم العنيف من الأقارب أنفسهم.

وعلى ما يبدو، إن سياسة الحقد والحسد والغيرة وبعد كل ما جرى لهم ما زالت قائمة بامتياز. سألتها أيضاً عن سبب كل ذلك.. فابتسمت وقالت لي: «إن العائلة قد ذاقت الأمرّين من الأشخاص أنفسهم الذين تتكلمين عنهم اليوم». وأخبرتني بقصة عجيبة أخرى؛ فحين سافرت جدتي ساجدة لبعض الوقت إلى سويسرا، كانت تُفاجأ كل مساء وهي ترى برزان وقد اجتمع بأولاده ليعيد عليهم الأسطوانة المتكررة نفسها كل يوم.. «لا تنسوا، لقد آذاني حسين كامل بكذا وكذا.. فعل حسين لي كذا وكذا». للدرجة التي أذهلت جدتي ساجدة التي كانت تحب أختها كثيراً، واعتادت على ألا تعترف بأخطاء أهلها أبداً حتى أمام أولادها.. ومع ذلك، ومن هول صدمتها مّما رأته، أسرّت إلى بناتها ذات يوم مستغربة ما حصل أمامها.

أمّا عني، فهنا اكتملت لي صورة لا أعلمها وفهمت أبعادها..

في العراق، لم نكن معتادين على برودة الجو الموجودة في المملكة الأردنية الهاشمية..

ومع وجود تفاهم معلن غالباً وأحياناً غير معلن بين الجميع بأننا سنعود ذات يوم إلى العراق، وعدم اعتراض الكبار علينا حين نقول إننا سنفعل كذا وكذا لدى أو بعد عودتنا إلى العراق، ارتفعت الروح المعنوية لدينا بشكل كبير، وأصبحنا نحاول عيش حياة طبيعية ولو مؤقتاً.. ومثل العادة، كان يجب على الحياة في القصر أن تستمر..

كان الملك حسين يرسل إلى والدتي وخالتي رنا امرأة أردنية سمراء كبيرة في السن بشكل دوري لتقوم بأخذ الطلبات والاحتياجات.. ولكنهما كانتا تحرجان من هذا الأمر، وكانتا تدفعان لها النقود باستمرار.. وبعد مدة، فوجئتا بكل المبالغ التي دفعتاها لها موجودة في ظرف أعيد لهما. كما أرسل الملك حسين خبراً بأنه سيغضب إذا تكرر هذا الأمر، وقال لهما: «أنتما بنتاي».. ما دفعهن إلى اللجوء إلى التسوق بمفردهن. ولكن تلك المرأة السمراء استمرت بإحضار المستلزمات الدراسية من قرطاسية ودفاتر وغيرها.. تتبعها حفلة «التجليد» التي بقينا على ممارستها في بداية كل عام دراسي أعواماً عديدة.. كان يومنا طويلاً ومليئاً بالأحداث واللعب المستمر.

طلبنا من والدي أداة للتزلج، فأحضر لنا مجلة لاريدوت الألمانية نفسها لكي نطلبها منها.. وكنا نعد الأيام وننتظر رؤية الثلج بفارغ الصبر. كما أحضر لنا والدي كلباً بعد إلحاح كبير من طرفنا.. حيث اختار صديق عراقي من ألمانيا لوالدي كلباً مطابقاً لكلب «ساندي بل».. وقد اختار هذا النوع نظراً لكونه لطيفاً مع الأطفال..

وحين وصل، كان كذلك بالفعل، كما كان جميلاً جداً..

وعرفنا أن سر جماله بأن أمه وجدته قد اختيرتا لمسابقة ملكة الجمال للكلاب..

أغرمنا بذلك الكلب الذي سرعان ما أصبح صديقاً للجميع..

وأسميناه «سيمبا» أسوة بفيلم الكارتون الشهير..

يتسلل الفرح مع حلم العودة للوطن إلى حياتنا ببطء؛ كتسلل الضوء إلى غرفنا في أول النهار.. أصبحت لدينا علاقات قوية بالفريق الخدمي، وصرنا نقوم كثيراً بالنزول للتسلية والحديث معهم، وخاصة السفرجي الذي كان يحب الأطفال ونحبه، واسمه أياد؛ على الرغم من توجيهات المربية تاضي التي كانت صارمة أكثر من أختها رفعة بكل ما يتعلق بالأدب وعدم اللعب والرقص في القصر. كنّا نتسلل إلى القبو بجوار المطبخ، حيث يكون السفرجي أياد موجوداً هناك.. وعندها، تضع رفعة وإياد «سعد» ابن عمي صدّام كامل- الذي كان يتسلل إلى هناك بدوره، وهو الطفل اللطيف وجميل الشخصية- على الطاولة، ثم يبدأ الجميع بالتطبيل والهتاف: سَعُّودي.. سَعُّودي.. ويبدأ سعد بالرقص بطريقة طفولية ومضحكة، وخاصة برأسه الكبير المميز..

قرر عمي حكيم أن يناكف ابن أخيه بتهديده ذات مرة، فقال له: «سَعُّودي، سأخبر أباك بما كنت تفعله..» وكان عمي صدّام قد منعه من الرقص رغبة باستباق رجولته..

فكاد سعد يموت من شدة الخوف.. وكنا نضحك كثيراً لتهديد عمي حكيم؛ خاصة مع طريقته بلفظ اسم سَعُّودي بالطريقة العوجاوية التي فيها لكنة بدوية محببة..

وفي اجتماع للأسرة على الغداء، هدد عمي حكيم ابن أخيه «سعد» الصغير ذا السنوات الثلاث بأنه سيقوم بإخبار والده فعلاً، فما كان من سعد إلا أن

استبق الأمر وقال لوالده: «بابا... عموحكيم إكص ببعداد».. أي أن عمه «حكيم» كان يرقص في بغداد..
فضحك الجميع بشدة..
كانت الأمور تتجه للهدوء في عمان، وكان خالي عدي يكتب مقالاً أسبوعياً كل يوم أربعاء في صحيفة (بابل) العراقية يهاجم فيه والدي، فيعلق والدي ويردّ، وتعود الأزمة إلى المربع الأول. كان والدي يتحدث بغضب عن الطرح الفدرالي، وخطة تقسيم العراق التي عُرضت عليه ويصفها بالحل الخاطئ .. وفي إحدى المرات في شهر رمضان -وهو الذي لم يكن يحب أن يتحدث أمامنا بهذه الأمور- لفرط غضبه، كان يتحدث مع الجميع ويقول لهم معلقاً على تلك العروض:
«قلت لهم، إذا كانت الفدرالية بهذا الجمال فلماذا لا تجربونها لديكم أولاً؟!».
ومع مرور الوقت، كان من الواضح أن الجميع اقتنع بأن حسين كامل ورقة خاسرة وليست رابحة كما اعتقدوا سابقاً
في بدايات الأزمة قبل خروجنا من بغداد، والمعروف ان طبيعة والدي، أنه سريع الغضب وانفعالي، وفي يوم من الايام دخلت بموجبها إحدى صحف الإثارة الصفراء بنشر مقابلة مفبركة مع والدي على هيئة حوار سؤال وجواب.. بل تم أيضاً إدخالها بطريقة ما إلى القصر، ووضعت حيث يجلس والدي لكي يراها؛ على الرغم من أن دخول هذا الصنف من الجرائد إلى القصر ممنوع..
وحين قرأها والدي انفجر غاضباً، وقام من فوره بالاتصال برئيس التحرير الذي كان جاهزاً ومستعداً لاستقبال المكالمة، بل ويقوم بتسجيلها وطلب منه والدي تكذيبها وبأنه لم يقم بإجراء أي مقابلة.. كان رئيس التحرير يقول له بلهجة باردة: «لن أكذبها لأنك أجريتها فعلاً..» وقال والدي بحدة: «أنا صاحب الشأن، وأقول لك إنني لم أجر أي مقابلة.. وإذا لم تكذبها فسأفعل بك كذا وكذا..».
واستمر برود رئيس التحرير وهو يقول: «أنت قد اجريت هذا الحوار ولن اكذبه وانت في دار أبي عبد الله. ولولا ذلك لرددت عليك وفي النهاية، حصل على مراده ففي ثورة غضبه تبادلا المسبة..

أحد الوجوه البارزة في تلك الأزمة كان عبد الكريم الكباريتي رئيس الوزراء الأردني، وهو الشخص الذي عليه علامات استفهام كثيرة وخاصة في ولاءاته لدولة تناصب العراق والرئيس العداء في ذلك الحين. وقد رُفِعت قضية على والدي بتهمة الإساءة إلى الذات الملكية..
عندها، أحس والدي بأن هناك من يحاول استخدامه والضغط عليه، وأوصى عمي «حكيم» باستئجار منزل وشراء حقائب لوضع أغراضنا فيها.. وقرر أن يغادر القصر الملكي الأردني. أحزننا قراره هذا بشدة؛ لأننا أحببنا المكان والجمعة والفريق الذي اعتدنا على العيش معه..
وفي يوم العيد، كنا ننتظر أن يأتي الملك حسين للسلام علينا كعادته، ولكنه لم يأت وجاء بدلاً منه رئيس المخابرات، وقال لوالدي ما معناه بأن للضيافة أصولا.. «تستطيع المغادرة، وابنتا الرئيس صدام ضيفتان عند الملك حسين كذلك.. ولكننا في دولة قانون، وعليك أن تمثل أمام القضاء الأردني»....
اعتبر والدي ما حدث إهانة كبيرة.. وأن هناك من يعرف أنه لا يمكنه العودة إلى العراق ويضغط عليه من هذا الباب!
لو كان هناك مراقب منصف للأمور لعرف أن حسين كامل لم تكن لديه على الإطلاق نية انقلاب حقيقية على جدي. فمن جهة، كان تنفيذ الانقلاب في بغداد أسهل بكثير. حيث كان لوالدي نفوذ في الوسط العسكري ، فلماذا لم يكلف نفسه عناء المحاولة من الداخل أولاً؟! ، وأموال الدولة؛ فهو الذي كان يشرف على صفقات بيع النفط..
للذين كانوا يقولون إنه هرب بشكل ممنهج وبالتنسيق مع الملك حسين أو غيره، أؤكد لهم أننا حين ذهبنا إلى الأردن.. كان واضحاً أنه لم يكن لدى الجانب الأردني أي علم بذلك، ولذلك حدث الإرباك.. بل حين عرف أحد ضباط المخابرات هويتنا طلب منحه وقتاً للاتصال، وكان الوقت متأخراً والملك حسين نائماً، لذا اضطر للانتظار إلى الصباح. وانتظرنا على ما يبدو إلى أن بلغ الملك بالخبر، وطلب وقتاً للتشاور مع جهة ما، لكي لا يحدث الأمر أزمة دبلوماسية -يبدو أنها الأمريكان- ثم تم توجيهنا للقصور الملكية..
القراءة المنصفة والواعية للتاريخ والأحداث تؤكد أن خروج والدي كان ارتجالياً، وناجماً عن غضب وزعل، وبتخطيط لم يتجاوز أشهراً قليلة..

وقد قام والدي بالتصرف في تلك الأزمة بناء على الطريقة العُربية العشائرية.. «أنا وأخوي على ابن عمي، وأنا وابن عمي عالغريب..».
ورغم التهديد والوعيد...

* * *

نعم، كان البعض يكرر بأن حسين كامل هو الرقم واحد (مكرر) في العراق، وليس الرقم اثنين.. وقد تكون هذه الكلمة هي التي أدت بمنافسي والدي إلى الإيقاع بينه وبين الأسرة..
أنا الآن بحيادية، وبعيداً عن العواطف، أنظر إلى الأمر والحادثة التي مر عليها أكثر من عشرين عاماً وأقول: «كلهم أبطال العراق». وفي الوقت نفسه، لا أبرر لأي شخص، فكلهم ضحوا ورووا أرض الرافدين بدمهم. كلهم أبطالي، وأنا أسرد هنا الحدث التاريخي بما يمليه على ضميري وتربيتي.. لكي نأخذ منه العبرة، ونعرف أين أخطأنا فلا نكرر أخطاءنا أو يكررها غيرنا..
وللقارئ الكريم حق التصديق وأخذ العبر أو ردها..
وتبقى الحقيقة الأزلية الإدارية بأن من لا يعمل لا يخطئ..
وقد كان أبي من الذين يعملون..
بل من يعملون بكثرة..
بل كانت حياته هي العمل والإنجاز..
ولذلك، لا غرابة بأن تكون لديه بعض الأخطاء والهفوات.. ولكن، وبكل صراحة، إن إنجازات حسين كامل المجيد تغطي على سلبياته وعلى كل ما حدث..
وجميع إنجازات والدي أضيفها إلى فخري الكبير..
.. ولأنني أعرف أن الملائكة لا تمشي على هذه الأرض.. رويت حادثة والدي بصدق كبير ودون أي حرج..
وكأي حكم في العالم، كانت لدى جدي الشهيد حاشية جيدة وأخرى سيئة، وقد تحمّلت عدة جهات دم والدي. وللحسد البشري دوره في دفع النفوس إلى البغضاء؛ فالكثيرون كانوا يرون أن ما حققه حسين كامل كان بإمكانهم تحقيقه، بل كان البعض يرون أنهم أولى بتحقيقه من حسين

كامل وصدّام حسين. كما كان قربه من صدام حسين وشجاعته اللافتة للأنظار سبباً آخر للحسد..

كان من الصعب الكذب على جدي، أو ادعاء الإمكانات أمامه ما لم يكن المدعي يمتلكها فعلاً. فلدى جدي صدّام حسين القدرة على اكتشاف الكذب والخداع في الشخص الذي أمامه بشكل كبير واستثنائي، بل وحتى على مستوى البلاد. ألا يفكرون كيف فشلت أكثر من ثلاثين دولة في اختراق نظامه الأمني؟ حتى إن والدي نفسه اكتسب هذا الحس العالي أمنياً بمخالطته الطويلة لجدي..

يُذكَر من قصص حسه الأمني العالي أنه وعمي «صدّام كامل» كانا عند ذهابهما إليه يقلبان رتبهما العسكرية خوفاً من أن يعرفا من الأقمار الصناعية الغربية فيتعرض جدي للخطر..

جدي معروف بحسه الأمني العالي، واحتياطاته الكبيرة التي أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قضية استقباله الشخصيات المهمة، ضيوف العراق. حيث كان السائق الأول الذي يعرف جزءاً من الطريق يذهب إلى الضيف، ويقود به عكس السير أيضاً إلى حد نقطة معينة، ثم يقوم بالتبديل مع السائق الثاني الذي كان بدوره يعرف جزءاً من الطريق، ثم يتم التبديل مع سائق ثالث؛ وهو الوحيد الذي يعرف المكان. بالإضافة إلى تغيير مكان نومه يومياً.. لم يكن «يشبع» من نومه لكي ينام العراقيون باطمئنان..

وقد قال لنا جدي نفسه ذات يوم إنه ينام أربع ساعات يومياً فقط.. ثم يبدأ يومه باستقبال المواطنين عند الساعة الخامسة صباحاً لعرض مطالبهم عليه.. وهي الممارسة التي كانت تسمى «شكاوى المواطنين»..

أخذ الكثيرون منّا الحس الأمني من جدي. وكنا حتى ونحن صغار نتجنب الاستخدام المفرط للهواتف، ونكتفي بالقليل، ونستخدم الهاتف الداخلي الخاص.. كما كنا نستخدم الكثير من الشيفرات في الحديث، ويندر أن نستخدم جملة عادية أثناء الحديث.. تماماً مثل أبي الذي بدأ حسه الأمني بالتشكل منذ صغره..

فقد أخذ جدي والدي وعمي «صدام» لحمايته وهما في سن صغيرة؛ وهذا الأمر هو الذي لم يسمح لوالدي حسين كامل باستكمال دراسته.. فهو لم يذهب

لوقت كافٍ للعوجة أصلاً لزيارة أهله لأنه كان مرتبطاً بجدي طوال الوقت أو أغلبه..
عمل والدي في بداياته كمرافق لجدي، كما كان يرافق جدتي ساجدة في جميع رحلاتها إلى الخارج في السبعينيات والثمانينيات.
ولم يكن جدي صدام حسين يعطي الصلاحيات دفعة واحدة، بل تدريجياً.
وكلما أثبت والدي كفاءة في مجال أعطاه جدي المزيد من الصلاحيات..
يُعرَف والدي بأنه أكثر من عمل مع صدام حسين جرأة، بالإضافة إلى عدد آخر من الرموز العراقية. وقد كان ينأى بنفسه عن الملذات والسفاسف. فرغم أنه عمل مع جدي وهو في عنفوان الشباب، إلا أنه لم يُعرَف عنه حبه للسهر أو الشرب، ولم تكن لديه علاقات نسائية من أي نوع.. بل كرّس شبابه ووقته كله للبناء وإعادة الإعمار..
وقد كان فعلاً يحب العمل ويعشقه، ويؤمن بقدرات العراقي، ويكرر أن العراقي يستطيع إنجاز كل شيء لو أتيحت له الفرصة بالشكل الملائم..
وكما ذكرت، حين زوّجه جدي من ابنته الكبرى رغد، فهذا يعني بلا شك أنه توسّم فيه صفات كثيرة.. فقد رأى فيه رجولة ووفاء يختلفان عن البقية؛ رغم وجود من هو أقرب له بالنسب منه ومن عمي صدّام كامل.
ورغم وجود الكثير من الكفاءات، كان أحد أكبر الأخطاء التي وقعت وأدت إلى ما آل إليه العراق في ما بعد، هو إعطاء بعض المهام وإيكالها إلى رجال ليسوا لها بكفء..
كان والدي متخصصاً في إيجاد البدائل.. وقام بترميم برج صدّام الشهير في بغداد وإضافة طوابق إليه.. والذي كان في حقيقته رسالة إلى كل قوى الشر التي حاولت كسر إرادة العراقيين في الحروب المختلفة، بينما استغرق حكام العراق الجدد العملاء أكثر من عشرة أعوام لإجراء صيانة له فقط وإعادة افتتاحه...!
أصبحت لدى التصنيع العسكري شعبية واسعة عند من يتعامل معه.
وكان الناس يقولون لي حتى بعد مقتله، وخاصة من يعمل منهم في التصنيع العسكري: «رحم الله أيام والدك أبو الخير أبو علي. كان لا يبخل على

تطوير التصنيع العسكري بأي أموال يحتاجها التصنيع من أجل الإنجاز والتميز..».

كان من المعروف في عراق صدّام حسين أن من يعمل لدى أو مع التصنيع العسكري فهو يحصل على امتيازات كثيرة، ولكنه بالمقابل سيبذل الكثير من الجهد والوقت في العمل.. كان بعض العاملين مع أبي يقولون لي إنهم لم يكونوا يعرفون طعم النوم حين يعملون مع والدي. ، ويحصل من ينجز على التشجيع والمكافأة والتقدير، كما يعاقب المقصر والمسيء

حين تكون في السلطة فأنت غير مخير دائماً في نوعية الشخصيات التي عليك التعامل معها..

وقد ذكرت لي والدتي أن بعض الحرج كان يصيبها لأن «حسين» لم يكن يرضخ لقرارات جدي بشكل مباشر مثل الآخرين، بل كان كثيراً ما يناقشه فيها، مثل قضية إعدام تجار الأعظمية الشهيرة؛ حيث قام جدي بإعدام عدد من التجار في الأعظمية بتهمة التلاعب بأسعار المواد الغذائية. يومها، توسل والدي لجدي كي لا يعدمهم، وليحوّل له ملفهم ليعاقبهم بطريقته، لأنه كان يرى أن خطأهم كبير ولكنّهم لا يستحقون الإعدام. وقد رفض جدي ذلك حينها بشكل قاطع... وحوّل الملف إلى وطبان الحسن القاسي أصلاً؛ ممّا زاد الطين بلة... وقد كانت تلك الحادثة من الأخطاء الكبيرة لأنها أثرت على شعبية العائلة وتركت جرحاً لا يندمل في نفوس عوائلهم...

ربما لم يكن والدي شخصية سياسية، ولكنه مقاتل بامتياز، وذو عقلية عسكرية فذة.

نعم، كانت لوالدي خلافات مع طارق عزيز رحمه الله على سبيل المثال، والذي ساهم نوعاً ما في أن تكبر الأزمة لا أن تنتهي. ولكن، لم نكن نتوقع أن تؤول الأمور لما أصبحت عليه..

ولا بد هنا أن نذكر بشجاعة أن سياسة «الولاء قبل الذكاء» كانت سياسة خاطئة، بل من أكبر الأخطاء التي ساهمت في تدمير العراق وضع أناس غير كفوئين أحياناً في أماكن حساسة..

في العراق هناك دائماً قيادات ذكية وأكثر كفاءة، وأشخاص لو أخذوا أماكنهم الصحيحة لتغيرت الصورة. ولكن حذر جدي ودهاءه الأمني كانا يدفعانه لوضع الأقارب في الدائرة القريبة والحلقة الضيقة، بل وحتى في بعض المناصب الوزارية؛ حتى لو كانت كفاءتهم قليلة.. اليوم ونحن نفهم ونسأل ونقرأ، ها نحن نقول بشجاعة إن الكثير من ضباط الجيش العراقي كان من الممكن الاستفادة من خبراتهم بشكل أكبر.. وكان من الممكن أن تتغير الصورة.. ولكنه قدر الله.. الذي إذا جاء لايؤخر..

البطانة الفاسدة كان لها دور في كل ما حصل. فقد كان خالي عدي يعتمد على أشخاص معينين، منهم الصالح ومنهم الطالح، بينما كان خالي قصي يعتمد على أجهزة الأمن الخاصة في الحصول على المعلومات والتوثق منها. وبينما كان خالي عدي جريئاً وذكياً وشجاعاً، فقد كان قليل الصبر ولا يتأنّى كثيراً قبل القيام برد فعل معين. فيما كان خالي قصي صبوراً ويزن الأمور، ولكنه أقل جرأة من خالي عدي، وكان دبلوماسيا جداً ويقول: «إذا لم نضحك مع من ينتقدنا فلن نضحك أبداً..».

بعد لقاء والدي برئيس المخابرات صبيحة العيد، أصبح والدي عصبياً جداً، واستجاب لاتصالات التقارب مع العراق، وكره ما عرفه عن مخططات التقسيم، وكره أن يشعره البعض بأنه محاصر لغرض إملاءاتهم عليه؛ نظراً إلى كونه غير قادر على العودة إلى بغداد..

ولذلك، وكنوع من التحدي من طرفه، بدأ اتصالاته مع نوري الويس الذي كان سفير العراق في الأردن آنذاك، وكان يتحرك وفقاً لتوجيهات بغداد، وأدرك والدي ذلك... أي أنه يؤدي واجبه تجاه الرئيس، ولم يكن دوره من اختياره، وقد اتصل به والدي لكي يفهم ما يسمعه لأنه لم تكن لديه مشكلة في الرجوع. وقد أقنع والدي بأنه مرحب به، وأن سحابة الصيف قد انتهت. في تلك الأيام، كان الخيار مفتوحاً، فالوالد كان مترددا ما بين العودة إلى بغداد والانتقال إلى الإمارات. كما كانت ألمانيا خياراً مطروحاً للهجرة، ولكي أذهب مع والدي إليها من أجل التعالج من نوبات الربو.. كنت أنتظر ذهابي للعلاج، وكنت أسأل والدي عن موعد ذهابنا، وكان يرد علي بأن الثلج هناك أسود.. ويقصد أنه شديد البرودة.. وذات ليلة، دخل علينا والدي وهو يحمل على وجهه تعبيراً لا

يمكنني فهمه، وقال عبارة واحدة ولكن بعصبية: «جهزوا جنطكم.. راح نرجع لبغداد..».

لم تكن الأرض قادرة على استيعاب حجم فرحتنا التي لم يفسدها سوى الطريقة العصبية التي أخبرنا بها والدي بالخبر.. بدأت بوضع حاجياتي وأغراضي في حقائب عديدة.. كانت الحقائب كثيرة، وكانت المدبرة تاضي تمنعني من وضع كل شيء، وتخبرني بما هو مسموح أخذه وما هو زائد عن الحاجة..

وحين يقرر والدي شيئاً فإنه لا ينتظر.. تم اتخاذ قرار بالمغادرة في اليوم نفسه.. وفتحت أبواب القصر خلال ساعات..

ركبنا وغادرنا في سيارات المرسيدس نفسها التي خرجنا بها من بغداد، ولكنها الآن تحمل أرقاماً أردنية.. كان خروجنا من الأردن سريعاً وغير منظم.. وعدنا من الطريق نفسه. كان والدي يضع رشاشاً أسفل قدميه..

وصلنا إلى الحدود العراقية ليلاً، وقالت أمي لأبي: «ليتنا أحضرنا هدايا معينة لأهلي..» ولكن، لم يكن والدي في مزاج يسمح له بالمناقشة، ولم يبد وكأنه ذاهب إلى عدو له، ولم يبدُ أيضاً أنه رجل بينه وبين أهله غضب ثم عاد.. كان وجهه وجه رجل ذاهب إلى مقتله..

وقد قال عزالدين المجيد لوالدي «من ترجع تنذبح أبوعلي». وكان عزالدين ايضا من اللذين خرجوا من بغداد والذهاب الى الاردن فرد والدي عليه وكأنه موقن ما سوف يحدث: «صار لي سبع شهور هنا، أنذبح ببلدي وبين أهلي أشرفلي»..

لم أفهم عندها عن أي ذبح كان الحديث! ولكن، «إذا حان القضاء.. ضاق الفضاء!».

كان والدي مؤمناً بأننا ووالدتينا ليس علينا أي شيء، ولن يحدث لنا شيء. ولكن، يبدو أنه كان موقناً بنسبة ٩٠٪ بأنه سيقتل.. كان يعلم أنه سيقتل.. ولكن خطأ والدي في حساباته هذه المرة...

كان أبي لا يحسن المكر، ولهذا بالمقابل لم يكن يتوقع المكر من أحد؛ وخاصة من المقربين منه. هكذا هي الدنيا، أنت لا يمكنك تصوّر ما لا تملكه.. ولا فهمه..

دائماً الدروس القاسية هي التي تعلم الناس.. ورغم أن والدي كان مقاتلاً صنديداً، وخاض عشرات المعارك في حروب مختلفة.. إلا أن المكر صنعة أخرى... لم يكن يتقنها..

أجرى والدي مكالمة هاتفية مع خالي عدي الذي كان ودوداً جداً، وقال لوالدي ولأمي: «أنتم عندي»، أي أنهما في حماه، فسحبت والدتي الهاتف من يد والدي وسألت خالي «عدي»: «أكيد يا عدي؟».. فقال لها: «إنتو بشاربي».. فاطمأنت أمي جداً لكلمة خالي عدي.. واطمأن والدي..... تقبل عمّي صدام كامل الموضوع على مضض..

وبالمقابل، لم يوافق عمي صدّام كامل أبي أبداً على اطمئنانه.. ولكن والدي لم يرض بأن يبقى في الأردن، وقال له أثناء التباحث على العودة: «جئنا معاً ونعود معاً». ورفض عمي صدّام كامل ذلك، فبكت خالتي رنا بشدة، وطلبت من ابنتها نبع أن تقنع والدها بالعودة. كان عمي صدّام كامل يحب ابنته نبع جداً، ودخلت عليه وهو يرتدي لبس النوم في أحد الأيام وأنا معها، وكان يرتدي وشاحاً وهو مريض ومحموم.. وقالت له: «بابا...» انحنى عليها وهو يقبلها ليسمع طلبها فأردفت: «.. اللّه يخليك خلينا نرجع!».

ولا أنسى حتى اليوم تلك النظرة التي نظر بها إليها.. وكأنه يقول: «قتلتموني..»!!

ومن الحب ما قتل!

.. كان عمي صدّام متأكداً من أن عاقبة الأمر لن تكون سليمة.. بالإضافة إلى أنه كان في أيامنا الأخيرة في الأردن مريضا بشدة.. كما أنه ربى لحية غليظة، ولم يحد شاربيه.. كانت صورته ملائكية في تلك الأيام.. نقول في العراق كان شكله «ابن آخره»، أي أن علامات الموت قد ظهرت عليه.. نزل وزنه حوالي عشرة كيلوغرامات؛ بسبب توقفه عن شرب الشاي المحلى بالسّكر رغم ولعه به..

وصلنا إلى داخل العراق وقد أخذ منا التعب حصته، وصلنا جائعين، وعطشين، علينا وعثاء السفر، نخشى أن نطلب من والدي حتى استخدام الحمام لفرط عصبيته. تم إدخالنا إلى بناء بسيط، ووضع النساء والأطفال في غرفة. رأينا من الزجاج والدي وعمي يقفان في الخارج. جاء خالي عدي وسلم

بشكل بارد جدا على والدي وعمي، ثم دخل إلى حيث نحن... هرعنا إليه جميعا، وكنا مشتاقين له جداً.. وبحضوره بدأت معالم العراق تظهر لنا تدريجياً بعد فراق واشتياق استمر سبعة أشهر..

كان هادئاً معنا ومتزناً، وقال لنا إنه سيوصلنا بنفسه إلى المنزل. وهنا اطمأنت أمي بشكل كبير. كان مع خالي شخص آخر..

الطريق إلى القصر الجمهوري كان معروفاً للجميع... لذلك حين تغير الطريق قال والدي: «أها... بدينا!!».

أوقف والدي السيارة.. وكذلك عمي صدّام كامل أوقف سيارته، وأوقف خالي عدي سيارته التي كانت تتقدمنا مع مرافقه.. توتر الجو.. توقفت السيارتان بجوار بعضهما.. وقال خالي عدي لوالدي: «لم أشأ إزعاجكم في البداية.. لقد تمت مصادرة منزلكم حين غادرتم.. ولهذا سآخذكم إلى منزل آخر مؤقت»..

سكت والدي، بينما نظر إليه عمي صدام كامل نظرة: «ألم أقل لك؟!»

بدا على عمي صدام هدوء غريب؛ وكأنه واثق مما سيحدث، بينما كان والدي لا يزال بين بين. وصلنا إلى بيت تملكه المخابرات من طابقين. كان صغيراً، ومُهيئاً بشكل مناسب. كنا سعداء جداً، ونسأل باستمرار: «متى سنرى جدتي ساجدة؟»... «متى سنرى بابا صدّام؟»... قامت تاضي بفرش الملاءات لنا على الأرض. كان البيت بارداً.. وسمعني والدي أسعل فعرف أن نوبة الربو قد عادت إلي... فقام بما يقوم به دائماً... أحضر جهاز الربو، وقام بفتح الكبسولتين المخصصتين فيه.. وبقي حاجباه معقودين طوال اليوم..

في اليوم التالي، جاءت جدتي صفية، وكان هناك عدد من أقارب والدي ممن قدموا علينا للسلام أو الاطمئنان. بينما لم يأت أحد من خاليَّ أو من جهتهما.. كان البيت مُقبِضاً ويدفع إلى التشاؤم.. ثم جاء خالي عدي وطلب منا ألا نطبخ لأنه سيحضر الطعام للفطور والغداء.. وطلب منا ألا نخرج من المنزل حتى تهدأ الأمور.. وبالفعل، وصلت الأطعمة، ولكنها لم تكن معدة في مطبخ خالي عدي، بل كانت معبأة في علب ألمنيوم للاستخدام المؤقت وكانت باردة نوعاً ما وبلا طعم..

بعدها بساعات، جاءت أوامر جدي لأبي بكتابة تقرير مفصل عن كل الذين قابلوه في الأردن، وعن أسئلتهم ورغباتهم، وما يحيكونه للعراق من مؤامرات.

طار والدي فرحاً بهذا التكليف.. وتغيرت نفسيته فوراً.. وانعزل عما حوله تماماً.. وأخذ يسرد لوالدتي وهي تكتب..
في هذه الساعات البسيطة، بدأت وسائل الإعلام العالمية تكتب عما أسمته: «أكبر لعبة مخابراتية في التاريخ»، وتلمّح إلى أن كل ما جرى كان لعبة مخابراتية من صدّام حسين لكشف الأعداء في الخارج.. ولم يكن الأمر كذلك.. فجدي بطبيعته الأخلاقية لا يقوم بهذا النوع من المؤامرات والخطط.. جدي يفعل ما يقوله ولو كلفه ذلك حياته، وهذا هو الذي تميز به عن كل شخص آخر..
قد لا تخدم هذه الأخلاقيات صاحبها، وخاصة عند فترات الحروب. ولكنها حتماً تليق بشخصية عظيمة وخالدة مثل شخصية جدي صدّام حسين، صاحب المبادئ والآراء التي لا يتخلى عنها أبداً.. شخصياً، كنت أعتقد أن الناس سيفهمون طبيعة جدي وحقيقته بعد مائة عام ربما، ولكن اللّه شاء أن يفهم الناس الكثير من الحقائق أثناء المحكمة، وكل شيء بعد دقائق من وفاته..
بالعودة إلى وكالات الأنباء العالمية وتعليقها على عودتنا، أضاف أحد التقارير العالمية ملاحظة ذكية.. بأن كل هذه التحليلات عن اللعبة المخابراتية يعتبر صحيحاً ما لم نسمع عن اغتيال حسين كامل في الأيام القليلة القادمة، أو وفاته عرضاً..
اعتبر والدي طلب جدي التقارير فرصة ذهبية.. وبدأت والدتي تكتب ولساعات طويلة ما يسرده عليها والدي من تفاصيل.
يوضع الغداء والعشاء ويطلب مني الذهاب إلى والدي، وأن أطلب منه أن يأتي للطعام... أدخل عليه وهو منهمك في تلقين التفاصيل لوالدتي.. لم يكن ينظر إلي، بل كان في عالم منفصل، وفي عينيه أمل واضح.. نظرة لم أرَها في عينيه لسبعة أشهر مضت.. كان يلقن أمي وهي تكتب وتكتب وتكتب..
أخبره بجهوزية العشاء أو الغداء.. لا يرد ويكتفي بالقول: «أنا أكتب لجدو..».
في المساء، جاءت جدتي ساجدة مع حرسها. وبدا من الواضح أنها غاضبة ومستاءة جداً، لم تتكلم ولم تسلم. قال لها والدي: «شلونج عمتي؟».
فجاوبته بهمهمة: «هلا هلا» دون النظر إليه. قبلتها عمتي إلهام.. كان من

الواضح أنها لا تحتمل والدي ولا عمي ولا عماتي.. ولا وجودهم.. قالت إنها ترغب بأخذ الأطفال لكي يسلموا على جدهم..
فلم يعترض والدي ولا عمي، وخرجنا بملابس العيد التي جئنا بها من الأردن.. ولم ننظر إلى الخلف..

* * *

خرجنا وركبنا في سيارة لاند كروزر خاصة بحماية جدتي ساجدة. ركب جميع الأطفال في الدبة/ الصندوق التي تسميها جدتي «خانة الشواذي» أي علبة القردة.. ولكنها لم تذكر المصطلح وهي تضحك كعادتها هذه المرة، بل ولم تتبادل أي كلمة مع والدتي وخالتي، وهي المرأة قليلة الكلام أصلاً.. عاتبتهما بكلمات سريعة لا أذكرها.. وطلبت منهما أن تعتذرا من والدهما بشدة لأنهما قد زعلتاه بشكل كبير..
وصلنا إلى القصر الجمهوري، وكانت والدتي وخالتي رنا مطمئنتين جدا.. زعل حسين.. عاد حسين.. نقطة.. انتهت القصة.. هكذا كانتا تريان الأمور..
جلس الكل في غرفة جدتي ساجدة.
وفي المكان الذي نعرفه جيداً، رأينا جدي صدّام حسين. قبلناه ولكنه قبلنا واحتضننا بطريقة آلية ومن دون أن يتكلم.. ثم ركضنا باتجاه جناح جدتي ساجدة..
وقد سمعت أمي تكرر على جدي أكثر من مرة: «بس اسمع منه يا أبي أرجوك.. بس اسمع منه!!»..
طلبوا مني أمراً ما لكي أطلبه من المطبخ وقمت بإجراء المكالمة..
في اليوم التالي، جاء خالي قصي لزيارتنا، وكان أيضاً منزعجاً وبارداً وجافاً مثل البقية... ويبدو أننا قد اعتدنا على هذا النمط من الاستقبالات، فلم نتأثر باستقبال خالي قصي البارد كثيراً..

* * *

في اليوم الثالث، استيقظنا على أصوات بكاء وعويل عالية في القصر. فزعنا وركضنا إلى الصالة لنجد والدتي وخالتي رنا تبكيان بطريقة هستيرية...
ركضت إلى أمي واحتضنتها، فقالت لي من بين دموعها: «يريدون يطلقون

أمكم من أبوكم». كان خالي قصي يقف غير بعيد، وقد عقد يديه خلف ظهره وبدا عصبياً جداً..
وكانت أمي وخالتي رنا تبكيان وهما تحاولان إقناعه بأمر ما.. وكانتا تقولان له: «حسين وصدّام ما يطلقونا.. مستحيل أن نصدق ذلك!!!».
في العادة، حين نكون نحن الصغار شاهدين على أية مواقف أو خلافات عائلية، كان يتم طردنا من الغرفة التي يتم بها الحوار فوراً ولكن، هذه المرة لم يتم طردنا، بل كانت أمي تجيب عن أسئلتنا؛ وهو الأمر الذي جعلنا ندرك حجم المصيبة وهولها عليها وعلى شقيقتها..
غير خالي قصي من طرحه وقال لهما: «وافقا على طلب الطلاق.. إلى أن يهدأ والدي.. ومن ثم ستعودان لزوجيكما..!».
قالت أمي: «لا أوافق على الطلاق إلا إذا سمعتها من فم حسين شخصياً»...
كانت أمي تعرف أن أبي يموت قبل أن يجبره أحد على التلفظ بما لا يرغب بقوله..
وبعد إلحاح شديد، تم السماح لأمي وخالتي رنا بالاتصال بوالدي وعمي صدام كامل في البيت الذي بقيا فيه. وقد قال والدي لأمي: «رغد.. إنت تقبلين تتطلقين!؟» فقالت والدتي: «لا والله ما أقبل». وبالمثل سألت خالتي رنا زوجها عمي «صدّام كامل».. وكان جوابه بالمثل..
عندها، اتضحت الصورة، وأن الأربعة مرفوض لديهم موضوع الطلاق بتاتاً..
ما زاد من تعقيد الأمر لدى من كانوا يرغبون بالتصفية السريعة لوالدي..
أمر جدي بإحضار قاضي القضاة للبدء بإجراءات الطلاق، وقد أخبر القاضي جدي أنه شرعاً وقانوناً لا يستطيع الموافقة على الطلاق قبل سماعه بنفسه طلب الطلاق من المعنيين بالأمر؛ أي والدتي وخالتي..
وهنا أستطيع أن أكرر أيضا وأذكر أن العراق كان دولة قانون. فحتى صدّام حسين نفسه لم يستطع إجبار قاضي القضاة على عدم الالتزام بالقانون..
وجاءت أمي وخالتي ومثلتا أمام القاضي فسألها: «هل تريدين الطلاق فعلاً؟».
فأجابته بنبرة تحدّ وعتب: «والله ما أعرف، اسأل والدي!».
أبلغ القاضي جدي بعدم قدرته على إتمام إجراءات الطلاق لعدم موافقه والدتي.. وأعطوا والدتي ورقة الطلاق لتوقعها فغيرت توقيعها في ذلك اليوم كدليل على عدم الموافقة..

وفي الوقت نفسه، وعلى الطرف الآخر، تم إرسال احد الاقرباء وهو ابن عم والدي، وقد أمر والدي وعمي بتطليق زوجتيهما، وكان معه مرافق من أهل الدور..
عرفنا أن ابن عم والدي هناك، ولكننا لم نعرف بما دار بينه وبين والدي بالتفصيل تماماً..
وبعد فترة، عاد ابن عم والدي إلى القصر الجمهوري، وكان يقف بجوار النافورة المقامة على موزاييك أزرق صغير حيث اعتدت أن أجلس للتأمل أو قضاء الوقت. رأيته فذهبت إليه وسألته: «عمو ، هل رأيت والدي؟». فقال لي: «أرسلي لي أحداً.. لدي رسالة لنقلها». تجاهل سؤالي فكررته عليه: «هل رأيت والدي..؟».
لم يجبني فأكملت: «إذا رأيته فقل له إن حرير مشتاقة إليه».
كان وجهه مهموماً جداً.. ولم يجبني مرة أخرى.. استمررت بالإلحاح عليه: «هل ستخبره بذلك.. متى سيأتي؟».. فقال لي وقد نفد صبره: «ماشي.. ماشي..».
اليوم حين أسترجع ملامحه أتأكد من أنه كان يعرف بالمذبحة التي ستحصل... كان يعلم بأن الرسالة لن تصل..!
متعلقة بآخر قشة من الأمل قلت له: «نسيت جهاز الريو في المنزل عند والدي... أرجوك قل له أن يحضره معه...!».
ذهب إلى والدي، ونسي الجهاز، ونسي رسالتي. فقد كانت لديه رسالة أهم: «يجب عليكم تطليق النساء وإلا...».
في اليوم نفسه الذي جاءت به جدتي لأخذنا الى جدي صدام قرر عمي ووالدي ترك المنزل المؤقت في الجادرية؛ وهو ذلك البيت المشؤوم الذي كانت رائحة الموت تفوح منه..
طُلِب من والدي وعمي القدوم إلى منزل آخر لعقد اجتماع عند الثالثة فجراً.. كان اجتماعاً عائلياً هادئاً، وإن كانت علامات التوتر غير خافية. ولكن سبب الهدوء كان يعود إلى ما أعلن رسمياً والذي يمثل الجانب الحكومي عن العفو الذي أصدره جدي صدّام حسين عن والدي وعمي في اليوم نفسه. وكان جدي صدّام حسين قد جمع البيجات كلهم، وقال لهم إنه عفا عن حسين كامل.. ولكنه أضاف كلمة غيرت كل شيء..

«لقد عفوت عن حسين كامل... قانونياً.اما عشائريا يجب غسل هذا (العار)
والتقط عم والدي ، ورد فوراً: «سيدي الرئيس،
إن كنت أنت قد عفوت.. فنحن كعشيرة لم نعفو..».
وكان يقصد العار بالعُرف العشائري... فصمت جدي ولم يجب.. وقام احد الاقارب يده وقال : «هم أزواج بناتك وآباء أحفادك فأعفو عنهم ..» فأجابه جدي صدام : «نحن لا نترك حقنا كعشيرة ولا نعفو»، واضاف خالي عدي: "الاصبع الخايس من الإيد نكصه" بمثابة أن العضو المعطل في الجسد يتم استئصاله، وواصل بأننا نغسل عارنا بأيدينا،
ومن ذلك الاجتماع، وتحت شعار «عارنا نغسلوا بإيدنا»، وهي كلمة الحق التي أريد بها باطل، وقد اتخذ القرار على جميع آل بو غفور الذين صادقوا عليه، إلا جدي كامل الذي قالها بوضوح: «إذا قطعتموني إرباً لا أتبرأ من أبنائي.. كيف لأبٍ أن يتبرأ من أبنائه!!»..
تم تطويق منطقة السيدية بالكامل من قبل قوات الجيش منذ منتصف الليل..وكانت مهمة الجيش هي فقط تطويق المنطقه بكاملها بدون تدخل عسكري
ثم تم تطويق المنطقة التي يقع فيها المنزل عشائرياً.. بهدوء قبيل الفجر بساعات..
بدأ إطلاق النار عند الثالثة فجراً..
فقط مساء اليوم الذي يسبقه طلب من والدته.. جدتي صفية أن تذهب لتفزع على أعمامه
ولكنه وبالمثل كان قد خزّن الكثير من الأسلحة في المنزل خوفاً مما قد يقع..
ولكنها كانت في الأغلب غدارات ومسدسات خفيفة وليست أسلحة ثقيلة..
فتحت النار بقوة من الجهتين..
راحت النسوة يصرخن.. ويستغثن..
وقُتِل الرضيع..
وقاتل حسين قتال الأبطال..
قُتِل الأطفال جميعهم..
قُتِلت المريتان تاضي وشقيقتها..

أرهق عمي صدام المهاجمين، وعرقل صعودهم على السطح قبل أن يردوه قتيلاً.. قُتِل عمي صدّام... قُتِل عمي صدام كامل وهو يصرخ:
وقبل ان يقتل عمي صدام قال(هل هذا هو عفو صدتم حسين)...
قُتِل جدي كامل
قُتِل عمي حكيم.. ملاكنا الحارس.. وصديقنا..
استمر أبي يقاتل..
من داخل المنزل
اثنتا عشرة ساعة بقي والدي يقاتل فيها عشيرة كاملة
.. يراقبه من بعيد في كرفان وهو يقاتل خالي عدي وخالي قصي..
اثنتا عشرة ساعة قتل خلالها اثنان من ابناء عم والدي الذين كانوا من المهاجمين لقتل والدي..
وقفز والدي الى المنزل الجاور وفي باحة المنزل ولكثرة الاصابات
أصبح جسده منخلاً لكثرة ما أصابته الرصاصات..
كان لا بد أن يسقط في النهاية.. ولكنه سقط مقاتلاً وبطلاً..
كانت آخر كلماته لمقاتليه، وبعد أن نفدت ذخيرته بالكامل: «ها أنذا..».
ووسط ذهول الجميع..
لم يستسلم كما أرادوا... ومات بطلاً كما عاش.. سحبت جثته ولوحظ عليها أن الكثير من الخشب قد تم لفه على أطرافها المختلفة؛ وكأن صاحبها قد رمم جسده لكي يبقى يقاتل..
اما نحن القصر الجمهوري كنا متحلقين ويملأنا الأمل.. لم نكن نعرف بالجزرة التي تجرى في مكان آخر من بغداد..
فجأة، جاء السفرجي وهو يحمل الهاتف لخالتي حلا التي كانت حاملاً آنذاك..
ردت على الاتصال.. ثم توعكت في الحال.. وكاد يغشى عليها.. وبعد أن استجمعت قواها غادرت خالتي حلا إلى مستشفى ابن سينا.. وحين استفسرت من السفرجي عن هوية المتصل.. أبلغنا أنه زوجها جمال..
وأنه قد أدخل المستشفى لسبب ما..

استغربت الخبر، ولكن معرفة الجواب لم تطل، فبعد سويعات.. سمعت نحيب والدتي وخالتي رنا وهما تكرران كلمة واحدة: ليش!

في تلك الأثناء، كنت في طريقي من المطبخ إلى داخل المنزل، وحين سمعت تلك الصرخات اعتقدت للوهلة الأولى أن الموضوع يتعلق بجمال زوج الخالة حلا، وأنه قد أصابه مكروه..

ولكن الأمر لم يكن كذلك. إذ رأيت والدتي تجري في الممر، ووراءها خالتي رنا، ووراءهما جدتي ساجدة والعاملات وعدد من العمال.. ثم التفتت والدتي إلينا وقالت لنا بهستيرية: «لقد قتلوا آباءكم..!!».

بكينا على بكائهما.. ثم مددوا والدتي وأختي.. بعد أن أصيبتا بانهيار تام.. وبقيتا تعيشان على المغذيات..

وكانت جدتي ساجدة تحلف ببساطتها المعهودة: «والله محد راد يقتلهم.. لقد ذهبوا للتفاهم ولكن حسين وصدّام هم من فتحوا النار».

ولكن أحداً لم يصدقها آنذاك!

في تلك اللحظات، كانت جدتي أم والدي صفية تركض من منزل إلى منزل تطلب الفزعة.

.. لتعود إلى دائرة النار، وترى آثار الحرب، وتصرخ في المحاصرين فقط ليسمحوا لها بالدخول لإخراج النساء والأطفال على الأقل..

زارنا جدي صدّام حسين في اليوم السابع للمقتل مساء.. ولم أحضر اللقاء الذي دار بينهم.. ولكنني وجدت جدي صدّام حسين مولياً ظهره لهما.. ورأيتُ أن عينيه كانتا مغرورقتين بالدموع التي يحاول إخفاءها.. ويبدو أنه كان يستعد للرحيل.. كان عصبياً جداً وحزيناً في الوقت ذاته.. لم يتفوه بكلمة واحدة..

منذ تلك الحادثة.. غابت قصص جدي... غابت ضحكته القوية.. وأصبحت نظراته حزينة ومعاتبة لفترة طويلة جداً.. كان لسان حاله يقول.. لقد أجبرت على ما فعلته..

لم تكن يده ولكنها كانت يده..

حدث شرخ في العائلة الصغيرة يشبه الشرخ الذي حدث في العائلة الكبيرة..

كانت خالتي حلا غاضبة لغضب جدي، وكان رد فعلها قاسياً. فقد كان زوجها مشاركاً في عملية الثأر العشائري، لذا لم تكن متعاطفة؛ ما جعل العلاقة بينها وبين شقيقتيها تفتر لسنوات قادمة..
كما حدث شرخ في العائلة والعشيرة

بعد مدة، استعجلت والدتي بالانتقال إلى قصرنا الذي لم يكن مكتملاً في منطقة الجادرية، وتم تنظيفه وإعداده على عجل، ونُقِل بعض أثاثنا إليه.. وكان ذلك قرار والدتي لكي تبتعد عن محيط العائلة.. كما رفضت عرض جدتي ساجدة بأن ننتقل للإقامة لديها.. رفضت الإقامة بشكل دائم في منزل جدي في الجادرية، واختارت أن تكمل في منزلها مع أولادها، حيث أقامت معنا هناك حوالي ٤٠ يوماً.. استدعت والدتي جزءاً من فريقنا الخدمي القديم.. وكانت والدتي تشرف بنفسها على تنظيف كل أجزاء البيت والأثاث المنقول واللوحات والتحف وغيرها..
ومن مظاهر تغير التعامل معنا..
كنا قد اعتدنا على أن يقوم رجال الاستعلامات بإيصال ما يصل لنا إلى أي مكان نرغب فيه.. بينما حين انتقلنا إلى قصر الجادرية.. كان رجال الاستعلامات يلقون أثاثنا أمام البوابة ويذهبون.. واحد فقط من رجال الاستعلامات، وعلى مسؤوليته، كان يقوم بإحضار بعض العمال من عمال الصيانة، ويساعدنا في إيصال الأغراض إلى داخل المنزل، ويقف مع والدتي للإشراف على التنظيف لحد الثانية عشرة ليلاً أحياناً..
كان اسمه روكان، وبقينا نشعر بالسعادة حين تكون المناوبة له.. أحببناه وكنا نحس بالراحة حين يجيب على الاتصال، وليس أي شخص آخر من الاستعلامات.. بقي تعامل الاستعلامات معنا سيئاً؛ حتى كبرنا بعد سنوات، فتغير تعاملهم معنا وصاروا يتعاطفون معنا أكثر..
كانت بعض الجهات الأمنية تكتب «التقارير» في تلك الفترة، وكان على رجال الاستعلامات أن يكتبوا تقارير دورية عنا. وكانوا غالباً ما يكتبونها بلؤم يسبب لنا الكثير من المشاكل.. أما روكان فكان يكتبها بطريقة مهنية على شكل نقاط، ولم تسبب لنا أية مشاكل..

لبست والدتي وخالتي اللون الأسود.. وانتقدتا من طرف جدي في اليوم السابع عندما حضرتا جلسة عائلية بلبسهما الأسود. حضرتا مع خالي قصي وأولاده وجميعنا.. بقيت والدتي وخالتي ترتديان الأسود مع وضع شال ملون على رقبتيهما. حتى إنه وبعد مرور وقت طويل، صار خالي قصي وفي لفتة إنسانية منه يوصي لهما على ملابس سوداء من الخارج لأنه يعلم أنهما تلبسان السواد..

منعت جدتي ساجدة الأقارب والعمات والخالات من زيارة والدتي لإيقاف المشاكل الناجمة من إظهارهن الشماتة أو نقل الكلام.. وأصرت العمة سهام على زيارة أمي وخالتي بشكل مستمر دون انقطاع؛ رغم منعها من قبل جدتي.. حتى إن العمة آمال الأكبر سناً كانت تحضر بفترات متباعدة لزيارتهما.. أما الأخريات فلم يقمن حتى بمحاولة الزيارة، واستمر الموضوع كذلك لسنين طويلة؛ لحد احتلال العراق..

كرهتُ في تلك السنوات خالي «قصي»، ولكنني كرهت خالي «عدي» بشكل أكبر لأنه هو الذي أقنعنا بالعودة ووعدنا بأننا سنكون في حمايته.. تأخرت في أداء الامتحانات، وتعرضت لخطر إعادة السنة الدراسية.. فطلبت والدتي من جدتي ساجدة الحديث إلى جدي صدّام حسين للحصول على استثناء لتقديم الامتحانات النهائية لكي لا تفوتني السنة الدراسية..

أحضروا لي جميع الكتب الدراسية لسنة كاملة.. وكنت أجلس للمذاكرة بشكل يومي في غرفة جدتي ساجدة.. ونجحت في إنهاء العام الدراسي..

كنت أراقب والدتي وأهتم بها.. وأراقب مساء إخوتي الصغار وهم نائمون، وأتأكد من أنهم يتنفسون وعلى قيد الحياة.. كانت مرحلة صعبة ومفصلية في حياتي.. الحياة التي تغيرت بفقدان من نحب.. وتُغيِّرُ من بقي ممن نحب..

رفضت والدتي بشدة بعد العام الدراسي الذي قمنا بالامتحان له دخولنا مدرسة الشبيبة لكي لا نختلط بأحد من الأقارب أو أبناء الأقارب..

كرهت جميع الأقارب الذين اشترك آباؤهم في عملية تصفية والدي.. وقد كانوا تقريباً جميع آل الغفور، في ما عدا حميد السلمان شقيق جدتي صفية.... فلم يشاركوا ولم يحصل لهم شيء حتى ننهي حجج الآخرين..

بعد سنوات، وبحكم اللقاءات العائلية الدورية والذكريات الكثيرة الجميلة، تغير الأمر تجاه خالي عدي، ولكنه لم يتغير تجاه الآخرين.. الذين لم تكفهم الحادثة بل استمروا بإظهار الحقد الناجم عن الغيرة بشكل مستمر.. ربما إحساسي المستمر بذلك لم يسمح لي بأن أغفر لهم.. ولكن، في أحيان كثيرة، علينا ألا نلتفت للوراء كي لا نسقط في الحفر التي أمامنا..

كنا نرى الحزن في نظرات خالي عدي عند اللقاءات المقتضبة، ولكنها لم تشفع له بسرعة..

اختفت العمات والخالات من حياتنا.. ولم يتعاطف معنا سوى قلة قليلة: لمى زوجة خالي قصي سابقاً، والعمة سهام شقيقة جدي صدّام حسين، والعمة هيفاء البكر زوجة ابن خال جدي عدنان خير الله وشقيق جدتي ساجدة...

هؤلاء الثلاث كن يزرننا بشكل مستمر، ويبدين تعاطفهن واستنكارهن لما حدث.. أما البقية فلا.. كانت زوجة خالي لمى تزور أمي وخالتي بشكل يومي، والعمة هيفاء بشكل شبه أسبوعي، وكانت هي التي تجعلنا نتذكر شكل العيد وطعمه، حيث إنها دائماً تكون أول الزائرين، وحريصة على أن تكون محملة بالكثير من الهدايا. ولم تكن والدتي وخالتي تُعَيِّدان.. وكذلك العمة سهام رحمها الله التي كانت تزورنا بشكل شبه شهري..

لم تضع أمي وخالتي «المكياج» طوال تلك السنوات..

وألغيت أغلب احتفالاتنا..

وكثرت الهدايا من بعض الأطراف مثل جدي وخالي قصي وخالي عدي.. فقد حاولت الأسرة القريبة جاهدة أن تتودّد بالحديث والكلام والسلام والمال..

كانت أمي ترتدي الأسود، إلا حين يأتي جدي للزيارة؛ فكانت تضع وشاحاً ملوناً على رقبتها عند قدومه..

صار جدي يأتي لزيارتنا أكثر، ويسأل عن أخبارنا. ولكن بشكل عام، لم يكن هناك أحد يفهم مصابنا..

عرفنا بعدها أنه بعد أن غادرنا أثناء زيارتنا الأولى بعد المقتل مباشرة أصابته حمى شديدة استمرّت لأسبوع.. وقد كان جدي صدام يصاب بالحمى دائماً حين يتألم في داخله.. ولم تكن أسباب الحمى جسدية، بل كانت نفسية.. وقد لزم السرير لسبعة أيام، وطالت لحيته.

هنا تغير صدّام حسين..
أصبح جدي منطوياً على نفسه بشكل كبير..
لا يستقبل إلا أصدقاءه المقربين..
يقرأ القرآن بشكل يومي ولفترات طويلة جداً..
أصبحت والدتي هي الأم والأب.. وأحياناً جدتي ساجدة كانت تملأ بعض الفراغ..
اضطرت أمي بناء على المعطيات الجديدة أن تصبح أكثر جدية وحزماً..
وبدوري، قمت بمساعدة أمي بالاهتمام بشقيقيّ بنان وصدّام الصغير.. فأبدل لهما الغيارات، وأرضعهما وأضعهما في سريريهما ومهودهما في قصر جدتي ساجدة..
علمتني والدتي أن أقرأ لوالدي الفاتحة كل يوم.. وسورة الملك.. ومن ثم سورة «يس».. كانت سورة «يس» هي الأكثر صعوبة في القراءة، وقد اتقنت قرائتها مع الوقت.. كانت مدرساتنا يعلمننا كيفية تلاوة القرآن في العطلة الصيفية، وقد طلبت منهن تعليمي كيفية قراءة سورة يس..
كنا جميعاً نقرأها كل يوم، ونهديها لروح أبي.. وعماتي.. وحتى المربيات اللواتي كنّ معه..

* * *

لم يستطع أحد أن يملأ الفراغ الذي كان يشغله والدي وعمي صدّام كامل..
بدأنا نلمس التغير في معاملة الناس لنا بحجة زعل «الريس» على والدينا، ورأينا وجهاً آخر للكثيرين... رغم أنهم بعد مرور زمن تغيرت معاملتهم لنا وأصبحوا الأقرب لنا.
تم تغيير السائق والحرس، الخاصين بنا، كما تم استقدام حرس وسائق آخرين ليسوا من الأقارب، وكان أغلبهم من تكريت وبيجي، والذين عُرفوا بإخلاصهم لنا..
هناك صنف ثالث لم يكونوا يكنون لوالدي أو لنا الحقد أو الكره، ولكن الخوف وحده هو الذي جعلهم يختفون من حياتنا؛ كي لا يقال إنهم يتعاطفون معنا..

بقي من أعمامي فقط عمي جمال على قيد الحياة... واتضح أنه تم سجنه حين غادر أبي وعمي إلى الأردن. وفي يوم المقتل، كانت له آخر زيارة لإخوته، وآخر ذكرى له معهم كانت حين أحس حينها بالبرد فأعطاه عمي صدام معطفه وعاد لبيته ليحصل على قسط من الراحة.. فكان في ذلك نجاته من حضور المذبحة..

ولكنه قتل بعدها بطريقة غريبة.. فبعد الاحتلال الأمريكي بفترة، عاد ليبيع قطعة أرض يمتلكها فقتلته المليشيات الطائفية، رغم أنه لم يكن له أي منصب سياسي.. وقد اتصلوا بزوجته لمساومتها.. وقد قال لها أحد القتلة يومها: «نحن نعرف أنه لم يكن لديه منصب سياسي، ولكننا لا ننسى أنه كان شقيق حسين كامل»..

قُتِل عمي جمال لأنه من أقارب صدّام حسين!!

* * *

استمر غضب جدي صدام حسين من ابنتيه لفترة، ولكن زعله من والدتي كان أكبر؛ لأنه كان يرى بأنها قد خيبت أمله بخروجها إلى الأردن مع زوجها.. وخاصة أنه كان متعلقاً بها.. وكان جدي يزعل من الشخص بمقدار ثقته فيه وحبه له..

ولهذا كان زعله وغضبه من والدي كبيراً ومختلفاً..

وقد قال جدي ذات يوم: «طلعت -خروج- حسين كسرت ظهري»

كثيرة هي الأمور التي ظهرت بعد وفاة والدي رحمه الله. ومنها مثلاً ما وجدته لجنة التقصي برئاسة خالي قصي للبحث والتدقيق وراء والدي بحثاً عن أخطاء. «تعاطف الناس معه كثيراً بعد مقتله وأثرت القصة على شعبية الرئيس... ووجدوا أنه كان يعيل عوائل كاملة وكثيرة عبر استئجار سيارات أجرة وباصات لهم ليشغّلوها ويعيلوا أسرهم. وحين توفي عرفنا بذلك لأن من يدفع لهم قد رحل... وبالطبع، لم تعثر اللجنة على أي أموال مخبأة أو إدانات، وتم حل اللجنة بعدها».

كان هذا هو الفصل الأصعب في مذكراتي.. الاشتباك.. القاتل والمقتول فيه من أحب..

ليس من عادتي العودة إلى الوراء، ولكنني أقول إنه لو كان هناك من قال كلمة تجمع النفوس في تلك الفتنة..

تجمع النفوس..

توحد الصفوف..

فلربما كانت سترأب الصدع الذي أصاب آل الغفور..

لم يوجد في الأسرة من قال كلمة خير في تلك الفتنة..

إن بداية الفشل في أي مشروع أو أسرة أو دولة هو انشقاق الصف.. ولهذا سماها الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالحالقة.. «فإن فساد ذات البين هي الحالقة»..

إن أحد أهم الأسباب التي دفعتني إلى الكتابة غير السهلة في هذا الموضوع الشائك..

واستعادة الذكريات المؤلمة..

هو أنني أحبهم جميعاً.. وأحب حتى أخطاءهم البشرية التي علينا جميعاً أن نتعلم منها..

لأن النفس البشرية أمّارة بالسوء..

وحين تسمح للنفس الأمارة بأن تسيطر عليك فإنك قد تؤدي إلى دمار أسر ودول، وتغيّر تاريخاً..

وأخيراً..

جميعهم شجعان... عاشوا شجعاناً وماتوا شهداء.. جميعهم أبطالي.. لم تحظ عائلة في التاريخ العربي الحديث بهذه الكوكبة من الشجعان..

الأشقياء.. مثيري الجدل.. كما حظيت به عائلتي.. أنا أفخر بهم جميعاً...

سيتساءل كثيرون.. كيف تفخرين بالقاتل والمقتول في الوقت نفسه؟ وأنا أقول:

لو أصدر جدي قراراً في ذلك الحين بعدم التعرض لوالدي من قِبَلِ أهله.. لعلم الجميع أن «صدام» يطبق القانون على البعض ولا يطبقه على آخرين.. فأي عراقي آخر لو فعل ما فعله والدي لكان جزاؤه الإعدام فوراً.. وأكثر شخص تأذى من هذا القرار هو جدي نفسه.. القرار بالسماح بقتل حسين كامل..

كان قراراً بقطع يد من جسد جدي..

لذا، ما كان سيُقرّر على أي عراقي تم إقراره على والدي... الإعدام.. ولكنه كان إعداماً يليق به.. وبماضيه.. وببطولته.. أعدم بطلاً مقاتلاً وسلاحه في يده..
أعدم على الأرض التي أحبها.. ومات فيها... ومن أجلها..
ومن أجل كل ذلك أحمد اللّه دائماً على كل ما جرى...
لا يهمني اختلاف الناس في بطولة أبي أو خيانته.. في حياته أو نهايته..
دُفِن والدي بطريقة سرية في جوف الليل.. في قبر سري.. وقد كانت تلك الحقيقة تؤلمني..
إلى أن حدث نبش القبور وانتهاك حرمة الأموات في أرض السلام بعد الاحتلال..
عندها فقط أدركت حكمة ذلك الأمر..
في تاريخ العراق، لم تُحتَرم قبور الأنبياء والصالحين والرموز.. وهي حقيقة لا تليق بنا ولا بتاريخ عراقنا...
رحمك اللّه يا أول حب في حياتي وأول أبطالي أينما كنت!

الفصل التاسع سنين اليتم: صدام والأحفاد

اختل توازني فجأة..
علمت في هذه اللحظة أنني سأسقط في البحيرة الاصطناعية لا محاله..
من المكان الذي هربتُ إليه من إزعاج بقية الأحفاد وضجيجهم..
في تلك اللحظات البسيطة بين إحساسي بفقدان التوازن وبأن السمكة تسحبني بقوة إلى البحيرة..
توقف جسدي عن السقوط فجأة.. كانت يد قوية تمسك بي..
يدٌ قوية أمسكت بلداً وأمة من السقوط ذات فترة تاريخية مفصلية.. كانت يد جدي صدّام حسين..
قال لي جدي وهو يبتسم: (ديري بالج!).

وبيده الأخرى، ساعدني في إخراج السمكة.. كانت سمكة نهرية يبلغ وزنها ما يقارب ثلاثة كيلوغرامات..
نظر إلي جدي بإعجاب وقال: «الصيد حظ!.. ولولا أنني أرى بعيني لما صدقت ذلك!».
نظرت إلى الأرض في خجل، ثم استجمعت شجاعتي وقلت له: «بابا صدّام، ممكن طلب؟ أريدك أن تأمر الحرس لمناداة إخوتي وأبناء عمي وتخبرهم بأنني أنا من اصطادها وليس أنت.. لكي يصدقوني..».
فأشار بالموافقة وهو يعيد إعداد الخيط والطعم في صنارته التي تركها جانباً لكي يساعدني.. وضحك جدي على طريقته.. وصاح ببقية الأحفاد وأراهم صيدي، وقال لهم بوضوح: «انظروا ما الذي اصطادته حرير..». وقال لي «عفية بنيتي.. بطلة».
كانت تلك أجمل شهادة حصلت عليها في حياتي..
بنيتي.. بطلة!
ذهابنا إلى نشاط الصيد مع جدي صدّام حسين كان إحدى الفعاليات والأنشطة التي بدأت تعود تدريجياً بيننا وبينه بعد غضبته من والدتي وخالتي رنا التي نتجت عن مغادرتهما مع زوجيهما إلى الأردن.. كان غالباً ما يأخذنا نحن التسعة معه «أبناء والدي وعمي» في محاولة منه لإعادة جسور الود. وفي أحيانٍ قليلة، كان أبناء خالي قصي يرافقوننا.. وحين يأخذنا معه، كنا نعرف أننا سنكون معه طوال اليوم.. كنا نبقى إلى العاشرة أو الحادية عشرة مساء ثم نعود إلى المنزل..
وفي إحدى الرحلات، كانت معنا شقيقتي بنان، ولم تكن قد بلغت السنتين. نزلنا للسباحة في البحيرة الاصطناعية، ولم تنزل بنان لأنه لا يوجد لها غيار وما زالت صغيرة.. فبدأت الطفلة بالبكاء رغبة منها في النزول للبحيرة..
وفي لحظة فطرية، نظرت إلى عيني جدي صدّام حسين وهي تبكي..
انتخته الطفلة.. ولم يكن صدّام حسين ليرد من ينتخيه أبداً.. خرج جدي من البحيرة وهو يقول: «أشو إلا انزلك وياي!» وأنزلها بلبسها وغيارها إلى البحيرة ولاعبها..
* * *

كانت الأيام الأولى بعد المقتل عصيبة جداً؛ حتى من الناحية المالية. فأملاك والدي وأمواله ما زالت مختلفة، ولا تعرف والدتي الكثير عنها.. منها ما هو متناثر في الأوراق هنا وهناك، وخاصة أن «الأموال السائلة» التي أعادها معه من الأردن تم العثور عليها في المجمدة أو «الفريزر» في المنزل الذي قتل فيه، وتمت مصادرتها كلها. لذا، كان على أمي أن تبيع جزءاً من مجوهراتها وذهبها في الفترات الأولى قبل أن تحصر إرث والدي وأملاكه.. وكانت والدتي تشتكي لي من الفوضى التي كانت عليها أموال والدي..

وكان جدي قد خصص لها بعد فترة مبلغاً معيناً، إلا أنها كانت ترفض صرفه علينا.. حتى إن خاليّ خصصا مبالغ كانا يبعثانها بين الحين والآخر، ولكنها رفضت أن تصرف منها ديناراً علينا..

وفي فترة من الفترات، لم يكن لدينا حتى ما نقيم به مأدبة مناسبة للضيوف الزائرين لنا في القصر الذي انتقلنا إليه، والذي كان والدي يبنيه في مجمع الجادرية قبل ذهابنا إلى الأردن..

بعدها، بدأت والدتي بترتيب أمورها، وإعادة مشاريع والدي وكذلك الأملاك الشخصية العائدة له بعد أن استردتها.. تغيرت الأمور بعد ذلك، كما أعادوا صرف رواتبه وإكرامياته شهرياً؛ لكن ذلك كان بعد سنة من وقوع الأحداث... وعند صدور القرار، ذهبت العاملات لإبلاغ والدتي، فنظرت إليهن بلا مبالاة، ولسان حالها يقول: «بعد ايش؟؟!»

بدأنا نكمل أثاث القصر بشكل بطيء.. استرجعنا جزءاً من أثاثنا الذي كان مصادراً ومخزناً مع أثاث خالي عدي، وقام موظفوه بإيصاله لنا. وقد قامت والدتي ببيع القطع الزائدة أو الإضافية التي لا مكان لها في القصر.. واعتمدت على نفسها في كل ذلك حتى تستطيع توفير سيولة تكفي مصاريفنا.

ولأنها كانت لا تزال ترفض طلب المال من العائلة؛ حيث لا تزال غضبى منهم.. كانت هناك زاوية عليها شرشف أثارت فضولنا أنا وشقيقي علي، فأزحناه لنرى الموجود أسفله، واكتشفنا أنها مجموعة من الإلكترونيات التي ترغب والدتي ببيعها..

* * *

بعد فترة بسيطة، كانت هناك مبالغ مالية تصل من خالي عدي وخالي قصي وجدتي ساجدة بين فترة وأخرى.. بل وحتى من جدي صدّام أحياناً.. ولكن، بدا من الواضح أنه كان لا يزال غاضباً من ابنتيه..

عطايا جدي كانت تأتي في مواعيد معينة وبشكل ثابت؛ مثل يوم ستة كانون وهو عيد الجيش، وفي الأعياد.. وبعد كل زيارة لنا من جدي، كانت هناك مبالغ مالية تصل للجميع؛ ابتداء من جدتي ووالدتي ووصولاً إلى الأحفاد وحتى العاملات في أظرف يحمل كل منها اسم صاحبه..

وفي أحيان أخرى في الأعياد، كان جدي يسلمنا إياها بنفسه.. فنتجمع ويبدأ بمناداة أسمائنا واحداً تلو الآخر بحسب العمر.. كانت المبالغ متسلسلة حسب التسلسل العمري، وكلما كبرنا في السن كان المبلغ يزداد، بالإضافة إلى أنها كانت تزداد بسبب تغير العملة..

كنا نسمي الأموال التي يمنحها جدي إياها «خرجية»..

وكانت والدتانا تقومان بمصادرة «الخرجية» أو الاحتفاظ بها من أجلنا حرصاً على ألا تبقى مبالغ نقدية كبيرة بحوزتنا ونحن لا نزال أطفالاً، ثم تصرفانها بطريقة صحيحة ولا تعلماننا بذلك..

كانت لمى زوجة خالي قصي آنذاك تأتي لزيارتنا بشكل يومي بين الساعة السابعة والثامنة مساء، وتوضح تآزرها وتعاطفها معنا دون كلام.. وحين تقوم والدتانا بانتقاد خالي عدي وقصي كانت تصمت أيضاً ولا تعلق..

أصدقاؤنا من أبناء المناضلين الآخرين استمروا بعلاقتهم بنا بناء على أن الخلاف العائلي لم يكن يعنيهم بشكل مباشر. وباختصار، بقي فقط قلة من الأصدقاء الأوفياء الذين حافظوا على علاقتهم بنا.. وأثبتت النساء في تلك الفترة أنهن يتصفن بالكثير من الشجاعة، وكما قال شكسبير: «النساء أشجع ممّا نتوهم»..

كان بيننا نحن التسعة، أي أنا وإخوتي الأربعة وأبناء عمي صدّام كامل وخالتي رنا الأربعة من جهة، وبين أبناء الذين شاركوا في جريمة قتل والدينا من جهة أخرى كثيراً ما يحدث نوع من الاشتباك اللفظي.. وحتى إن كانوا أبناء أي شخص آخر من آل الغفور، كنا نسميهم «الحقراء»، ونسأل أمي عن الذين لا نعرفهم: «أهذا حقير أم لا؟»..

أي هل هو من أسرة اشتركت في دم أبي وعمي أم لا؟
وعلى الرغم من أن خالي عدي وخالي قصي أشرفا على العملية.. إلا أن علاقتنا بأبناء خالي قصي كانت ممتازة.. وتلك عجيبة أخرى من عجائب النفس البشرية.. فهي تستطيع أن تتغاضى وتسامح وتكره. وفي كل أمر، تستطيع العواطف أن توجد للعقل ما يريده من تفسيرات وتبريرات..
لسنوات عديدة، بقيت أكره خالي «عدي» الذي أمّلنا بالعودة، وأتهرب دائماً من رؤيته؛ حتى حدثت عملية محاولة اغتياله الشهيرة في عام ستة وتسعين، حيث كان خالي يدخل الكثير من العمليات في تلك الأثناء، ونقوم بزيارته أحياناً. وكثيراً ما كانت أمي وخالتي تذهبان مع جدتي ساجدة للزيارة، إلا أنني كنت أتهرب من ذلك وأتذرع إما بالدراسة أو بالمرض الذي كان ضيفاً دائماً علي..
في إحدى المرات، كانت أمي تعاني من أعراض برد وطلبت مني أن أذهب لزيارته بعد إحدى العمليات بدلاً منها، فنظرت إليها بطلب ألا تضعني في ذلك الموقف، وتعفيني من هذه الزيارة، فقالت لي أمي: «لا أريد أن يفهم عدي أنني أحتج بمرضي لعدم رؤيته.. وانتي ابنتي الكبرى، وحان الوقت لتشغلي مكاني في الواجبات الاجتماعية»..
وفعلاً، كنت أنوب عن أمي في مجالس العزاء والأعراس في حال لم يكن ممنوعاً.. وينوب أخي علي عنها في الواجبات في مجالس الرجال..
ألبستني أمي ملابس جميلة، وسمحت لي بارتداء عقد ألماس، ففرحت لأنها سمحت لي بارتدائه؛ على عكس والدتي التي لم تعد تحب ارتداء المجوهرات، وانصب اهتمامها علينا..
بعد فترة، أرسل جدي صدّام قائمة مع جدتي ساجدة.. وكانت القائمة تحتوي على أسماء عدد من الرجال الأقارب.. وقال جدي صدّام حسين في رسالته إنه يجب على كل من ابنتيه أن تختار أحداً من القائمة لكي تتزوج به..
والسخرية المريرة في الموضوع هي أن جميع الأسماء المرشحة لهما في القائمة كانت لأشخاص شاركوا في مقتل والدي.. لأنهم أولاد أعمامهم الذين كان يسمح لهم بالاقتران بهما في ذلك الحين.

قال جدي في رسالته الشفوية التي أرسلها مع جدتي إن هذا أمر.. ولا خيار فيه..

عندها، جن جنون والدتي وخالتي رنا، وأحستا بالقهر.. بكيتا وحلفتا بأنهما حتى إذا تم قتلهما فلن تتزوجا أحد أولئك الكلاب؛ بحسب تعبيرهما..

كانت ردة فعل جدي على عصيان أوامره لا تُعرَف، ولا يمكن التنبؤ بها بسهولة..

وفي ذلك الوقت، فسّرنا الأمر على وجه آخر، ولم نفهم مقصد جدي صدّام حسين الحقيقي، والذي كان يتمحور حول أن فكرته العامة كانت تحجيم الحقد الذي شق صف العشيرة وتلاحمها..

بدأت أمي كعادتها في الأزمات الكبيرة بقراءة سورة «يس» أربعين مرة بنية الفرج..

كما بدأت بالإكثار من قراءة القرآن الكريم وصلاة النافلة. وأذكر أنها كانت تصلي ركعات طويلة يومياً بنية الفرج، وألا تجبر على الزواج من أحدهم.. خاصة أولئك الذين تحمل أيديهم رائحة دم أبي!

وبالعودة إلى زيارتي لخالي عدي في أحد منازله بعد مغادرته المستشفى، جلسنا معه، وأثناء الجلسة دار الحديث بشكل لطيف ذكرت فيه بعض الطرائف القديمة فضحكت.. وبعد أن نظر إلي نظرة ودية طويلة ما زلت أذكرها..

ابتسم لي خالي عدي وقال: «لديك فرق في أسنانك!».

قلت له: «أعرف ذلك».

استأنف خالي حديثه وقال لي حقيقة يؤمن بها: «هل تعلمين أن الذين يمتلكون فرقاً في أسنانهم يكونون

.. قال كلمة محظوظين بالإنجليزية..

ثم التفت بعيداً وقال: «هاي حسون الله يرحمه كان عنده الفرق نفسه».

أحسست بأنه لفظها بحب...

حب حقيقي التمعت معه عيناه.. وبدت علي الدهشة. فقد كانت سابقة جديدة؛ فقبلها لم يكن من المسموح بحضور خاليّ أو غيابهما أن يذكر أحد سيرة والدي أو عمي..

بدأ خالي عدي بعدها بالتحدث في أمور عديدة بثقافته الموسوعية، وبإعطاء رأيه في أمور الاقتصاد والسياسة. وكان كعادته متنوع القصص، ولا يمكن أن تمل حديثه. وقد أعطاني اهتماماً كبيراً..

وقد تدخل ذات مرة أثناء تعليق خالتي رنا على قامتي وقال لها: «بالعكس، إنها قامة مثالية للفتيات». وضرب مثالاً بمطربة لبنانية معروفة رآها مسبقاً، وقال إنها كانت أقصر مني..

كان خالي في تلك الأيام يستقطب بعض المطربين والمغنيين لإقامة حفلات في نادي الجادرية في بغداد، وكانوا قلة نظراً إلى أن الأغلبية كانوا يخشون القدوم إلى بغداد أو يرفضون ذلك لسبب أو لآخر.. وقد نصحني مازحاً ألا أغترّ بصورها «فهي هالطول..» وأشار بيده. «أي أقصر منك بكثير..» ثم استمر يمازحني ويتحدث معي..

وفي لحظة واحدة، لم أعد أشعر بالكره تجاهه..

وبدأت قصة إعجابي الشديد بكاريزما خالي عدي التي لم أكن أعرف عنها شيئاً..

وأصبحت أحب عبارة «خالكم داز عليكم»..

وإن بقي شيء من الغضب..

* * *

حين عدت من الخارج، أخبرت والدتي أن خالي «عدي» قد استقبلني في المستشفى، وأنه شخصية تُعجب، فابتسمت والدتي..

وبدأت تحكي لي ما لم أعرفه عن خالي عدي. أخبرتني أنه كان يرغب بأن يدرس الفيزياء النووية، وقد سافر إلى سويسرا فعلاً لهذا الغرض في الثمانينيات.. ولكنه عانى من الغربة وأصبح «هوم - سيك»، فعاد ولم يحب ذلك التخصص.. ثم أحب أن يتعلم الجراحة في العراق، وفي إحدى حصص التشريح أغمي عليه بعد أن تم تشريح جثة أمامه، فقرر ترك دراسة الطب التي اختارها إرضاء لوالدته..

الكثيرون قد يستغربون هذه القصة بناء على الصورة النمطية لشخصية عدي الدموية التي رسمتها وسائل الإعلام، ولكنها الحقيقة.. قد يكون خالي مشاغباً مدللاً.. ولكنه كان حساساً وعاطفياً جداً في الوقت نفسه..

تذكر والدتي أن عدم دراستهم في الخارج كانت من الأخطاء؛ لأن الدراسة في الخارج تصقل الشخصية، وتزيد الاحتكاك، وتهدم الفقاعة التي قد يعيش داخلها الشخص الذي يتربى في أجواء السلطة..

وقد قامت لمى زوجة خالي قصي بالاتصال بعمة والدتي وشقيقة جدي صدّام واسمها سهام، واستنجدت بها وقالت لها: «الحقينا.. يريدون يزوجون البنات».. فما كان من العمة سهام ذهبت من فورها إلى خالي قصي. وقد كان خالي يكن لها احتراماً استثنائياً نظراً إلى أنها ربته بطريقة ما في طفولته، بل وكان يناديها بـ «ماما سهام». كانت تحبه وتغير له ثيابه حين كان طفلاً، كما تقوم بتبديل ثيابه له وهو نائم لكي ينعم بقسط أكبر من النوم قبل ذهابه إلى المدرسة..
تشادّت العمة سهام في ذلك اليوم مع خالي قصي، وطلبت منه إقناع جدي بسحب هذا الأمر.
وقالت العمة سهام له: «ترى والله ظلم... حرام.. ألا يكفي بأنهن قد ترملن... ولم تكن وفاة أزواجهن عادية..» ثم قالت له بعد أن شرح لها الموضوع: «كافي.. كافي قصي».
وبالطبع، حين ذهبت العمة سهام إلى المستشفى الذي كان فيه خالي عدي وطرقت الباب، ...
وعندما دخلت من باب الجناح الطبي الذي كان خالي عدي يرقد فيه حاول منعها، إلا أنها أصرت على الدخول.. فأجابته بلهجة حادة: «وليش أنا مو من العائلة!!.. امشي!!»..
وقفت العمة سهام.. ودفعته ودخلت.. وتحدثت مع خالي قصي.. وكان هذا موقفاً آخر شجاعاً من مواقفها التي اختلفت تماماً عن مواقف بقية العمات في جميع المراحل..
وبالفعل، غير جدي رأيه وألغى القرار..
توقف جدي صدّام عن طلب رؤيتنا لمدة ستة أشهر..
ثم عاد لطلب رؤيتنا مرة أخرى..

وقد سرت إشاعة في داخل العائلة آنذاك أن جدي صدّام حسين ينوي أن يأخذنا من والدتينا لنعيش معه... ولكن ذلك لم يحدث بالطبع!
كان خالي عدي قد بدأ يدعونا كثيراً لحضور المسرحيات برفقته. وكانت إحدى أشهر الحوادث التي حصلت لنا هي ما حصل حين دعانا لحضور مسرحية للفنان عادل إمام أقيمت في بغداد..
جاءت الدعوة بأن خالي «عدي» يريدنا لأن هناك عرضاً مسرحياً. فاعتذرت عن الحضور في ذلك اليوم بسبب مرضي وخلدت للنوم. بينما ذهب إخوتي..
غير أن أمي جاءت وأيقظتني وطلبت مني الذهاب. وقالت لي إن هذه المرة مختلفة؛ حيث إن عادل إمام نفسه موجود هنا في بغداد. وهذه فرصة علي ألا أضيعها.. ثم ألبستني والدتي ثياباً جديدة وأرسلتني إلى المسرحية..
كانت لخالي عدي مقصورة خاصة في المسرح كغرفة لكبار الشخصيات تتم مشاهدة العرض المسرحي منها.. دخلت المقصورة.
وحين وصلت إلى حيث يجلس خالي . سلمت على خالي، ونقلت له سلام أمي ورغبتها بأن نلتقط صوراً مع عادل إمام بعد المسرحية..ً، وأكملت حديثي مع خالي ...
انتهت المسرحية والتقطنا الصور مع عادل إمام. ولكن خالي «عدي» غضب من والدتي وخالتي رنا بسبب عدم سلامنا على الاقارب
وقال خالي عدي لوالدتي وخالتي إنهما تعلّمان الأولاد الحقد!
ولكنه في الوقت نفسه حرص على أن يرانا بمفردنا في المناسبات القادمة، ودون وجود شخصيات أخرى..
تلقفت إحدى المجلات المصرية الصور ونشرتها تحت عنوان: «أحفاد الزعيم مع الزعيم!».. كان خبراً فنياً واجتماعياً عادياً.. ولكننا سعدنا به.. سعدنا برؤية صورنا وبأن هناك إعلاماً عربياً يتعاطى معنا بهذا الحب والإيجابية..
ولكن هذا لم يكن رأي جدي صدّام حسين على الإطلاق..
فبعد فترة، دخل علينا وفي يده المجلة ذاتها وهي مطوية بشكل أسطواني..
وبمجرد دخوله عرفنا بالعاصفة القادمة..
قال جدي بعصبية: «متى ومع من ذهبتم؟».

فتحمل خالي عدي المسؤولية، وأخبر جدي بأنه كان صاحب الفكرة، وأنه هو الذي أخذنا..

فلم يعلق جدي، وأنهى الجلسة وخرج غاضباً..

* * *

حين يتم طرق باب القصر الرئيسي نعلم أن الزائر واحد من ثلاثة. فهو إما جدي صدام أو خالي عدي أو خالي قصي. فهم الثلاثة الوحيدون الذين يدخلون من الباب الرئيسي للقصر، أما البقية فيدخلون من باب آخر بجوار المطبخ يستخدمه الكثيرون بمن فيهم الجدة ساجدة..

وحين كان يتم ضغط جرس الباب الرئيسي، كانت أمي تقوم فوراً بعدة أمور. فأولاً، تضع أي شيء ملوّن على رقبتها لكي لا يعرف القادم من الثلاثة أنها في حالة حداد؛ وهو الحداد الذي بقيت عليه لمدة سبع سنوات كاملة.

إذ لم تخلع فيها اللبس الأسود ليلاً ولا نهاراً.. لم أرَ في حياتي في ما بعد زوجة حزنت على زوجها كحزن والدتي على والدي..

وثانياً، كنا نذهب بسرعة البرق لتزيل صور والدي كلها المتناثرة في المنزل هنا وهناك..

وثالثاً، إذا كان لدى والدتي أي صديقات، كانت تتم تخبئتهن في أي من غرف القصر؛ بالرغم من معرفة الاستعلامات بوجودهن. كنت أستغرب هذا الأمر.. ولكنني أتوقع أن السبب كان الخوف من أن يلاحظهن جدي فيتذكر ويصدر أمراً بمنع هذه الزيارات لأسباب أمنية.. وأيضاً، كانت مسألة الموافقة على استقبال الصديقات تتباين من فترة إلى أخرى..

في الفترات الأولى، كنا نفتح الباب لجدي صدّام فترى أن ملامحه تشير إلى أنه ما زال غاضباً. وغالباً ما يأتي بزيه العسكري، فيسأل عن أخبارنا باستمرار. وقد بدأ بشكل مستمر بأخذنا إلى فعاليات الشواء التي يقيمها لنا. وبمجرد خروجه من باب القصر، كان يأتي لنا من يعطينا «خرجيات».. ومع مرور الأيام، أصبح يأتينا بشكل دوري، أو يطلب قدوم الأطفال إليه..

وحين نذهب إليه يكون قد جهز صنارات الصيد. وبعد انتهاء الصيد، يقوم المرافقون بوزن ما تم اصطياده من قبلنا، ونحصل من جدي على مكافأة مالية

لكل كيلوغرام، ونأخذ عادة كمية من السمك لنشويه في مكان الرحلة نفسه، ونتغدى معه.. كما نأخذ عادة كمية منه كصوغة للمنزل الكبير.
في ذلك اليوم الذي أنقذني فيه جدي من السقوط في البحيرة الاصطناعية، حصل تلاسن بيني وبين أخي علي دفعني للغضب وترك الصيد مع الأطفال والذهاب للصيد بجوار جدي وحمل تلك الذكرى الجميلة..
في مرة أخرى، عاد أشقائي من جولة مع جدي صدّام حسين وهم يضحكون بشدة لان أحد الحرس حين فوجئ بجدي وهو يقود السيارة ضرب له التحية، وكانت يده ترتجف بشدة.. فلم يحب جدي التعليق على ذلك العسكري، وأوضح للأحفاد بأن الأعصاب عندما تشتد لفرط الحماسة والقوة تهتز وهذا أمر طبيعي.. وأنها أصول التحية العسكرية.. وقد أداها العسكري على أصولها..
ذات يوم، جاء جدي ومعه دفتر صغير وقال: «يا أولاد، تعالوا!». وطلب منا جميعاً ذكر أعياد ميلادنا وسجلها على الدفتر..
وبعدها، كان يأتي رجل من طرف جدي في أعياد ميلاد كل منا من غير المشاركين في المقتل.. وهو يحمل سلة بها الكثير من الهدايا، ومبلغ من النقود لا يتم تسليمه إلا لصاحب عيد الميلاد شخصياً.. حتى إن كان صغيراً..
السمك الذي كان جدي يشويه كان لذيذاً جداً.. وجدي بشكل عام كان يحب الطعام اللذيذ ولا يمل المائدة العراقية.. وكان يعلق مازحاً على وزنه عندما يزداد.. بينما كنا نحن نراقب وزنه كما يظهر عن طريق شاشات التلفاز، ونلاحظ أنه قد اكتسب بعض الوزن؛ أي أنه «سمنان» في اللهجة العراقية. وفي أحيان أخرى، كنا نلاحظ أن وزنه قد قل.. كان طول جدي صدّام يعطيه ترف امتلاك عدة كيلوغرامات إضافية، من دون أن تكون ملحوظة بالضرورة..
وبشكل عام، كان جدي «صدام حسين» يتمتع بصحة ممتازة، إلا أنه عانى كثيراً من بعض المشاكل في ظهره، ما جعله يحرص على أن يمشي كل يوم ساعات طويلة..
وكان جدي حريصا على صحته، كما كان أيضا يرفض الخضوع لأي عملية جراحية في الغالب.. فعلى سبيل المثال، كانت لدية عظمة توارثها بعضنا عنه تنمو مع الوقت بشكل بارز بجانب الإصبع الكبيرة في القدم؛ ما يؤدي إلى

اعوجاج الإصبع مع الوقت، ما حتم عليه لبس أحذية طبية من ماركة إيكو، والتي كان أحد مندوبيه يشتريها له من الأردن...

كان طبيب العظام الذي سبق له أن أجرى عملية لخالتي رنا للسبب ذاته قد أشار عليه بأنه يحتاج إلى عملية جراحية مدتها سبع ساعات، فرفض جدي ذلك الأمر قطعياً..

وطلب منه أن يقترح عليه حلاً غير جراحي، فأشار عليه بالتدليك. وفعلاً، أصبح المدلك يأتي بشكل ثابت يومياً لتدليك العظمة، ما أدى إلى تحسن الحالة وخف الألم..

ومن الوجبات المحببة لجدي بشكل خاص «الهبيط». وكان يطبخه بنفسه خارج المنزل على عين غازية صغيرة بها خرطوم يوصل الغاز، وتسمى في العراق «تشوله»، وبدون ملح في أحيان كثيرة. وفي أحيان أخرى، كان يتناول ذلك الذي تطبخه له «جماعة الأربعين»، حيث تحضر الجماعة الشاة وتذبحها وتقطعها وتطبخها. كانت هذه الجماعة مذهلة في أداء مهامّها، وقد جيء بها لتكون مشرفة على شؤون الطبخ لجدي بعد حادثة الطباخ الكردي الشهيرة. فقد كان لدى جدي طباخان رئيسان، أحدهما مسيحي والآخر كردي. وكلاهما من شعوب عراقية عريقة معروفة بطبخها اللذيذ..

فذات يوم، قام الطباخ الكردي بوضع الطعام لجدي صدّام حسين وهو مرتبك جداً، وكان جدي كما ذكرت سابقاً لديه قدرة كبيرة في الفراسة وقراءة لغة الجسد. وفجأة، طلب من الطباخ أن يتناول الطعام قبله وهو ينظر إلى عينيه، فأصيب الطباخ بالرعب ورفض ذلك.. بعدها، أخذ الطعام إلى المختبر، وتبين فعلاً آنه تم دس السم فيه..

بعد تلك الحادثة، صار هناك خبير يتذوق الطعام قبل جدي. وفي بعض الأحيان، تخرج أسطوانات إلى المختبر لفحصها قبل أن يتناولها جدي..

ظلت أسطوانات الطعام تؤخذ لتفحص حتى بعد أن جاءت «جماعة الأربعين»؛ وهي فرقة من مناطقنا تحديداً، وكان أفرادها صغاراً في العمر، وعددهم أكثر من عشرين شخصاً، ويطبخون ويتحركون بسرعة خيالية مثل خلية نحل نشطة..

ومن الأمور التي لا أنساها الطبخ المميز لجماعة الأربعين، وسرعة الوقت الذي كانوا يقومون فيه بإنجاز مهمة الطبخ بكل جد وإخلاص وحرفية.. حيث كانوا يقومون بشواء اللحم بأنواعه لجدي حين يطلبه، أو المعلاق، أو إعداد الكباب العراقي أو الدجاج البلدي. كانت العملية تدار في دقائق؛ بين ذبح الشاة وتجهيز التكّا بدون بهارات.

كان «طعماً من الجنة». وغالباً ما تقام هذه الفعاليات في منطقة الرضوانية في منازل وقصور على النهر، وفي منزل جدتي ساجدة..

في إحدى المرات، أخذنا جدي للصيد في بحيرة على أطراف بغداد، وقال لنا بفخر: «هل ترون السمك في هذه البحيرة؟ أنا قمت بإكثاره شخصياً».. كان ذلك مرباه الخاص للسمك..

وحصل ذلك بعد أن تضرّرت الثروة السمكية في أنهار العراق بشدة بسبب إحدى الطرائق العراقية العسكرية التقليدية في الصيد. فقد كان الصيادون يقومون برمي قنابل مصنعة يدوياً واسمها «البمبه»؛ وهي عبارة عن اختراع عراقي يتمثل في وضع كمية من البارود وتغليفه بالسيلوفان، ثم يلقون تلك القنابل في الأنهار لتنفجر فتموت الأسماك وتطفو، ويقومون بتجميعها..

وذلك قبل أن يمنعها جدي بسبب آثارها البيئية السيئة.. وعند جلوسنا للصيد معه لساعات طويلة، لم يكن يعاملنا كأطفال بل كبالغين يفهمون ما يجري في العراق..

.. وللعراق.. كان متفهماً، وكنا نحب جلسته كثيراً..

خلال إحدى فترات السماح باستيراد المشروبات الغازية، أحياناً كان عشاؤنا معه على طاولة الطعام يضمّ البيض المسلوق ومخلل الماجا «العمبة»، ورأيناه ذات مرة وهو يشرب «سفن أب دايت» الذي كان مشروبه المفضل، فأخبرناه بأن والدتي قرأت في دورية ما أنه يسبب النسيان.. فأبدى اهتمامه بما نقوله.. ولم يشربه جدي بعدها أبداً.. لم يكن يتشرط في الأكل..

في جلسة عائلية جمعت خالي «عدي» و«قصي» وخالي ووالدتي، روى لنا أنه عاد لأحد المنازل ظهراً، وسأل «جماعة أربعين» عن إمكانية تجهيز الطعام، فقالوا له إنهم بحاجة إلى ما يقرب من الساعة.. فقال لهم لا داعي.. كان جائعاً جداً. ويكمل صدام حسين القصة فيقول:

«نظرت حولي فوجدت علبة معجون الطماطم «الكاتشاب»..
ثم فتحت الفريزر وعثرت على حبة آيس كريم في المجمدة..
ثم فتحت الثلاجة، وكانت هناك خبزة صغيرة يابسة..
قمت بلف الآيس كريم بالخبزة، ووضعت عليها «الكاتشاب».. وأكلتها..».
حين انتهى من سرد من قصته استغربنا من الخليط، و«لعبت أنفسنا» كما نقول في العراق من تخيل المزيج، وقلنا له: «أوي بابا!!».. فضحك ضحكته السعيدة والطويلة..
قامت والدتي بطباعة نسخ كثيرة من كتيب «الدعاء المستجاب» عن روح والدي رحمه الله دون أن تتمكن من طباعة اسمه عليه. ثم قامت بإهدائها لكل المقربين، على روح والدي وعمي صدّام كامل وعمتي إلهام والبقية..
وكانت تخط الإهداءات عليها بنفسها..
وكانت في كل ذكرى سنوية تبدأ بطبخ اللحم وتوزيعه على الفقراء مع أخي علي. أما أنا فكنت أذهب إلى بيوت الأصدقاء للسلام عليهم وإعطائهم اللحم، وأذكرهم بقراءة سورة الفاتحة. وبدأت أمي بحربها في محاولة حصر أملاك أبي وتحويلها إلى أملاك نظامية بأسمائنا. كان كل شيء تركه أبي غير منظم. فالأوراق مبعثرة، والملكيات متناثرة، ومعامله مهملة أو غير مكتملة. قامت بتصفية بعض المعامل، وجرد الأجهزة وبيعها بما في ذلك الحديد والخشب والأنقاض، والتي كان من الممكن بيعها في العراق لتستخدم في التدوير. كما عملت مناقلة للعمال، وركزت على مصنع الدواجن الخاص به، وقامت بتنظيفه وإعادة هيكلته وأسمته: «شركة علي الحديثة». في ذلك الزمن، كان أغلب التجار يقومون بملء الدجاج بالثلج لكي يزداد وزنه في الميزان ويباع على هذا الأساس كنوع من الغش التجاري...
فقرّرت أمي أن يكون تميز مصانعنا بالمنتج الحقيقي، وباعتماد الأمانة في الإنتاج. وفعلاً بعد فترة، أصبح أفضل دجاج في السوق هو «دجاج شركة علي الحديثة».. وأصبح الطلب عليه متزايداً في الأسواق.
كل عام، كانت والدتي تحتفل بذكرى زواجها وحيدة وبصمت... فحين تعتقد أننا خلدنا إلى النوم، تبدأ طقوس الاحتفال. وفي إحدى السنوات، أحضرت

«كيكة» وقطعتها وهي تبكي بحرقة. كانت تعتقد أنني نائمة، ولكنني كنت بجوار بابها أسمع بكاءها الذي امتد لساعات طويلة...

ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي أرى فيها دموعها التي لم تكن لتظهرها أمامنا... فكثيراً ما كنت أرى دموعها في قيلولتها وهي نائمة...

أصرت والدتي على نقلنا من مدرسة الشبيبية وتسجيلنا في مدرسة دجلة للبنات، وكان في ذلك استثناء أول وأخير. كانت مدرسة دجلة للبنات تدار من قبل مجموعة من الراهبات العراقيات. وكان النظام المسيحي التعليمي في العراق في تلك الأيام يعرف بأنه صارم في التوجيه والنظافة والملبس. وهو الأمر نفسه الذي كان مطبقاً في منزلنا؛ حيث كانت والدتي صارمة في التوجيه والنظافة والملبس.. غير أنها كانت حنوناً وتحرص دوماً على أن نظهر في أفضل صورة..

وعلى عكس مدرسة الشبيبية التي كان طلابها من أبناء الأقارب، كانت مدرسة دجلة مثل الكثير من مدارس الشعب العراقي بازدحام فصولها وافتقارها إلى التكييف والعديد من وسائل الرفاهية التي تعودنا عليها في مدرسة الشبيبية وفي المنزل.. كانت كل «رحله» «أو درج مدرسي» تحتوي على ثلاث طالبات، وكنت أجلس على كرسي به مسمار بارز تسبب في تمزيق ثيابي... وحين لاحظت والدتي وجدتي ذلك في المنزل، أرسلت جدتي «رحله» جديدة لي، فاعتذرت خجلة من أن تخصص لي وحدي من دون الصف... ولكنها أصرّت على إرسالها لي إلى الصف، وأن يقوم المراسل بإحضار «رحلات» جديدة للجميع بشكل تراتبي...

ولمّا كان وضعنا المالي قد بدأ في التحسن بناء على تشغيل مشروع دواجن كبير، طلبنا من والدتي شراء كمبيوترات جديدة لنا بنظام الوندوز الجديد، وطلبنا أن يكون لكل منا كمبيوتره الخاص في غرفته لكي لا نتشاجر عليه، فوافقت والدتي على طلبنا شرط أن تكون درجاتنا عالية في نهاية العام..

وبعد أربعة أشهر، أخذنا المسؤول المالي لوالدتي، والذي كنا نتوسطه دائماً لإقناع والدتي بما نريده لاختيار الأجهزة.. وبعد فترة، جاءت ثلاثة أجهزة حديثة. كانت سعادتنا لا توصف ونحن نراقب «البيكب» الأحمر الشهير لوالدتي وهو ينزل الأجهزة عند باب القصر..

«البيكب» الأحمر له قصته. فقد قامت والدتي بشرائه لكي تستخدمه في نقل الأدوات بشكل عام.. وكانت والدتي تذهب إلى المزرعة بواسطته؛ فهي لم تكن تهتم بالمظاهر رغم كونها ابنه رئيس.. ورغم أن العُرف يُعيب أن يرى أحدهم شخصية بأهميتها تركب «بيكب» أحمر إلا أنها لم تكن تهتم..
وفي موقف طريف، شاهدتها ذات مرة العمة هيفاء أحمد حسن البكر فيها.. فقد كان السائقون وحرس المنازل يميزون بعضهم بعضاً من السيارة أو الشكل، فتوقفت السيارتان ليتم تبادل السلام، وأبدت العمة هيفاء تعجبها وصدمتها من والدتي لكيفية ركوبها وخروجها في سيارة «البيكب»؛ رغم أنها كانت سيارة حديثة الصنع..
وقد استغربت العمة هيفاء ذلك بسبب عدم اهتمام والدتي بأن يراها بعض الأقارب ويبدون تشقّيهم المعروف!!
على قدر ما كان لدى والدتي رغد صدام ذوق رفيع وعين تحب الأشياء الثمينة وتميزها، إلا أنني تعلمت منها نظرية أخرى جميلة لم أجدها لدى الكثيرين؛ وهي حب اقتناء الأشياء الجميلة الثمينة دون أن تصبح أكثر أهمية منك..
في «البيكب» الأحمر ذاته جاءتنا أيضاً لعبة إلكترونية «سيجا» أوصت عليها والدتي، كما وضّحت أنه من الممنوع أن نلعب بها إلا في فصل الصيف. كانت والدتي تخفي «الجويستيك» أو عصا التحكم الخاصة باللعبة لكي لا ننشغل بها، ولكن ذلك لم يكن يمنعنا من سرقتها من جناح أمي بالتعاون مع الأطفال الأصغر سناً، ومن اللعب بها لغاية الوصول إلى المراحل النهائية وإنهاء اللعبة..
وبعد فترة، طلبت والدتي من زوجة السفير شراء جهاز آخر لأبناء عمي، أي شراء لعبة شبيهة لهم من الأردن.. وبقيت والدتي بعد الحادثة تعتبر أن لديها تسعة أبناء.. فقد بدا أن أيامها وخالتي رنا متشابهة.. كان أبناء خالتي شركاءنا في المأساة، ورفاقنا في السراء والضراء، وكانوا يجيئون إلينا بشكل يومي..
فقد عشنا دوماً في بيتين متجاورين.. وكانت والدتي وخالتي رنا تخططان لكل شيء معاً في ما يتعلق بإدارة حياتنا ودراستنا.. وكثيراً ما كانت أنشطتنا وتغذيتنا مشتركة..

كنا نحن التسعة إخوة.. إخوة بالدم..
بدأت هواياتنا الإلكترونية تكبر. وطلبنا من مسؤول الخزينة في شركة «علي الحديثة» تزويدنا بكاميرا رقمية ماركة «إنتل» وطابعة واسكانر. كانت الدنيا قد بدأت تتغير.. أصبحنا نجد متعة في إمكانية التصوير بشكل عفوي وطبيعي أكثر.. بالإضافة إلى إمكانية مشاهدة الصور من دون الحاجة إلى طلب ذلك من مركز التحميض التابع للقصور الرئاسية. ولذلك، نحن نمتلك صوراً أكثر تخص تلك السنوات..
في السنوات الماضية، كان يجب علينا أن نرسل الفيلم الرئيس، ونطلب تحميضهُ، ثم تأتينا الصور مع المسودات..
وكان تحميض الأفلام قبل التسعين مجانياً لسكان القصور، أما بعدها فقد أصبحنا ندفع تكاليف الخدمة..
في كل فترة حرب، تُنتَهَك خصوصية العوائل الحاكمة بوحشية لسبب أو لآخر؛ دون مراعاة حرمة تلك الأسر أو أخلاق العروبة والحروب التي يدعيها البعض.. ورغم أنه لا توجد مشاهد فاضحة؛ وذلك لأن عائلتي كانت ملتزمة.. ودوماً كان لباسنا محتشماً سواء أكنا في اللقاءات العائلية أو حتى في جلسات النساء.. لم تكن هناك استثناءات، إلا أن تلك الحرمة انتهكت أيضاً.. كنا نخاف دوماً ونحذر من تداول الأشرطة الأسرية.. مثل تلك التي تسربت في العراق أثناء حرب الكويت.. وحين دارت الدائرة وتسرّبت بعض صورنا الخاصة قلنا إن «لعنة الكويت» قد أصابتنا. فكما أحضر بعض ضعاف النفوس صوراً من منازل كويتية وباعوها في أسواق بغداد دون وجه حق، تكرّر الأمر نفسه معنا؛ رغم محاولة جدي في أيام الكويت لجم الظاهرة وسحب المسروقات من السوق وإيقاع العقوبة بمن تثبت عليه التهمة.. إلا أن الحروب لا تعرف الأخلاق..
ولا يمكن أن تكون للنوايا الحسنة فيها موطئ قدم.. وهذا درس آخر تعلمناه..
بقيت والدتي تشغل نفسها كل فترة بشيء جديد....
قامت أمي ذات مرة بترجمة كتاب عن الحمية، ووضعت مكان اسم المترجمة ر. ص. ح. ما زلت أحتفظ بنسختي مع الإهداء من تلك الكتيبات الجميلة، وأفكر في إعادة طباعته ذات يوم إن شاء اللهّ..

اقترحت إحدى صديقات والدتي عليها أن تكمل دراستها بالمراسلة في إحدى الجامعات البريطانية. وفعلاً، أعجبت الفكرة خالي عدي وتبنى الموضوع، وقام بكل الترتيبات، وسجلها وأرسل لها جميع الكتب..
وحين سألته عن الاسم.. قال لها إنه سيرتب الموضوع. وفعلاً، قام بتسجيلها تحت اسم وهمي..
بسبب الحصار أصبح مستشفى ابن سينا أيضاً يقدم خدماته للعائلة بمقابل وليس مجاناً كما كان في السابق..
كما أصبح الحصول على الأفلام التي أحبها صعباً. فعلي أن أرسل لهم فيلم «
vhs» لكي يقوموا بتسجيل المادة الفيلمية الجديدة عليه.. لقد دمر الحصار تدريجيا حضارة كانت مزدهرة. وإذا كان هذا ما يحدث لنا ونحن أبناء العائلة التي تحكم العراق، فكيف بالعوائل البسيطة والصغيرة؟!

بدأ يسمح لي بالذهاب إلى الأسواق رغم صغر سني. وكنت أتردد إلى أسواق الحرية وشارع العَرَصَات أو المنصور والكرادة خارج وغيرها... كانت تلك أسواقاً راقية، وكنت أشتري من هناك الملابس والأقراص المدمجة والعطور و«المكياج» الخاص بي..
لم يكن من المسموح أن يذهب السائق بالبنات بمفردهم..
بل يجب أن تكون إحدى المربيات موجودة معنا..
يقوم السائق باستلام البضاعة، وأقوم أنا بالتسديد في اليوم ذاته أو اليوم التالي.. لم نكن نعطي السائقين المبالغ إطلاقاً، ولم يكن يسمح لهم بالدخول معنا لمعرفة أسعار المشتريات وذلك حفاظاً على شعورهم.. حيث قد توازي مشترياتنا في يوم رواتب شهر بالنسبة لهم..
أصبحت قادرة على توفير احتياجاتنا من التبضع بنفسي؛ حيث كانت والدتي تعتمد علي بذلك، فترسلني للاهتمام بالتفاصيل واحتياجاتها كافة، وحتى الهدايا..
وفي الكرادة، أصبحت أشتري الذهب وأبيع من التجار الذين تعرفت إليهم، وأغلبهم كانوا «صُبَّة»؛ أي من طائفة الصابئة المندائيين.. بدأت بالحديث

معهم، والتعرف على طائفة ولون جميل آخر في ألوان قوس قزح العراق المتجانسة في تلك الأيام. كانوا وما زالوا لا يتزوجون إلا من داخل الطائفة. وفي ذات يوم ربيعي حين كنت طفلة.. خرجت مع والدي ووالدتي ورأينا أناساً يتجمعون حول عروسهم في جرف النهر والعروس والعريس يدخلان في الماء بثيابهما كاملة.. وقال لنا والدي: «هؤلاء العراقيون الصُبَّة»..

ما أجمل تنوع العراق! وما أصعبه حين يدخل الأعداء فيحوّلون كل هذا الجمال إلى كارثة!

كنت أرى في الشوارع ظاهرة البالات المستخدمة والتي كان الناس يقبلون عليها.. وهي عبارة عن الملابس المستعملة المعروضة للبيع بأسعار أقل.. كان الكثيرون قد باعوا بعض ساعاتهم وذهبهم للحصول على سيولة في مراحل ما، إذ استمر الحصار الجائر حتى بداية برنامج «النفط مقابل الغذاء»؛

فحينها بدأ بالتآكل وبدأت حالة الجميع تتحسن، من عام ثمانية وتسعين إلا أن عام ألفين واثنين كان أفضل من كل الأعوام السابقة.. في عام ألفين واثنين، أي قبل الاحتلال، كانت أمورنا ممتازة على الصعيد العائلي، وكان كل شيء تقريباً يصل إلى العراق..

بل وبدأت الحياة تعود إلى العراق كله بشكل حقيقي.. وأصبحت بغداد خاصة في السنة الأخيرة قبل الاحتلال أكثر جمالاً بشكل طبع في ذاكرة محبيها.. وبدأت أمانة بغداد ترصف ضفتي دجلة بنوع غال من الأحجار يستخدم «كتبليط» في إشارة إلى عودة ليالي دجلة قريباً..

في فترة ما قبل الحرب، استمر نشاط والدتي في العمل في المزرعة. فرغم حزنها الشديد وملابسها السوداء.. بدأت حملة تنظيف المزارع.. وكانت تلبس الحذاء ذا الرقبة الطويلة المخصص للمشي في الأدغال والذي يسمى «الجزمة».

وتلتقي العمال بشكل يومي وتوجههم وتشرف عليهم. وكانت تعرّف عن نفسها لهم باسم المهندسة سميرة، ولم يعرفوا من هي، بينما كان المهندسون وكبار المسؤولين في المزرعة يعرفون من هي. كانت تجد السعادة في الحديث مع الفلاحين البسطاء الذين لا يعرفون شخصيتها؛ وخاصة مع رجل كبير في السن كان اسمه حجي عباس تأخذ منه أخبار البلد وما يجري في

العراق وبيوت البسطاء.. كان يشتكي لها من بعض الأمور، ويقول لها: «لا تخبري الآخرين، هذا لك فقط..».

في كل عيد ميلاد لجدي صدام في الثامن والعشرين من شهر نيسان/ أبريل، كان يتم توزيع حقائب عراقية الصنع مصنوعة من القماش وتحمل صورة جدي وتاريخ ٢٨ نيسان على الأحفاد، وأطفال العائلة، وكل الحضور في اليوم نفسه. إذ تأتي بها دار الضيافة قبل عدة أيام، وتوزع على عدد الأطفال. كان في كل حقيبة ألعاب متنوعة ومسدس مياه ومسدس بارود من تلك الي تستخدم تلك الحلقات البلاستيكية الحمراء، والحلويات السكرية الشهيرة التي تحمل شكل الموزة وحلوى «المارتينيز» التي على شكل ثمانية بالإنجليزية. وفي حال كانت المشروبات الغازية مسموحة في ذلك العام تكون هناك عدة علب من البيبسي. باختصار، كانت الحقيبة ذات المقبض الخشبي تحتوي كمية من ألعاب الطيبين الجميلة!

تقوم جدتي ساجدة بجرد الحقائب حسب عدد الأحفاد وأطفال الأقارب. وفي إحدى السنوات بعد مقتل والدي، اتفقنا على أن الأقارب لا يستحقون هذه الألعاب، وقمنا بطلب «اجتماع» طارئ..

كان الاجتماع عبارة عن تجمع سري يضم الأحفاد في أية زاوية من زوايا المنزل، وغالباً ما كان يتمخض عن قرارات شريرة. وكانت أغلب الاجتماعات تعقد في المنزل أو الحديقة أو قصر ماما ساجدة، حيث نذهب لتفحص ما تحتويه الثلاجة..

وفي الاجتماع الذي كانت الشغالات يمررن أثناء عقده ويبتسمن متعاطفات بتواطؤ، أصدرنا قراراً بأننا هذا العام لن نسمح لهم بالحصول على هدايا مثلنا، ودخلنا إلى جناح جدتي ساجدة متسللين، وذهبنا إلى المخزن الملحق بجناحها، وكان فيه الكثير من الخزائن التي تحتوي على ملابسها وأمور أخرى.. قام جزء من الفريق بإشغالها، بينما توجه الجزء الآخر للمراقبة والقيام بالعملية. كان الأمر سهلاً، فقد وجدنا على الحقائب أسماء من ستذهب إليهم بأسماء آبائهم؛ وهكذا...

لم نلمس تلك الموجهة إلى منازل «مرضي عنها» من طرفنا، بل توجهنا إلى البقية، وقمنا بتفتيشها بما يرضي ضمائرنا الطفولية، وصادرنا علب

المشروبات الغازية وبعض الحلوى، وبالطبع تمت مصادرة جميع الدوائر الحمراء البلاستيكية من المسدسات، وقمنا بأخذ البضاعة المصادرة حسب الخطة عبر المصعد إلى الطابق الثاني، إلى إحدى الغرف التي كانت بها شرفة..
وجمعنا الأشياء التي كانت قابلة للكسر..
وكانت مهمة مصطفى أن يهرِّب ما يمكن أن يكسر عبر السلم، وذلك لحرفيته في استخدام السكيت في التزلج على الدرج..
رمينا الأولى والثانية والثالثة والعاشرة حتى تكوم جبل من الحقائب في الأسفل..
وفجأة، وجدنا جدتي ساجدة تقف بجوار الحقائب وهي في حالة من الصدمة (...) لقد كانت الحقائب تهبط إلى الأرض مثل المطر وهي واقفة بجوارها، ولكن من زاوية لم نكن نراها منها.. نظرة جدتي كانت تحمل الصدمة وحدها، وكأنها تقول: من أي طينة خلقتم؟!
خجلنا جداً لأن جدتي لم تبدِ أي ردة فعل. كانت هناك عاملة بكماء، وقد راحت تصدر أصواتاً من هول الموقف، ثم قالت لنا جدتي وهي تحت تأثير ما رأته: «هل تعرفون أن هذه تعتبر سرقة؟!».
قلنا لها إن كل ما في الأمر هو أن هذه هي «شنط الهدايا الخاصة بنا»، ولم نرغب بحملها إلى الأسفل، لذا ألقيناها إلى الأرض من الأعلى لكي نأخذها من الأسفل..
مرت العملية على خير هذه المرة..
في عملية أخرى نوعية، كانت لدى جدتي صديقة من الأقارب، ولم تكن متزوجة واسمها بُهيسة، وكانت من أبرز الناس الذين أبدوا شماتتهم لمقتل والدي.. لسبب أو لآخر، كنا مقتنعين بأن بهيسة تمارس السحر.. عرفنا من عمو إبراهيم خادم القصر أن بهيسة موجودة... كنا في مسبح منزلنا، وشممنا رائحة الشواء قادمة من حديقة جدتي، فعرفنا أن الطباخة المسيحية اللطيفة والكبيرة في السن واسمها رمانه تقوم بشي شيء من اللحوم التي يبدو أنها ستقدم ضيافة لبهيسة..
كانت عدة أسياخ من التكا اللذيذة والطازجة توشك أن تصبح عشاء طيباً لبهيسة.. عقدنا «اجتماعاً» سريعاً.. وبدأت الأسياخ تختفي شيئاً فشيئاً..

وكلما أدارت رمانه رأسها كانت تحكه مستغربة من عدد الأسياخ الباقية.. ثم تقديم عدد قليل من الأسياخ في العشاء.. وتحملت رمانه توبيخاً آخر من جدتي.. وحلفت بأنها وضعت كمية اللحم نفسها على المنقل.. ولكن، يبدو أنه لم تكن هناك بركة في اللحم اليوم

لم تكن تلك معاناة بهيسة الوحيدة. ففي إجراءات أخرى كان منها أننا قمنا ذات يوم باصطياد ضفدعة أو ما نسميه، نحن العراقيين، «عكروكه»..

وحين جاءت، نادينا بعضنا بأن بهيسة قد جاءت، ودخلتُ إلى حيث تجلس جدتي ساجدة التي ما إن رأتني حتى احتقن وجهها وهي تعلم أنني لا أنوي على الخير وسأحرجها بعدم السلام على ضيفتها.. تصرفت بطبيعية، وسلمت علي جدتي وصديقتين أخريين لها، وتجاهلت بهيسة، وجلست بينها وبين جدتي التي قالت ملامحها: «خير!». قلت لها إنني جئتُ للسلام عليهن. وفي تلك الأثناء، عند وقوفي ألقيت عكركه تحت قدمي بهيسة، ثم استأذنت وخرجت..

لم تمض لحظات على خروجي حتى كانت صرخة بهيسة تصدح في جنبات القصر، ونحن نهرب من القصر وضحكات عمو إبراهيم تلاحقنا وصوته المبحوح: «شنو سويتو يا شياتين؟».

* * *

حين كنا نعرف أن إحدى عمات والدتي موجودة في منزل جدتي ساجدة في قصرها المتاخم لنا في مجمع الجادرية لم نكن نذهب إلى هناك، وكنا نتجنبها. وحين نراهن كنا لا نسلم عليهن. وفي إحدى المرات ونحن نلعب «بالسكيت» بين القصور، ذهبت أختي وهج لشرب الماء في قصر جدتي، وكانت إحدى العمات هناك. كانت العمة تقترب منها لتسلم عليها فيما أختي تتراجع وتبتعد.. فأحرجت العمة بشكل كبير..

بعدها، نُقِلت الحادثة إلى أمي بشكل مبالغ فيه، ونفدت أختي من العقاب بالصدفة، وتعجبت كثيراً حينها كيف يمكن للكبار أن يكذبوا.. بقيت علاقتنا مع الأقارب على هذه الحالة.

* * *

كانت في بغداد مدرسة أجنبية اسمها «انترناشيونال سكول» يدخلها أبناء السفراء، وكل من يريد الدراسة فيها غيرهم. وقد كانت مختلطة. سجلت فيها أمي أبناء العائلة من الذكور، فتحسنت لغتهم فيها بشكل كبير. كانت أجواء المدرسة مختلطة، وما يشوب هذه الأجواء من نمط حياة أجنبي مختلف.

مرت الفترة الأولى على خير، حتى وصل خبر ذهاب أحد الأحفاد إلى إحدى السفارات وكان سياقاً طبيعياً لهذه المدرسة حيث يتم دعوة الأطفال إلى دور السفراء ونقلت بطريقة لم تكن دقيقة إلى الرئيس فأمر بنقلهم.

الفصل العاشر عالم الشر: الإدارات الأمريكية المختلفة والمؤامرات على العراق

كما ذكرت في الفصل السابق، فتح التطور التقني علينا أبوابه.. ولكن سلبية هذا التطور هي أنه كان سلاحاً ذا حدين. فقد سهل التواصل بين الناس، ولكنه أسهم في فتح الكثير من الثغرات الأمنية التي كان من الممكن أن يستغلها أعداء العراق.. وكان هذا أحد أهم الأسباب التي جعلت جدي الرئيس صدّام حسين يمنع دخول تلك التقنيات بشكل قطعي. بدأنا نسمع عن نزول اختراع جديد وهو الهاتف الخلوي في الدول المجاورة، وبدأ العراقيون يتداولون أخبار الهواتف المتحركة والأطباق اللاقطة أو ما يسميها العراقيون «الساتلايت» بحماسة، وبدأت الفكرة تعجب كل من يسمع بها..

عدا جدي صدّام حسين الذي وضع الفكرة قيد الدراسة بعد أن فاتحه خالي قصي في الموضوع في إحدى الجلسات العائلية، وذكر له أن العراقيين قد أحبوا الفكرة، وهم متحمسون لها.. كان جدي يرى فيها أسلوباً سريعاً للاختراق والتجسس، وأن الأطباق اللاقطة ستسهم في دخول الفساد الأخلاقي إلى كل بيت عراقي.

وكان يقول إنها ستسهل على الجواسيس التبليغ عن مكانه ومكان رجال الدولة، وستصبح تحركاتهم مرصودة..

فرغم كل المحاذير الأمنية والاختراقات، حافظ جدي على أمن العراق، وكان يتواصل مع الناس بشكل مباشر... وقبيل الحرب الأخيرة، سمح جدي باقتناء طبق يحتوي على أربع عشرة قناة متنوّعة، ولكن بثّها كان غير مباشر (يسميه العراقيون «أبو الأربعطعش قناة»)، وهو متوسط التكلفة، وهناك فارق ساعة بين البث والالتقاط. وقد كان مسلياً، ومواده جيدة، وقد قمنا باقتنائه كغيرنا من العراقيين...

كما كان يحب النزول والتواجد بشكل مفاجئ بين ناسه. وفقرة «هلا بيك هلا» كما يسميها هي الأكثر سعادة لديه.. كان يبتسم ويضحك من القلب حين يكون بين أولئك الناس البسطاء.. وقد بقي الحوار في هذا الموضوع مفتوحاً بين خالي قصي وجدي كما كان واضحاً لنا.. وفي ظل وجود العراق في حالة حرب شبه دائمة، كان من الواضح أن وجود الهواتف لديه سلبيات وإيجابيات. ومن السلبيات قضية الاختراقات وإعطاء التسهيلات...

في أيام كلينتون عام ثمانية وتسعين، كانت الهجمات مركزة على أهداف عسكرية، ودقيقة جداً، وأقل دموية من هجمات عائلة بوش.. كان مصطفى ابن خالي قصي بطلاً حقيقياً منذ طفولته. وفي فتوته أصبح والده يكلفه ببعض المهام الخطرة، وكان من بينها تحذيرنا عند وجود أي هجوم صاروخي على العراق. وفي أحد الأيام، دخل علينا وهو يتنفس بسرعة وقد ظهر عليه التعب، ففهمت والدتي بذلك أنه قد جاء من قصر والده في مجمع الجادرية إلينا ركضاً لنقل الرسالة الشفوية إلى والدتي وقال لنا: «لقد عبر صاروخ أمريكي الحدود قبل قليل..».

وكالعادة، كان ذلك الأمر يعني أنه علينا تجهيز حقائب الطوارئ والخروج من القصر خشية أن يكون هو المستهدف بعمليات القصف. وفي بعض المرات، تكون المدة أقصاها سبع دقائق.

في ليلة ما نزفت من يدي بسبب وجود جهاز التغذية والأدوية... ورأت جدتي المشهد فتأثرت بشكل كبير، وأرسلت كتاباً استصدرت لي بموجبه قراراً من وزارة التربية بعدم ضرورة ذهابي إلى المدرسة وأن أكمل العام الدراسي من المنزل؛ ما أدى لتحسن حالتي بشكل كبير... ومن مواقفها معي أيضاً حين قمنا في إحدى الفعاليات المدرسية بإعادة تمثيل مؤتمر القمة العربية، وقمت بخياطة الأزياء العربية للحاضرين، وكان هناك نص مسرحي أعدته مدرسة اللغة العربية... كان النص قوياً نوعاً ما، فسألتني المديرة عن استعدادي لتحمل المسؤولية... لم أكن أريد تمثيل دور جدي، ولكن جميع الطالبات لم يوافقن على لعب دور جدي، فاضطررت إلى لعب دوره، ولبست البذلة العسكرية... وحين وصل الخبر ورفع تقرير حول المسرحية كالعادة... تحدثت معي جدتي بأدب شديد عن الفعالية. وقبل أن تدخل في التفاصيل، قلت لها إن كل شيء مسجل، وأعطيتها نسخة عن المسرحية والنص... فذوّبت جدتي الموضوع ولم توصله لجدي... وبفضل اللّه ثم جدتي تم إغلاق الملف.

لم أكن أحب مادة الرياضيات، ولكن قواعد العائلة كانت صارمة بالنسبة لاحترام المدرسين. لذا، كنت أتفق مع إحدى العاملات بأن تأتي في وسط درس الرياضيات وتقول لي: «خالك قصي يرغب في التحدث إليك». ما يجعل مدرسي يلملم الأوراق ويقول لي: «أصلاً إحنا خلصنا».

في ذلك اليوم، كنت أتلقى درساً خصوصياً في الكيمياء من أحد المدرسين. وكان ذلك المدرس المسكين أعرج ولا يستطيع المشي بسرعة.. أتت العاملة مسرعة، وفهمت من نظراتها أنه علينا المغادرة بسرعة، فطلبت من الأستاذ بهدوء أن أغادر، فقال لي إنه لا مانع لديه من مغادرتي، ولكن علي أولاً حل المعادلتين ثم أخرج. عندها، أخبرته بوجود قصف صاروخي، وذكرته بأننا في قصر يقع في مجمع الجادرية، وأن القصر قد يكون هدفاً رئيساً للقصف..

وقبل أن أنهي جملتي، أغلق المدرس الكتاب وسبق جميع من في القصر. وقد فوجئنا بسرعته في الركض، حيث كان في لمح البصر يكاد يخرج من القصر كله..
حين خرجنا، اكتشفنا أنه ليس المدرس فقط من يمتلك مهارة الاختفاء السريع، بل واستعلامات القصور والحرس. إذ لم يكن هناك أي أحد في المجمع..!

كان سائقونا قد خرجوا في واجب، ويبدو أن الحرس قد اعتمدوا على وجودهم معنا..
صدمنا من تصرف سكان المجمع.. وعدم وجود خفارة تبقى في حالات الطوارئ! على عكس التعليمات المشددة بوجوب بقاء البعض..
كنا غاضبين مما حدث. وصرخت والدتي طالبة منا أن نركب السيارة جميعاً كيفما اتفق!
وكانت مع والدتي صديقة طبيبة تحمل ألبوم صور زفاف ابنتها، ولم ترض والدتي بتركها..
ركبنا فوق بعضنا في سيارة عمي صدّام كما كنا نسميها؛ وهي عبارة عن ليكزس بيضاء كان عمي صدّام يستخدمها بشكل شخصي، وكان قد تركها في إحدى الورشات، وعلمت عنها خالتي رنا واستلمتها بعد فترة من وفاته، فجددتها وأصبحت صالحة للركوب. واعتزازاً بما تمثله من قيمة معنوية جعلتها لخدمتها ولخدمة أبنائها..
كانت والدتي تتقن القيادة. غير أن مغير السرعات في السيارة «الجير» كان عادياً وليس أوتوماتيكياً، بالإضافة إلى أنها لم تقد أي سيارة بدون حرس منذ فترة طويلة، ما جعل والدتي تقود كيفما اتفق.
كنا ثلاث نساء وتسعة أطفال وشباب في سيارة صالون سعتها خمسة ركاب فقط..

كان الهدف هو الخروج من المجمع فقط باتجاه منحدر طويل يؤدي إلى مطعم شعبي شهير اسمه «علي اللامي».. وعند ذلك المنحدر، كادت شاحنة قادمة تصطدم بنا، ولكنها تفادتنا في اللحظة الأخيرة..
كنا نتناقش حول إخبار خالي قصي بما فعله الحرس.. كما كنا نعاني من التنميل في أرجلنا، وبكاء الأطفال الراغبين بالذهاب إلى دورات المياه..
جاء أحد الحرس بعد فترة، وحين رآنا بكى من الفرح «حرفياً لا مجازياً» لأنه عثر علينا، وأخبرنا أن الدنيا «مقلوبة»، والجميع يمشط المنطقة بحثاً عنا..
وعدا عن الخوف، كان التعاطف الشديد بادياً على وجهه.. وخاصة حين فتح الباب، ورأى الوضع داخل السيارة، وسقط بعضنا إلى الخارج بمجرد فتحه الباب..
بعدها، ذهبنا في سيارات أخرى إلى مزرعة الدورة لنمكث بها إلى أن ينتهي الإنذار من القصف... تعب وخوف وارتباك وإعياء.. كانت تلك حياتنا؛ خصوصاً في عام ثمانية وتسعين الذي عشنا خلاله خارج المنزل أكثر مما عشنا داخله.. بسبب تصاعد الأزمات بشكل شبه يومي، وكثرة التهديدات بالاختراق، وغير ذلك...
يقال إنك حين تكون متعباً جداً يمكنك تذكر ذكرياتك الجميلة لكي تهدأ وتشعر بالراحة.. وقد كانت رحلتي إلى سويسرا إحدى ذكريات الطفولة الجميلة التي أحبها، لذا قررت أن أتذكرها وأنام لحين توقف صافرات الإنذار وسقوط الصواريخ الأمريكية على أهدافها..
الزمان: عام ١٩٩١
المكان: منزل ٩- ب المؤقت في مجمع الضباط
كنت قد صحوت في ذلك اليوم منزعجة من الحلم الذي يتكرر دائماً؛ وهو لغربان عديدة تراقب المنزل وتنعق..
ذهبت لأصبح على الموجودين في المنزل: «صباح الخير..».

حين كنت أتحدث مع الموجودين في المنزل، كانوا يعطونني الجواب نفسه.
«.. نصي صوتك!!».
كان الكل يطلب مني أن ((أنصي صوتي)) أي أخفضه، والسبب كان بسيطاً جداً، كنت لا أسمع أصلاً!!
وعند إجراء فحص طبي روتيني لي، اكتشف الأطباء وجود مشكلة في قناتي السمعية والحاجة إلى سحب ماء من الأذن؛ وهي العملية التي لم تكن متوفرة في بغداد..
تكلمت والدتي مع جدي للسماح لي بالمغادرة إلى الخارج لتلقي العلاج، ووافق جدي صدّام على الطلب.. وخاصة حين علم أن إهمال الأمر قد يؤدي إلى طرش كامل كما قال الأطباء..
وعلى الفور، أصدرت لي المخابرات العراقية جواز سفر باسم حرير رشيد النقيب؛ أي باسم زوج العمة سهام عمة والدتي. لكن اسمه كان غريباً ولا يلفت الانتباه لأنه غريب عن العائلة ولم يكن رجلاً عسكرياً. وحين بدأنا بإجراءات السفر، أهداني جدي «نثرية» من المال، وتكفل بمصاريف رحلتي كاملة. خرجت إلى الأردن بسيارة مرسيدس خاصة مع ابنة مربيتنا في تلك الأيام، وسائق آخر وحاجم المسؤول المالي لدى والدي وابن خالته. لم يتركني حاجم لأنام في تلك الرحلة، وكان يصر على بقائي مستيقظة لكي لا تختلط مواعيد نومي. وصلنا إلى الحدود، وتم تسليمي للسفارة العراقية..

قضيت ليلتي في منزل السفير العراقي في عمّان نوري الويس، ثم غادرت إلى سويسرا لتلقي العلاج في اليوم الذي يليه.. سافرت في آذار سنة ١٩٩٢، وكانت العودة في شهر مايو من السنة نفسها..
سكنت في بيت شقيق جدي برزان التكريتي في سويسرا، والذي كان ممثل العراق لدى الأمم المتحدة في سويسرا آنذاك. كان منزله يقع في زاوية في منطقة غاية في الجمال، وتصميمه جميل جداً. وكانت زوجة برزان هي

أحلام خير الله طلفاح، شقيقة جدتي ساجدة أيضاً، لذا أرسلت أمي بمعيتي الكثير من الهدايا والألعاب لعائلة عم والدتي برزان التي كان استقبالها لي مميزاً جداً..
أعطيت غرفة إحدى بناتهما واسمها سجى. وقد كانت فتاة لطيفة، ولم أكن أعلم حينها أنها ستكون زوجة لخالي عدي بعد عدد من السنوات. كانت غرفة جميلة بها حمام ملحق أنيق، وبها شباك منزلق يطل على حديقة رائعة.
وضعت سجى بجوار السرير هدية جميلة لي احتفظت بها لوقت طويل، وكانت عبارة عن تمثال لقطة نائمة بهدوء في مهد جميل، عند تشغيلها تدور وتصدر أصواتاً موسيقية لطيفة..
كان منزل عم والدتي برزان منظماً وكأنه مدرسة داخلية. وكانت السفارة ترسل لي سيارة تأخذني كل يوم إلى الطبيب. وكانت الخالة أحلام ترافقني في كل الزيارات..
وعند الطبيب، يتواجد مترجم يشرح للطبيب السويسري ما أجيب به وما تقوله الخالة أحلام.. قال الطبيب إن بنيتي ضعيفة ولن تتحمل العملية؛ وهو الأمر الذي أدى إلى بقائي لثلاثة أشهر بدلاً من الأسبوعين اللذين كانا مقررين، وذلك لحين تغير بنيتي. وقد تم اعطاني أدوية فاتحة للشهية وفيتامينات. كنت آكل بشكل جيد، وخاصة مع وجود تلك الكابينات الملونة على امتداد شارع منزل عم والدتي برزان، والتي تبيع الحلويات والآيس كريم اللذيذة..
كنت أتناول الآيس كريم عدة مرات يومياً؛ وهو الأمر الذي سبب لي زيادة كبيرة في وزني، فتوقف الطبيب عن إعطائي فاتح الشهية..
كنت لا أزال أتحدث بصوت عالٍ في منزل عم والدتي برزان الهادئ.. حيث كان كل شيء منظماً بطريقة مدروسة.. وكانت القوانين صارمة. إحدى بنات عم والدتي برزان كانت مثلي تحب الأكل، ولوحظ أن وزنها قد ازداد قليلاً. وحين عرفت والدتها بعدها أنها تأكل سراً تمت معاقبتها..

تواطأت معها بعد ذلك، وذهبنا بالدراجة لأكل الآيس كريم.. تمارس العمة أحلام هواية الرسم على البورسلين، ويذهب الجميع إلى النوم ما عدا عم والدتي برزان الذي يسهر خارج المنزل غالباً؛ فقد عرف عنه حب أجواء السهر خارج المنزل حتى وقت متأخر من الليل..

يخلد الجميع للنوم في وقت مبكر بين السادسة والسابعة مساء. وفي الصباح، نتناول ما أعده لنا الطباخ السويسري لوجبة الفطور الذي يطهى كل يوم بطريقة مختلفة. وعند الغداء، كانت هناك قائمة كاملة منظمة تشمل «الشورية» ثم السلطة ثم الصحن الرئيسي «seated»..

كان للغداء أوقات معينة ولا يبقى بعدها.. في أحيان قليلة، كان برزان يأتي ويحدثني حديث الكبير للطفلة.. ولم أكن أستلطفه جداً كطفلة!! لأنه كان يعبر عن حبه لي بالقرص... القرص القوي جداً..

كنت أعرف اليوم الذي سيتواجد فيه برزان في المنزل من اهتمام العمة أحلام حين تزين المنزل وتجهز كعكة خاصة على العشاء، وتدخل إلى المطبخ بنفسها.. وحين أسأل العمة أحلام: «لم تقومين بطباخة الكعكة؟» كانت تقول لي إن عم والدتي برزان قادم اليوم. فأرد عليها ببراءة: «حسناً، إنني أشعر بالنعاس، سأذهب لأنام..» وكانت أحلام تضحك لردة فعلي..

حاول الكبار سؤالي عن أبي وأمي، ولكن التوصيات في بغداد كانت قوية، فلم أجب عن أي سؤال..

في أحد الأيام قبل العملية، قام المستشفى بإجراء فحص الحساسية لي؛ حيث يقومون بوضع عدة خزعات في الذراع، والخزعة الي تتورم تعني أن الجسم لديه حساسية من مادتها..

وكانت المفاجأة في أن جميع الخزعات قد تورمت.. ما يعني أنني وباختصار لدي حساسية من كل شيء..

لم تحتمل الخالة أحلام نتيجة الفحص، واحتضنتني وأجلستني في حضنها وبدأت تبكي..

كنت أرى في عمة والدتي أحلام عطفاً كبيراً علي، ومعاملة خاصة لي؛ رغم شهرتها في العائلة بعكس ذلك. وقد عانت العائلة في مرحلة ما من المشاكل بسبب تدخلاتها..
بعد أيام، تم إقرار موعد إجراء العملية لي، وكانت غرفتي في المستشفى طفولية وجميلة. وضع لي فيها عدد من برامج رسوم الأطفال على التلفاز، وكان هناك الكثير من الألعاب الخشبية للأطفال..
ذكرتني زيارتي للمستشفى بموقف آخر حين كنا في المنزل.. ونام والدي بطريقة غريبة، وكان يشخر بصوت عال، وبدأ يغرغر و«الشدق» يخرج من فمه. حينها، قامت والدتي بإيقاظه فلم يستيقظ، وتم نقله على جناح السرعة لمستشفى ابن سينا، ومن ثم إجراء فحوصات شاملة له، واكتشف ورم حميد لديه في الدماغ حسبما قيل لنا في ذلك الوقت. حينها، تقرر القيام بعملية خطيرة جداً له قد تؤدي إلى الشلل، وتم إخراج والدي إلى الأردن، وفتح رأسه وجمجمته بالكامل وتم إخراج الورم..
عاد والدي بعدها إلى العراق، ووضع له سرير طبي في غرفة الضيوف... ذبحت الخراف على عتبة باب القصر بالعشرات، وكان عليه المرور فوقها طبقاً للتقاليد ثم الدخول إلى المنزل.. كان الذين أهدوا تلك الخراف هم أنفسهم الذين شاركوا في مذبحه في ما بعد. قال الأطباء لأبي إنه لن يستطيع التحرك لفترة معينة بالأشهر، وإنها عملية كبيرة تستدعي الراحة الإلزامية لفترة طويلة.. جاءت أخواته لزيارته، وحاولت والدتي الانحناء لكي تلبسه حذاءه ليسلم عليهن، ولكنه منعها من ذلك في «لقطة» حب لن أنساها.. كان جدي صدّام حسين في تلك الأيام يزورنا بشكل يومي، ويتحدث مع والدتي.. ويتابع الأخبار.. وكان متأثراً بشكل كبير جداً؛ حتى أكثر من تأثره في ما بعد حين كان يزور خالي «عدي» بعد محاولة اغتياله الشهيرة..
أكد الأطباء لوالدي بأن عليه الراحة لعدة أشهر، وقد كان رده عليهم أنه فاجأ الجميع بعودته للعمل بعد شهرين... كان يخلط الرشاد باللبن

ويشربه كل يوم لتعويض الدم، وقد ساعدته بنيته القوية على ذلك..
وانتهت الأزمة بصورته الشهيرة مع خالي عدي حين تجاهل تعليمات الأطباء، وفك الضمادة عن رأسه وحضر العرض العسكري..
تلك هي ذكرياتي عن المستشفيات باختصار..
حين تصبح في وضعية صعبة فإنك تحاول تذكر بعض الذكريات الجميلة، وقد كنت أتذكر الكثير من اللقطات في حياتي..
أتذكر الشجرات الثلاث للحمضيات التي زرعها والدي في حديقة منزلنا وأعطيناها أسماءنا.. بيت علي... بيت حرير... وبيت وهج.. وذات يوم، استعجلنا فصل الخريف فقمنا بقطع جميع أوراقها. وحين عاد أبي قلنا له: «لقد أعددنا لك مفاجأة». لقد ساعدنا الشجرة على استعجال فصل الخريف...
لماذا تغير وجه والدي ووعدنا بأن يسلخ جلودنا؟!!... جاءه اتصال من عمي صدّام كامل في اللحظة نفسها.. وختمنا القرآن كله ونحن ندعو بالنجاة.. طلب «للواجب»، فغادر بسرعة ونجونا!
أتذكر شراب القنداغ المقشع المريح من الكحة؛ والذي يعتبره والدي المشروب الرسمي لمرضى العراق..
أتذكر كره أبي للعطور بشكل عام وحبه لروائح الطبيعة.. واحتيال والدتي على ذلك بشراء عطور الدواليب ووضعها في دولابه مع ملابسه لكي تتعطر..
أتذكر حب والدي كذلك للجاكوزي المليء بالثلج والماء البارد في مزرعة الدورة، وكيف كان يحب أن يضعوا الماء البارد والثلج في مغطسه، بينما نحن كان يغمى علينا من البرد حين نحاول تقليده في فعل الأمر ذاته..
أتذكر قبر خال والدتي عدنان خير اللّه الجميل، والنقوش الموجودة عليه، والمعرض الخاص به بجوار نصب الشهيد، ونحن نقرأ له الفاتحة في كل زيارة في تاريخ وفاته..

وقد أنشيء نصب الشهيد الشهير في بغداد قبل ولادتي بثلاث سنوات أي عام ١٩٨٣، وأصبح أحد أهم الملامح المعمارية في بغداد الحبيبة، حيث صممه المعماري العراقي الشهير سامان كمال، كما قام المعماري إسماعيل فتاح الترك بتصميم قبته.. أي أن معماريي بلادي قد أبدعوا في تشكيل هذا النصب الخالد الذي أخذ شهرته من الخداع البصري الذي يحدثه في رؤية المشاهد؛ إذ تظهر القبة مغلقة عند النظر إليها من بعيد، ثم يتضّح انفراجها عند الاقتراب منها.. مثل روح الشهيد التي يحسبها الناس حزينة وأسيرة الجسد الميت، بينما تسبح هي في ملكوت السماوات.. وفي أعلى النصب، يرتفع علم العراق ليدل أرواح الشهداء على الطريق..

كان من عادة طلبة المدارس والمسؤولين والزوار زيارة نصب الشهيد، ووضع أكاليل الزهور لشهداء وطننا الذين سقطوا في حرب القادسية الثانية..

أتذكر الدراجة ذات العجلات الأربع التي اخترعها والدي لجدتي بعد أن ذكرت له في أحد الاجتماعات العائلية أنها بدأت تتعب من المشي في المزارع، وعدم قدرتها على ركوب دراجة تختصر عليها المسافات لأسباب اجتماعية وبسبب الشمس.. كانت تحب المشي كثيراً، إلا أنها تكره تعبه وغباره في المزرعة. وأصبحت تلك الدراجة موضة، وطلبتها منه كل العوائل الأخرى.. وأذكر كيف كنا نستخدمها بتهور كاد ذات يوم يسقطنا في النهر لولا يقظة الحرس..

أتذكر سوق «هِلو» في العوجة، وأشياءه البسيطة، ورحلاتنا مع والدي وعمي حكيم فيه، ومسدسات الماء التي تباع فيه والتي كنا نحرص على شرائها..

أتذكر مثل الحلم شمال العراق الجميل وثلوجه وأهله الطيبين..

أتذكر المصورين وهم يعرضون على جدي صوره ليختار منها الصورة الفضلى للنشر مع الأخبار..

أتذكر صورة لجدي وهو شاب كانت تعلقها أمي في غرفة ملابسها ولم تزلها أبداً، وبقيت تحتفظ بها مع أشيائها الجميلة..
تستمر الذكريات السعيدة...
وفي الجانب الآخر من الوعي بدأت العملية...
انتهت العملية بسهولة ونجاح وسلاسة، وعادت حاسة السمع لدي كما كانت.. وذهبنا للاحتفال.. لم أكن حتى تلك اللحظات «هوم - سيك»؛ وهي عقدة العائلة الكلاسيكية..
بل كنت مستمتعة بوقتي إلى الحد الأقصى، وكنت أقوم كل عدة أيام بشراء لعبة جديدة؛ ما أثار غيرة علي ابن عم والدتي برزان، والذي لاحظ أن الاهتمام قد تحوّل منه إلي. كنت وإياه كما يقول التعبير العراقي «ناكر ونكير» وقد دخل ذات يوم من شباك غرفتي، وقام بعملية «ملص» (سحب الرأس) لجميع عرائسي وألعابي، ما جعلني أبكي بشدة وأحبس نفسي في الحمام لحين قدوم المربية وتهدئتي..
وحين عاد عم والدتي برزان، يبدو أن أحداً ما قد أخبره بما حدث، فقام بتأديب علي على طريقته؛ أي بواسطة الحزام الذي يرتديه.. ورأيت في ذلك عقاباً قاسياً جداً.. فبقيت اسأل مربيتي: «هل أنا السبب في ذلك أم هناك سبب آخر؟».. أياً كان السبب، حزنت عليه كثيراً، وعدت للتعاطف معه.. فعاد لمناكفتي.. ويبدو أنها أسباب عائلية أكثر من كونها طفولية كما اعتقدت في ذلك الوقت..
كانت في الغرفة «بلكونة» جميلة تطل على الحدائق السويسرية النظيفة والمرتبة التي تملأها أشجار الساكورا، والتشيري بلوسوم، والصنوبر. قمت بدعوة صديقاتي وسكان المنزل ذات يوم لحفلة شاي فيها، وقد التزموا بموعد الحفلة التي تقيمها الطفلة الزائرة لهم، واجتمعوا حول الطاولة في «البلكونة» في الوقت نفسه الذي اتصلت فيه أمي لتتحدث إلي. وكنت متذكرة بترتيب مسبق ألا أقول لها «ماما» وألا أقول لأبي «بابا» لاحتياطات أمنية، والكثير من الشيفرات عبر

الهاتف. غير أنني كنت مشغولة بعزيمة نور وخولة وبألعاب الطين الاصطناعي التي ألعب بها مع أبناء عم والدتي برزان.. كانت أمي متلهفة جداً للحديث معي عبر الهاتف، ولكن حرير الطفلة كانت لديها أولويات أخرى، فقلت لها: «أمي، أنا مضطرة للذهاب، لدي نور وخولة، سأتصل بك لاحقاً».. وعرفت لاحقاً أن أمي بدأت بالبكاء بعد أن أنهيت الاتصال.. فقد شعرت بأن ابنتها قد نستها.. وكيف لي أن أنسى أم مثلها.

كانت إجازتي في سويسرا جميلة جدا. وقد فعلت فيها كل ما تحلم به طفلة؛ ما عدا السباحة تحت المطر، والتي منعت منها لأسباب صحية.. عدت بعدها من سويسرا إلى العراق عبر الطريق نفسه، ولم أكن أعرف أن تلك الرحلة ستكون آخر رحلة لي قبل الخروج النهائي..

اتصلت العمة أحلام بوالدتي لتبلغها أن المنزل أصبح هادئاً جداً ومملاً بدون حرير التي ملأت عليهم المنزل ضجيجاً وفرحاً..

وفي بغداد، صدم الكل مما أصبحت عليه؛ فقد اكتسبت الكثير من الوزن مقارنة بالوضع الذي كنت عليه قبل ذهابي إلى سويسرا.. وكان الكل في العوجة سعيداً جداً بعودتي. كنت أرتدي ثياباً اشتريتها من هناك وأضع حقيبة خصر مثل السياح الأجانب.. كانت أياماً جميلة.. ليست مثل الأيام التي سأتحدث عنها..

جو التوتر العام في فترات الهجوم الأمريكي الدوري على العراق..

* * *

كانت الصواريخ موسمية، وكانت تأتينا كلما توترت العلاقة مع الأمريكان، أو حتى حين تتوتر العلاقة بين الرئيس الأمريكي وزوجته. المهم أن أية حالة توتر كانت تنعكس على صورة صواريخ تطلق على العراق. بقي الإعلام يصدح بالأناشيد الوطنية، ومصطلح العراق حارس البوابة الشرقية؛ وهو المصطلح الذي لم نكن نفهمه، ولكننا فهمناه تماماً بعد حرب عام ألفين وثلاثة..

لم تكن قضية التعهيد الخارجي للعمالة موجودة في العراق في تلك الأيام. لذا، كان اختيار العمالة من الأمور الصعبة والمرهقة.. وكانت العمالة تأتي غالباً عبر الدائرة، وهناك فريق معين يقوم باختيار العمال وتدريبهم ثم توزيعهم للقصور؛ حيث يتدرجون بحسب أدائهم..

كانت جدتي ساجدة تعشق البساتين، وتقضي جل أوقاتها فيها. وقد زرعت في مزرعتها في الرضوانية أشجار برتقال قزمية كانت قد أحضرت بذورها معها من اليابان، وقيل لها إنها لن تنجح في العراق. ولكنّ خصوبة أرض العراق تغلبت على توقعاتهم، ونجحت زراعته. كنا نأكله مع قشره.. وكان لذيذاً جداً..

كانت الأيام تمر، والعلاقة بين جدي ووالدتي بين مد وجزر. وذات مرة، جاءنا جدي.. وكنا نعرف أن علاقته مع أحد أفراد العائلة ليست على ما يرام حين يختفي التواصل البصري بينهما. فإذا تكلم صدّام حسين إليك دون أن ينظر إلى عينيك فهذا يعني أنه غاضب منك. يومها لاحظنا ذلك عليه، ويبدو أنه أثناء الحوار تطرق الحديث عن والدي وحادثة الأردن، فقالت والدتي لجدي: «بابا.. اذكروا محاسن موتاكم». وخرجت غاضبة، ولكن في الطريق إلى المنزل، طلبت جدتي ساجدة من والدتي أن تعود لتعتذر من جدي.

حين يغضب جدي كان يكثر من الذكر والاستغفار والحوقلة.. وعلى ذكر الغضب، فإن هناك فئة من الناس حين يغضبون اعتادوا التلفظ بالكفر وعلى سبيل المثال، في المدرسة الشبيبية، كان الأغلبية من الأطفال يتبادلون بعض السباب التي تؤدي إلى الكفر بالله، وكان هناك أطفال يتلفظون بها، فقمت بضرب خمسة منهم كل على حدة حين كنت أسمعهم على فترات متفرقة، وازدادت الشكاوى علي، فاستدعتني مديرة المدرسة بثينة وقالت لي إنه من الواضح أنني أفرد عضلاتي على الطلبة، فأخبرتها بأن الطلبة يتلفظون بسباب فيها كفر بالله.. عندها، ابتسمت وطلبت مني المغادرة دون أن تعاقبني..

هناك ثلاثة أمور علينا نحن كعراقيين أن ننتبه لها لأنه قد تكون سبباً - والعلم عند الله- في الكثير من نكباتنا..
الأمر الأول هو الكفر بالله -جل شأنه- والتجديف بسهولة وبدون دراسة العواقب..
الأمر الآخر هو رمي الفائض من الطعام في المزابل..
والثالث هو تعذيب الحيوانات وعدم وجود قوانين تجرم هذا الفعل..
والراحمون يرحمهم الله..
وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء..
رغم إيماننا كعراقيين بأن الحيوانات وخاصة القط «يشوّر» له «حوبه»؛ أي أن انتقامه يصل ولو بعد حين. وفي أثناء حوار عائلي حول الموضوع، ذكر خالي عدي أن أحد أصدقائه كان يفتخر بما يفعله بالقططة من شذون وأذى جسدي وإحراق وهو يضحك ويروي القصص لخالي.. وقال خالي إنه حذره من أن للقط «حوبه».. ثم حدث أن صديقه هذا قد ضربته شاحنة انحرفت أثناء مشيه في شارع معين، ما جعل الطب الشرعي يعجز عن تجميع أشلائه المتناثرة..
اغتيلت جدتي صفية في عملية ضبابية قيل إنها حصلت من قبل حارسها الذي كان يحاول سرقتها..
وأصرّت والدتي على أن تقيم لها «فاتحة وأربعينية» في منزلنا..
وبعد وفاة جدتي صفية بفترة، اقترحتُ على بقية الأحفاد أن نستأذن جدتي ساجدة في قضية زيارة عماتي والسلام عليهن. ولم ترفض والدتي الفكرة رغم أنها كانت بين نارين؛ بين خوفها علينا من ردود الأفعال، وشجاعتها لدعمنا في التصرف الصحيح. وفعلاً، ذهبنا إلى بيت جدتي ساجدة، وتكلمنا معها بشكل مباشر، ووعدتنا بطرح الموضوع على خالي عدي. وبعدها بيوم، أبلغتنا أن خالي «عدي» أخبرها أن سبب معارضتهم للفكرة هو خوفاً من تأجيج قصة الثأر لوالدي وهو الجواب الذي أغضبني جداً فحاججت جدتي حينها: قلت لها: ماما، ألا ترين أن

في ذلك ظلم كبير، لقد توفيت جدتي دون أن نراها.. وقد يتكرر الأمر مع أياً منهم في أية لحظة، لا نريد أن نعيش هذا الحرمان.. نريد حياة طبيعية ويمكن أن تكون اللقاءات بحضورك حتى يكبر الأطفال منا فيكون الجميع حينها قد نضج، وحينها لن يبقى هناك أي مبرر للخوف، لقد سمعتني بإنصات شديد وامتصت بأدبها غضبي.. وقبل أن أغادر وأختم حديثي قبلتها وقلت لها بودية: ماما سنؤجل الموضوع لفترة لكن عديني أن تساعديني بالتأثير على خالي عدي ودعي له الباقي ودعينا ماما نغلق هذه الصفحة حتى لا يبقى شيء في النفوس مع الوقت.. أنتم أهلنا وهم أهلنا أيضاً، ولن أتوقف عن المحاولة أبداً.

خرجنا أكثر من مرة مع جدي صدّام حسين في زياراته المفاجئة لسكان المناطق العراقية المختلفة. كنا نسمع صيحات «هلا بيك هلا، وبجيتك هلا». كان جدي يحب تلك الزيارات، وكنا نحس بسعادته فيها. كنا نوضع في «باص» مُرافق ونُمنَع من النزول، ولكن يمكننا التفرج..

لم يكن أهل تلك المناطق يكذبون بفرحتهم بجدي. فإذا كان الشخص الراشد يستطيع التمثيل، فإن فرحة الأطفال حقيقية دوماً. يحب جدي الاستماع إلى حديث الأطفال الريفيين والعجائز. لم تكن جدتي تحب أن ترافقه في تلك الرحلات..

يستمر عام ثمانية وتسعون بالمرور بطيئاً تارة وسريعا تارة أخرى..

وكان احتمال سقوط صاروخ أمريكي فوق رؤوسنا يساوي احتمال سقوطه على رؤوس أي عائلة عراقية أخرى. لم نهرب، وبقينا في العراق كما بقينا دوماً..

كنا نعرف أن سقوط حكم جدي قد يكون في أية لحظة، كما كنا متجهزين لهذا الأمر نفسياً. من الطبيعي أن أذكر أننا عشنا بطريقة مرفهة -والحمد لله على هذه النعمة- ولكن وككل شخص في السلطة، كان ذلك مقابل التنازل عن راحة البال. إذ لا يوجد كمال في هذه الدنيا،

ومع كل سلطة، توجد هناك ميزات كما توجد تضحيات. ولكن الأمور الإيجابية في السلطة بالنسبة لي قليلة.
ولقد دفعت عائلتنا ثمن السلطة أضعاف ما دفعه الآخرون. ولكنني وكل أحفاد صدام حسين وبناته نؤمن بأن الشرف الذي نالته عائلتنا أيضاً لا يشبه أي شرف نالته عائلة أخرى..
نشعر بذلك من حب الناس لنا؛ كباراً وصغاراً، وفي أي مكان وأي دولة نكون فيها..
نحن لم نفقد «صدّام» فقط.. ولكننا فقدنا الأب والجد والرئيس وبطل القادسية الثانية وخيمة العراق..
لقد كان صدّام حسين خيمة للعراق كله، وليس لعائلتنا فقط..
وحتى بعد وفاة الرئيس، تمت تصفية الكثير من أفراد العائلة جسدياً، مثل عمي جمال رحمه اللّه، والكثير من رفاق جدي في سجون الاحتلال، وما زالت محاولات اغتيال البقية تسير بوتيرة مستمرة لديهم..
كما ذكرت، في عام ثمانية وتسعين عشنا في البيوت المؤقتة أكثر مما عشنا في منازلنا. وفي إحدى المرات، نمنا ليلتين في السيارة.. ولكثرة فترات التهديد التي كان كل منها يستمر لعدة أيام، غالباً ما كنا نذهب عند التهديد إلى منزلنا في الدورة وننام في غرفتيه الصغيرتين هناك. وكنا نأخذ معنا كل الكتب التي تُثقل حقائب المدرسة؛ لأننا لا نعرف متى يكون التهديد فتضطر للخروج من المدرسة إلى المنزل البديل أو الدورة مباشرة. كانت المدرسات والطلبة يستغربون لأننا نُحضر جميع الكتب في حقائبنا الدراسية على ثقلها. ولكننا لم نكن نستطيع أن نفسر الأمر لهم (لأسباب أمنية)..
القليلون من الأقارب والأصدقاء المقربين كانوا يعرفون مكان وجودنا في مزرعة الدورة. كنا نتجمع في الصالة وندرس، بينما تنشغل خالتي رنا ووالدتي في متابعة الأخبار واستقبال بعض الأصدقاء. وكثيراً ما كنا نجلس ساهرين ولا نشبع من النوم، ونذهب ونحن في قمة التعب والنعاس

إلى المدرسة. وأحياناً، كنا نذهب بزي غير مدرسي لأننا لم نأخذ الزي المدرسي أثناء خروجنا السريع إلى المزرعة من القصر. كنت أخفي الزي غير المدرسي بأن أقوم بتغطيته بمعطف أسود. وفي أحيان كثيرة، كانت المعلمة تلومني وتقول لي إنه علي أن آتي بالقميص المخصص، وكنت أتذرع بالقول إن القميص قد احترق.. أحياناً يطول الأمر أياماً، وأحياناً أسابيع.

كنا على الرغم من صغر سننا نعيش في هاجس الانقلاب والاحتلال. وكنا دائماً نسأل بعضنا عمّن يمكننا الثقة به حين تسوء الأمور. وفي أحيان كثيرة، كنا ننام ونحن نتوقع اليوم الذي يمتلئ فيه بيتنا بوجوه غريبة لا نعرف من أين أتت. كان البلد قد بدأ بالغليان لعدة أسباب في نهاية التسعينيات.. ضربات بوش الأب والابن كانت همجية، ولم تلم فيها الملاجئ والأسر بقصد الإيذاء المتعمد. لا أؤمن بالانتقام، ولكن لا بد أن تحصل عائلة بوش على ما زرعته أيديها ذات يوم..

تعمّد قتل الأبرياء لمجرد الإيذاء والقتل لن يمر بلا عقاب؛ إن لم يكن في الدنيا ففي محكمة من لا يظلم عنده أحد..

بالنسبة لي، سأموت مرتاحة الضمير..

لقد قدم جدي أفضل ما عنده لهذا البلد..

وقدم والدي أفضل ما عنده لهذا البلد..

وأنا أؤمن بأن دليل عمل الإنسان هو خاتمته. وقد كانت خاتمة أهلي كلهم خاتمة رجولية..

سمعت أن بوش لا ينام إلا بعد تناول العقاقير المنومة لأنه يرى كل يوم طفلاً عراقياً يعاتبه..

حتى إن كانت هذه إشاعة، فسيرى ذلك الطفل ذات يوم.. إن لم يكن في نومه ففي قبره..

إنها «حوبة» مليون طفل قتلوا.. ومليون طفل شرّدوا.. ومليون طفل يُتِّموا.. لقد اختار بوش أعداءه بغباء.. فالعراقي يصبر.. ولكنه لا ينسى..

والعراقي ليس من بلد بلا حضارة.. بل هو الحضارة ذاتها... يوثق... ويخطط، ويعود ذات يوم...
ما صنعه بوش ببلدي لم يصنعه أحد..
خاصة في عام ألفين وثلاثة.. وما أدراك ما هو عام ألفين وثلاثة!
على الرغم من أن كل الأمور كانت في إطار التخمينات، إلا أننا في عام ألفين وثلاثة كنا مهيئين نفسياً للحرب.. وليس فقط للحرب.. بل ولحرب، مختلفة..
كان كل من يدخل منزلنا في عام ألفين وثلاثة يصاب بنوع من الاستغراب والدهشة. فالمنزل يبدو بحالة أن أهله يتأهبون للانتقال، فقد وضعت «التحفيات» في صناديق عادية، وتم إنزال اللوحات عن الجدران، ورفعت السجاجيد، وتم وضع كل الأمور الأخرى في إحدى زوايا المنزل..
بسبب التغيرات التي جرت، وفترة المراهقة التي كنت أمر بها، وحادثة والدي، وأمور أخرى كثيرة، بدأ مرضي -وخاصة حالة الربو- يأخذ جانباً نفسياً.. وكنت أرفض تناول أدوية معينة يحضرونها لي للمساعدة في أعراض الربو والاحتقان، وأفصل حبوب الفنتولين. جيء لي بطبيب خاص واسمه «ع. أ». كان رجلاً دمث الخلق ولطيفاً، ويحاور بالمنطق العلمي..
كان يستجيب لطلباتي الواضحة بأنني لا أريد أياً من الأدوية غير الفنتولين. وبعد فترة، اختفى هذا الطبيب، وعرفت أنه قد سجن لأن ابنته هربت من العراق. كان هروب ابنة أحد الأطباء العاملين في مستشفى ابن سينا حيث يتعالج أبناء المسؤولين يعتبر خرقاً أمنيا خطيراً. انتكست بعدها حالتي بشكل كبير، ونزل وزني، فطلبوا مني الموافقة على طبيب بديل، ولكنني رفضت بشدة. كنت مقتنعة بأداء الدكتور «ع. أ» لأنه كان يخيرني ولا يجبرني على تناول الأدوية الي لا أرغب بها.. وبدأت أحاول جاهدة أن أخفي تدهور حالتي إلى أن تطورت وكشفت الحمى أمري..

ذات يوم، جاءت والدتي وأخبرتني أنه عليّ النزول من غرفي لأن الطبيب البديل «ع. ف» موجود في الأسفل، ومن العيب تركه بمفرده. نزلت وأنا أجرجر ساقاً وراء الأخرى..

طلب مني تناول الأدوية فرفضت. ولكنه كان ذا إصرار عجيب، وطول بال شديد جداً. استمر بالحديث إلي لمدة ساعتين حتى اقتنعت؛ ليس اقتناعاً حقيقياً، ولكن فقط لكي يذهب. طلبت منه أن يعطي الوصفة للسائق ليحضرها مع في طريق الرجعة من ابن سينا، وعدت لغرفتي..

بعد فترة، نزلت لأجده في مكانه وأمامه الأدوية.. كان مزعجاً ولا يمكن الفكاك منه. طلب مني تناول الأدوية أمامه. لم أكن مدللة فقط، ولكنها تقلبات المراهقة أيضا. أخذ يشرح لي مرة أخرى ويرسم لي الكورتيزون على هيئة وحش كاسر..

كان الدواء المطلوب مني تناوله مرهقاً جداً؛ لأن تناوله على دفعة واحدة قد يؤدي إلى الموت. لذا، كان يجب علي تناوله على دفعات مختلفة خلال خمس وعشرين دقيقة لثلاث مرات يومياً. ويمكنكم تخيل حجم الجهد الذي كان على ذلك الطبيب بذله يومياً للقيام بالأمر..

خاصة في الأيام الأولى؛ إذ يترافق مع أعراض جانبية صعبة. ولهذا، تم تحضير غرفة خاصة لي في المستشفى، وكانت جاهزة في حال ظهور أي أعراض جانبية..

بعد فترة، أصبحت لدي عربة كاملة من الأدوية التي توجب علي استخدامها في يوم واحد. وتنوّعت الأدوية ما بين مضادات الاستفراغ وخافضات الحرارة والكورتيزون وغيرها... لم تكن مرحلة سهلة..

وتعلمت فيها الصبر.. وأصابني الحزن حين تأكدت من سجن طبيبي السابق.. طلبت والدتي إلى جدتي ساجدة التوسط لإخراجه من السجن.. تم استدعاؤه وإخراجه من السجن إكراماً لكونه طبيبي.. خرج الطبيب، وذهبت إلى بيته، فاحتضنني وهو يبكي..

كان رجلاً كبيراً ومحترماً، ولكن المنظومة الأمنية في العراق كانت حازمة جداً. فهناك دول تسعى لاختراق العراق قبيل الحرب، ولم يكن يسمح بالسفر لعوائل أطباء مستشفى ابن سينا؛ خوفاً من تسرّب أسرار حساسة إلى الخارج. كان معظم الكادر جيدا وكتوما، ومن يرغب بالسفر يقوم بتقديم طلب، ويوضح أسباب السفر، ومع من، والمدة التي سيسافر بها.. ولم يكن يسمح بسفر جميع أفراد العائلة في آن واحد؛ لضمان عدم هروبهم وتسرب أسرار البلد..

كانت هناك محاولات تجنيد كثيرة لمن يخرج من العراق من قبل الأعداء. ولذلك، بالمقابل كان هناك حرص وحذر دائمان لأسباب أمنية؛ حيث يمكن أن يعمل الأعداء على تجنيد من يسافرون إلى الخارج..

كانت المخابرات العراقية جهازاً يستحق الاحترام. فمع كل التقنيات الأمريكية الحديثة، لم يستطيعوا إيجاد ثغرة واحدة لولا الجواسيس.. ولم تعرف أي بيوت بديلة ولا أي أسرار عن الدولة. ولم نكن نستخدم الهواتف إلا ضمن إطار ونظام معين..

ومثل أي نظام قطعاً، كانت هناك أخطاء من قبل أجهزة الدولة في ما يتعلق بالتعامل مع الناس.. ولكن المؤامرة على العراق كانت أكبر بكثير. في السابع عشر من نيسان عام ألفين وثلاثة، وهو اليوم ذاته الذي يوافق عيد ميلاد خالي قصي، حضر إخوتي آخر فعالية رسمية في العراق.. كان جدي حاضراً في تلك الفعالية، وكان شقيقي صدام حسين كامل معنا، وكان الوحيد بيننا الذي يتصرف على سجيته ويقفز هنا وهناك.. أمر جدي بإحضار المصور تلبية لرغبة صدام الصغير.. فجاء المصور والتقط لجدي العديد من الصور في ذلك اليوم.. كآخر صور رسمية مع الأحفاد.. والتي أصر أخي صدام على التقاطها بإلحاح وبشكل غريب..

وفي أحد أيام ذلك العام، طلبنا خالي عدي للسلام علينا، ودعانا إلى الغداء. كانت العلاقات قد عادت إلى طبيعتها بيننا ونحن ننظر إلى نهايتنا المشتركة. وكانت أمي قد قامت بطلب عدة أزياء عن طريق

مجلتها الفرنسية المفضلة، وعندما بدت ملامح الحرب قامت بإلغاء الطلب. وحين شكوت لخالي عدي الأمر، رفض ما قامت به والدتي، وقال لها إنه عليها أن تُبقي على الطلب، فعلينا أن نعيش حياتنا كما هي حتى آخر لحظة.. ثم طلب من أحد السفرجية إحضار الهدايا.. كان قد أحضر هدايا لنا جميعاً..

وفتح قطعة قماش مطوية، فيها عدد من مجموعات حلق الأذن.. وقال لي: «سنبدأ بالكبرى..».

كانت تلك آخر هدية أحصل عليها من خالي عدي رحمه الله، وما زلت أحتفظ بها إلى اليوم..

قال خالي عدي لوالدتي إن الحياة ستستمر.. وإنه يعلم أن الحرب ستقوم.. وستكون مختلفة هذه المرة.. ولكننا طوال عمرنا كنا نعيش تحت التهديد- نحن الذين على حق- فلماذا نعيش في خوف ونوقف حياتنا؟ المكتوب سيحدث..

تكلم خالي بجرأة، وقال الأمر المحبوس في الصدور والذي كنا نخشى أن نعترف به لبعضنا... الحرب ستحدث، وهذه المرة ستكون مختلفة.. ستتحطم بيوتنا.. ستتكسر سياراتنا..

صدمنا جميعاً ولم يعلق أحد!

حين رأى خالي عدي تغير وجوهنا.. أردف:

«لكننا لن نموت..!».

استمر خالي عدي بالحديث.. «ولكننا لن نستسلم.. والعراق لن يموت»

كان خالي عدي قد أوصى جدتي ساجدة مسبقاً.. في يوم الإخلاء، أثناء التوديع قائلاً لها إننا أخلينا عشرات المرات.. ولكن هذه المرة مختلفة... وأوصاها بألا تسلم نفسها حتى لو قتُل الجميع.. وأوصى أخواته بألا يستسلمن حتى إذا ذُبِح جميع رجال العائلة..

في اليوم نفسه، ذهبنا لزيارة خالي قصي في قصره في الجادرية، وهو قريب من قصرنا نوعاً ما.

في نظر خالي قصي، كانت هذه الأزمة مثل الأزمات الأخرى، وستمضي وتمر على خير..
بعدها بيوم، طلبنا جدي صدّام حسين، وجاء لزيارة جدتي ساجدة في قصرها وكنا جميعاً هناك... شعور عام بالغرابة طغى على الاجتماع..
كنا جميعاً نشعر أن هذا هو اللقاء الأخير..
كان ذلك قبل الإخلاء بيوم.. لم يحدث فيه شيء مميز..
كانت أكثر مرة أتأمله فيها.. وحاولت أن أشبع عيني منه..
يقال إن الإنسان يتدبر دائماً لقاءه الأول ولقاءه الأخير بمن يحب..
كنت ناضجة هذه المرة.. أكثر نضجاً..
كنا جميعاً نريد أن نرى كيف هي معنوياته..
وكانت معنوياته كما عهدناها دائماً... يضحك.. ويبتسم.. ويتحدث.. ويمزح مع الحرس..
لم يدخل والمجموعة الأخرى معه؛ لعلمهم كيف نكرههم..
أتذكر دخلته علينا.. وجلوسه بيننا.. كان يغيب عنا، و«يصفن»، ثم يكرّر جملة «أحسن أولاد». كرَّرها كثيراً، وكان يقولها بعاطفة..
رغم عادتنا كعرب أن نكتم عواطفنا.. إلا أن صدام حسين كان يظهر عواطفه بقوة..
وكان يقولها بتشجيع لنا وبعد تأمُّل.. ولهذا، حين كان جدي يقول «أحسن أولاد»، كنا في كل مرة نسمعها وكأنها أول مرة..
تصرف جدي صدّام حسين حينها كما تصرف في أي لقاء آخر، ولكن أروع ما في اللقاء كان أنه يعلم أنه مقبل على حرب مختلفة، ولكن معنوياته لا تزال كما هي..
كما كانت منذ أن كنت طفلة..
كان رائعاً لأنه كان هو.. لأنه كان «صدّام»...
لم يكن مهزوما، ولم يكن يخشى المستحيل..

* * *

لم يكن اللقاء طويلاً، ولم نأكل فيه أي شيء. قبلناه جميعاً، وكان ينظر إلى كل منا لمدة أطول من المعتاد وكأنه يُريدُ أن يملأ عينيه منا، كما كنا نريدُ أن نملأ عُيونَنَا منه أيضاً..

كانت جدتي ساجدة حزينة جداً ومتأثرة..

حضنها جدي صدّام بقوة.. ونظر إليها بتمعن وقال لها: "أنت سنايدي" ثم كررها مرة أخرى بعد أن تأمل وجهها الذي ابتسم له برقة كعادتها..

أنت سنايدي.

أي يا سندي..

وسلم علينا.. وخرج..

* * *

لم أر جدي بعد ذلك اليوم قط.. ولكنه يعيش في ذاكرتي ووجداني إلى الأبد..

الفصل الحادي عشر اللقاء الأخير: بداية الغزو الأمريكي واستهداف العائلة

كنت أقف على جزيرة وسطية في أحد الشوارع أنا وأشقائي ووالدتي رغد صدّام حين بدأت الاهتزازات..

اهتزازات وزلازل في كل مكان..

أنظر بعيني إلى بغداد..

أرى برج صدّام قريباً مني..
يسقط برج صدّام من الأعلى إلى الأسفل؛ وكأنه يغوص في الأرض، بالطريقة نفسها التي رأينا فيها برج التجارة العالمي يسقط في نيويورك في وسائل الأخبار..
من مركز سقوطه تتطاير أشياء كثيرة؛ أشلاء وفوضى وغبار وأتربة..
ورأيت دولاب الهواء الشهير يطير من مكانه ويأتي باتجاهنا..
كنا نقف على جزيرة وسطية والدتي وأنا وشقيقي علي.. كل شيء ناتج عن انهيار برج صدام كان يأتي باتجاهنا، ولكن لم يصبنا منها أي شيء..
استيقظت من الكابوس.. وكان آخر يوم لتوديع صديقاتي في المدرسة..
كان كابوساً حقيقياً..
أو ربما كان إنذاراً بكابوس أسوأ سنعيشه قريباً..
في المدرسة، بدأنا نودّع جميع الطلبة والمدرّسات في موقف أقل ما يوصف به بأنه كان حزيناً. الكل ودعنا بألم.. ما زلت أذكر تلك المدرّسة التي حطمت ضلوعي وهي تحتضنني وتبكي بهستيرية..
لا أعرف، هل كانت تودّع فِيَّ العراق؟!..
هل كانت تودّع فِيَّ كل جميل في حضارتنا؟..
هل كانت تودّع فِيَّ خمسين عاماً من التقدم والاستقرار والذكريات الجميلة؟!...

* * *

عدنا إلى القصر، وودعت العوائل بعضها بعضاً مرة أخرى وأخيرة. كان الاتفاق يقضي بالإخلاء، حيث تقوم كل عائلة بالذهاب إلى البيت البديل المخصص لها.. ودعنا بيت الخال قصي.. وأثناء جلوس الأحفاد معاً، أخبرني مصطفى عن كابوس يحلم به.. وأخبرته عن كابوسي.. صمت كلانا ولم نتحدث بشيء.. كانت كوابيسنا لا تحتاج إلى مُفَسِّر..
كان ذلك في آخر ساعة قبل المغادرة.. كان علينا مغادرة القصور بسرعة..

كنا نحن وعائلة خالتي رنا بحكم التاريخ نعتبر عائلة واحدة. لذا، كان القرار بمغادرتنا معاً إلى منزل آمن واحد.

ذهبنا فعلاً إلى مزرعة الدورة، ولكن ليس إلى المنزل الأصلي الكبير فيها.. بل إلى منزل صغير هناك كنا نسميه «بيت صدام ورنا»؛ إذ كان والدي رحمه الله قد أهداهما إياه، وقامت والدتي بإجراء تحسينات عليه كمنزل لنهاية الأسبوع. كان منزلاً فرعياً حديثاً إذا صح التعبير ويعتبر صغيراً بعض الشيء، ويكفي صاروخ كسول لتحويله إلى خبر كان.. قبل الحرب بيومين، كانت أمي تشاهد قناة «الجزيرة»، وكان فيها لقاء مع زعيم تنظيم القاعدة آنذاك أسامة بن لادن قال فيه نصيحة لعموم العراقيين من نصائح عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي أن يحفروا خنادق في بيوتهم لتجنب القصف. وبغض النظر عن آرائنا المختلفة في بن لادن وجماعته، إلا أن والدتي أعجبها هذا الرأي، وقرّرت بناء ملجأ صغير في مزرعة الدورة لتستخدمه عند الضرورة..

وبالفعل، أمرت أمي العمال ببناء ملجأ صغير جداً بحجم مترين ونصف المتر بمترين ونصف المتر.. وكان العمال قد أخبروها أنه لا يمكن إنهاؤه في يومين، ولكنها طلبت منهم العمل في عدة ورديات. وفعلاً، تم اكتمال الحفر في يومين.. دخلنا إليه ونحن نقول لبعضنا مازحين: «الله شلون موتة جماعية هنا»..

في أقسى الظروف، لم نتخلّ عن عادتنا بعقد «اجتماع» لمناقشة أمورنا واحتياجاتنا بعيداً عن الكبار. كانت أمي عصبية جداً قبيل الحرب، وجاءت الإشارة السرية لي من وراء ظهرها لعقد اجتماع، فخرجنا إلى الخارج وعقدنا اجتماعاً.. وقلنا فيه إننا غير مرتاحين للتواجد في بيت مزرعة الدورة. نحن هنا لسنا في مجمع القصور في الجادرية لكي يأتي مصطفى ويخبرنا بأن صاروخاً قد عبر الحدود ونتصرف. فهنا لن يكون لدينا وقت للإخلاء. واتفقنا على أن أقنع والدتي بذلك.. فانتظرت أن تنهي صلاتها.. رفع الاجتماع..

رفضت والدتي المقترح تماماً..
بينما أيدتنا خالتي رنا..
كانت أمي قد جهزت سلفاً الكثير من المؤونة والملابس، وكان معنا في المزرعة أربعة من أخلص حراسنا الذين نحبهم ونسميهم «وِلدنا»..
والذين يرتدون الزي المدني..
جاء المساء، وطلبت منا أمي أن نرتدي ثياب النوم بعد أن نغتسل، ثم ننام.
المدارس بدأت إجازتها «الحربية» الإجبارية..
جاءت جدتي ساجدة لزيارتنا، ويبدو أن المكان الآمن المخصص لها كان قريباً منا نوعاً ما. قالت لأمي وخالتي إن المكان الذي نحن فيه خاطئ جداً وليس آمناً.. فقالت لها أمي: «من يريد قصفنا حتى ولو عرفوا بمكاننا؟ نحن نساء وأطفال!». فأجابتها جدتي بواقعية:
«أنتن نساء، ولكنكن بنات صدّام حسين».
أصرت أمي على البقاء، فالتفتت جدتي لخالتي رنا وقالت لها: «اتركي رغد هنا، وخذي الأطفال التسعة وغادري».
.. أريد هنا أن أذكر بقاعدة جدي صدّام حسين الذي كان بإمكانه بعملية مخابراتية سهلة جداً أن يرسلنا لأي بلد وبأي حجة بعيداً عن أتون الحرب.. ولكنه كان دائماً يقول: «ما يسير على العراقيين جميعاً يسير علينا.. لماذا يسمع أكثر من خمسة وعشرين مليوناً صوت الصواريخ ولا تسمعونها أنتم؟!».
حتى إنه لم يستخرج لنا جوازات سفر للاحتياط..!
نعم، لم يكن لدى أي فرد في العائلة جواز سفر في تلك الأيام.. لم نطمئن لحديث جدتي ساجدة ونحن نعلم أن قلبها قلب الأم الذي يحس ويشعر ويتنبأ.. قلب الأم دليلها..
ذهبت إلى والدتي لأقنعها فقللت من مخاوف جدتي ساجدة وقالت لي:
«بنتي هو إحنه شنو؟ همّه يعرفون إنو إحنه نساء وأطفال! كان رجلي

عسكرياً وراح.. ليش يضربوني آني وأولادي؟». كل هذه الأمور حصلت في ما نسميه، نحن العراقيين، ليلة الضربة..
بعد قليل، اكتشفنا أن جدتي ساجدة ما زالت في سيارتها خارج البيت، ورفضت التحرك إلى أن نخرج من منزل مزرعة الدورة.. كانت هذه الأمور في شهر مارس، أي أن الأجواء قد بدأت تبرد..
ومع ضغط جدتي، وافقت والدتي، وخرجنا متجهين إلى منزل العمة هيفاء ابنة أحمد حسن البكر وزوجة عدنان خير الله رحمه الله؛ خال والدتي وشقيق جدتي ساجدة..
كان منزلهم في منطقة اليرموك؛ مقابل مستشفى اليرموك في مركز بغداد. وكانت هي أصلاً تلح على والدتي للبقاء لديهم؛ فهم أناس قد توفى رب عائلتهم منذ سنين طويلة، وليس لهم أعداء، ولا يعرفهم الإعلام. في منزلهم، كان لديهم مشتمل حديث مكون من طابقين، في كل طابق غرفتان وعدد من المنافع، وكان معداً لزواج ابنتهم..
الطابق الأعلى كان خالياً وغير مؤثث.. كانت الفكرة أن يبقى الجميع في المشتمل لأن منزل الخال عدنان الرئيس لا يصلح لكونه في أغلبه من الزجاج؛ أي سوف يتحطم بالكامل مع أقرب صاروخ..
كان أبناء الخال عدنان موجودين في المنزل، وكل منهم مسلح ببعض الأسلحة الخفيفة والرشاشات. حين وصلنا إلى منزلهم، شعروا بالراحة ورحبوا بنا، وفرشوا لنا المراتب في الطابق العلوي. حيث إنه مشتمل صغير تابع للمنزل الكبير، ولم يكن يستوعب كل ذلك العدد من العوائل، ولكنهم اختاروه لكونه لا يجلب الانتباه. لم ننم في تلك الليلة، إذ كان ذلك هو الوقت المتوقع لإلقاء بوش «الخطاب» الذي يحدد به وقت الضربة..
وحتى في هذا الأمر لم يلتزم بالتقاليد العسكرية.. فهو لم يحدد وقت الضربة، ولكن العراقيين كانوا قد اعتادوا على أنها تكون بعد الواحدة من منتصف الليل..

وعند الخامسة صباحاً، ونحن متعبون ونشعر بالرغبة في النوم ولكننا لا نقدر على ذلك، سمعت همهمة بسيطة. خرجن فوجدت والدتي جالسة بجوار الدرج تبكي..

اقتربت أكثر، فظهرت لي الصورة بشكل أوضح. كانت على سجادة الصلاة تبكي وتبتهل إلى اللّه كي يلطف بنا..

لسبب ما، طلبت منا أمي التجهز للعودة إلى مزرعة الدورة، وقالت إن قلبها مقبوض، وإنها تحس بأنها ترغب في الذهاب إلى مزرعة الدورة والمبيت هناك..

استغربت خالتي رنا، وسألتها: «لماذا؟». ذكرت أمي أن الساعة هي الخامسة، وبدأ الفجر يتبلج أو يوشك على ذلك، ويبدو أنه لن تكون هناك ضربة اليوم..

العمة هيفاء كانت غاضبة، وحاولت إقناع أمي بعدم الرجوع إلى الدورة، ولكن لسبب ما ولقدر ما أصرّت أمي على ذلك..

ووعدت العمة هيفاء بأن نعود غداً عند الواحدة ظهراً..

ركبنا في سياراتنا. ركبت مع شقيقي علي في سيارته، ومعنا شقيقتي وهج وعاملة لهجتها قامشلية لطيفة. قام أخي بتشغيل المسجل على أعلى درجات الصوت بأغنية لهيفاء وهبي، وذهبنا بسرعة في شوارع بغداد الخالية، بينما تبعتنا والدتي ومعها البقية في سيارة باجيرو يقودها سائق غربي من منطقة «البيجي». لم نكن نتوقع أي خيانات من الكادر الموجود معنا.. فكادر جدي صدام الذي بقي معه في اللحظات الحرجة كان من الأقارب، وكادرنا كان من أناس نثق بهم ولكنهم لم يكونوا أقاربنا..

كانت هناك سيارة ثالثة خلف الجميع بمسافة، وبها الخالة رنا وأبناؤها..

كان شقيقي علي ماهراً ويقود بسرعة كبيرة، وصوت هيفاء يملأ جنبات السيارة: «أقول أهواك..!».

وصلنا إلى بيت «عمو صدّام» في مزرعة الدورة. ويقع خندق بن لادن الذي صنعته والدتي على بوابة المزرعة..

نزلنا بسرعة لكي نستخدم دورات المياه، وأنزلت العاملة المصلاوية، ولكنها اكتشفت أن المفتاح ليس معها، وتذكرنا أن المفتاح مع والدتي، فانتظرنا ونحن نتذمر من قولها..

بينما بقيت شقيقتي وهج في السيارة..

لاح ذلك الخيال من بعيد، كان يركض باتجاهنا وهو يحمل رشاشه.. في بداية الأمر، لم نستطع تمييزه..

وحين اقترب، اتضح أنه أحد الحرس من «وِلدنا» تحديداً.. قال لنا وهو يلهث من بين كلماته التي لم يكن يستطيع لفظها لفرط التعب..

«بدأت الغارة، ماذا تفعلون هنا؟».

لم نكن قد سمعنا صوت الغارة بسبب صوت هيفاء وهبي..

سحَبنا الحرس وركضوا بنا بحثاً عن مكان آمن.. كان ركضي بطيئاً بسبب لياقتي غير الموجودة.. لم يكن هناك أي وقت.. انتبه الحرس للملجأ، فأنزلونا إليه في اللحظة نفسها التي ضرب بها صاروخ قوي بيت العم صدام في المزرعة، والذي كان يفترض أن نكون داخله قبل دقائق لولا أن العاملة كانت قد نسيت المفتاح..

حمانا الحرس، ووضعوا ظهورهم كباب للملجأ الصغير لكي يحموننا من الشظايا، ثم أدخلونا..

كان الحرس يمثلون الصورة المقابلة للصورة الأخرى التي كانت للجواسيس والعملاء والخونة..

كان حرسنا نموذجاً نادراً للوفاء والتضحية ونكران الذات والعمل بصمت، وكانت والدتي تبادلهم الاحترام عبر الوقوف معهم في أفراحهم وأتراحهم.. لا أعرف أين هم اليوم؟ ولا أحد يعرف أسماءهم أو يميز وجوههم المنيرة.. ومن واجبي أن أوجه لهم في كتابي هذا الشكر على شجاعتهم وصدقهم في أحلك الظروف..

ضُرب البيت الكبير في مزرعة الدورة بدقة متناهية، وضُرب المجلس المطل على النهر، وغرفة مستقلة كنا نستخدمها كمخزن، وغرفة المهندسة. كانت الأهداف مقصودة.. أربعة عشر صاروخ «توماهوك»؛ منها اثنا عشر صاروخاً أصابت مزرعتنا والأهداف الموجودة داخلها، واثنان على مزرعة جدتي ساجدة المجاورة..

إذاً، ما هو تفسير هذه الحادثة؟

قبل الحرب بعشرة أيام، كانت هناك فرقة حماية تعرف الأماكن البديلة لكي تقوم بخدمتها وإيصال الأخبار والمعلومات لها..

كان هناك شخص من الأقارب اسمه إبراهيم يدعي التدين، وقام بتربية لحية كبيرة أثنا الإجازة لأنه يمنع تطويل اللحية خلال الواجب..

وحين بدأ ببناء بيت كبير؛ وهو ما لا يمكن القيام به بالنسبة إلى رجل مداخيله التقليدية معروفة، وغير سيارته واشترى سيارة فخمة، وفجأة أصبحت لديه الكثير من الأموال... أثار كل ذلك اهتمام جهاز الأمن الخاص الذي رصد تحركات مريبة له، وعدة زيارات سرية للشمال العراقي..

تم القبض عليه، وبالتحقيق معه اكتشفوا أنه جاسوس.. وقد باع معلومات عن البيوت البديلة الرئيسة مقابل مليوني دولار أمريكي للأمريكان.. وأعطاهم خارطة بيوت الدورة كلها؛ بما فيها بيت الجدة ساجدة، والبيت الرئيس في المزرعة الذي تم قصفه. ولما كانت الحرب غير نزيهة، فقد رأى بوش الأرعن أن يستهدف المنزل الذي سيتواجد فيه أحفاد صدّام وبناته لكسر إرادته وصموده..

لماذا لم يبلغ أحد عن المعلومات التي سربها إبراهيم!؟ تم الإبلاغ، ولكن المعلومات ضاعت في فوضى الأيام الأخيرة قبل الحرب وصعوبة التواصل مع خالي قصي وخالي عدي.. وكان قد تم إصدار قرار بإعدامه ولم ينفذ..

إذاً، لماذا تم قصف البيت الرئيس ولم يقصف المنزل الذي كنا بجواره أو الملجأ؟ الجواب هو أن معلومات إبراهيم كانت قديمة، وقد بنت والدتي

الملجأ قبل أيام، بالإضافة إلى ملحق صغير جداً لإحدى العاملات التي لم تكن لديها إمكانية دفع أجار بيت؛ وهو أيضاً غير مذكور في الخرائط... قدر الله ألا نموت في ذلك الحين!

* * *

بعد ساعة، ذكر جورج بوش الصغير في خطابه أن هناك هدفاً أسماه «فرصة» تم رصده، فتم استعجال الضربة، «الهدف الفرصة» كان استهداف النساء والأطفال، والهدف الذي تم رصده بالطبع هو سيارة البي إم دبليو الخاصة بعلي..

دقائق وسمعنا صوت أمي وهي تركض باتجاهنا. كانت سيارتها قد وصلت للتو.. صرخت والدتي: «جهالي.. جهالي» وأصرت على النزول معنا للملجأ.. حين بدأت الغارة قررت العودة لبيت الخال عدنان، ولكن الحرس أخبروها أننا سبقناهم إلى مزرعة الدورة، فقررت اللحاق بنا إلى هناك..

.. فأشرنا إلى أمي بالنزول إلينا في الملجأ.. كان رأسي فقط خارج الملجأ، ودعوت الله ربي بألا تكون هذه الصورة.. صورة أمي وهي تركض لكي تلتحق بنا آخر صورة أراها لها...

أتذكر الآن تلك اللحظات وكأنها ساعات طويلة..

* * *

وصلت أمي إلينا، وبعد لحظة تم قصف السيارة!

يبدو أن الرؤية لدى الجيش الأمريكي متقدمة بشكل كبير... هذه التكنولوجيا التي يستخدمونها؛ حيث تم رصد السيارة قبل أن تقف تحت إحدى المظلات بثوانٍ قليلة.. بالرغم من الظلام.. ورغم أنهم لا يعرفون المنطقة..

أهمية العلم.. لم تكن الحرب متكافئة!

وهناك حادثة مهمة حصلت؛ وهي أن الدولة قبل الحرب بفترة اشترت للمسؤولين مجموعة سيارات باجيرو ذات دفع رباعي، وقبل الحرب بأيام، تم اكتشاف أن في كل منها جهاز رصد يجعل إمكانية تحديد موقعها

بدقة متناهية متاحاً للأقمار الصناعية (...) فتم سحبها بعد اكتشاف أمرها..
كيف تحارب وأنت لا تمتلك سماءك الخاصة؟!!
دخلت أمي إلى الملجأ ومعها بنان وصدّام الصغير.. وكان الملجأ قد بني على الطريقة العسكرية؛ بلا باب..
نزل صاروخ آخر ثم آخر.. ومع كل صاروخ، كانت كمية كبيرة من الرمال تدخل عيوننا..
ارتفعت أصوات الدعاء، وكانت والدتي تحاول تصبيرنا.. في لحظات الموت، تنسى كل شيء.. كل شيء تماماً..
أتذكر هذا، وأتذكر جدي عند شهادته وكيف كان ثابتاً... وأستغرب!
انتهت الغارة بعد سقوط عشرة صواريخ على مزرعتنا. وفي القلب غصة، فدانا في هذه الغارة حرسنا وهم غرباء عنا.. وخاننا فيها إبراهيم وهو من أهلنا وأقاربنا.. ويحتسب نسيباً للعائلة ولو من بعيد..
كانت الرائحة في الملجأ رائحة الإسمنت والطين الحديث، كما كان الأوكسجين قليلاً لوجود العديد من الأشخاص في هذا المكان الصغير، وكميات الرمل الكبيرة.. ولكن، أثناء الأحداث لم أشعر بشيء، ومع توقف الصواريخ تذكر جسدي نوبات الربو، فأصبت باختناق مباشر، وهبط ضغطي، وتوقفت حاسة السمع لدي.. واسودت الدنيا..
أخذت أمي تقرأ في أذني بعض آيات القرآن الكريم.. وابتعد الجميع إلى الزاوية الأخرى لكي يمنحوني فرصة للتنفس..
كانت أمي تحاول أن تكون متماسكة وهي تدعو وتقول: «يا رب لخاطر التسعة..» وكانت تقصد أبناءها وأبناء خالتي رنا..
كانت تبكي، ولكنها كانت قوية وثابتة ولم تصب بالجزع..
مرّت عشرون دقيقة، ثم خمس وعشرون دقيقة.. وفجأة، نظر شقيقي علي إلى عينّي والدتي وقال: ((أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمداً رسول اللّه)). وهنا انهارت أمي..

اعتقدنا أن شيئاً ما سيحدث في اللحظة التالية..
ولكن لم يحدث شيء..
غير أننا رأينا جثة غريبة معنا في الملجأ.. جثة طائر مكسور القلب..
استغربنا وصوله إلى الملجأ.. كان هذا الطائر في قفص في البيت الكبير..
فكيف جاء إلى هنا؟! أحضره أخي الصغير معه.. ومات الطير من شدة الانفجارات. فعلمياً، لا تستحمل أدمغة الطيور الانفجارات بسبب أصواتها العالية..
في الأيام ما قبل الحرب، كان هناك ضابط ارتباط طلبت منه إحضار «سيديات» الأفلام لكي نتفرج عليها.. وحين ذهبنا إلى مزرعة الدورة، ارتكبت خرقاً أمنياً أفادنا في ما بعد؛ إذ أوعزت لهذا الضابط بأن يأتيني بالأفلام المصرية التي أحبها إلى مزرعة الدورة.. وحين ضُربت المزرعة وعرف الضابط بذلك، أخذ يبحث بشكل محموم عن خالي قصي، حتى عثر على الرائد علي التكريتي الذي توفي بعد الاحتلال -وهو ميدانياً الذراع اليمنى لخالي قصي- وأبلغه بأنه قد تم استهداف مزرعة الدورة وأن عماتي والأولاد هناك.. وذلك بعد أن شاهد نشرة الأخبار.
وكان الهدف الذي تعرض للغدر هو بالفعل مزرعة الدورة.. وقد اتخذ سائقنا الإجراء الذي اتخذه السائق الذي كنا معه من قبل و هي صور جميلة من صور التفاني والإخلاص الذي كان يكنه لنا "ولدنا" رغم قساوة الحرب وما يصحبها من قصف عنيف..
وفي فترات التقاط الأنفاس التي كنا نعيشها بين قصف وقصف وبين صاروخ و آخر..
و بهدوء تبادل الحرس النظرات فيما بينهم و هي تلك النظرات التي لم نفهمها ولكن والدتي رغد فهمتها على الفور و صرخت: "بهم فدوه لا تجيبون شيء خل تولي الاغراض".
والفدوة هي لفظ عراقي يقصد به فلتذهب الممتلكات فداء للنفس.. إلا أن الحرس كانوا مصرين على القيام بواجبهم كما تدربوا في أحلك

الظروف فغافلونا وانطلقوا إلى دائرة الخطر معرضين أنفسهم للقصف حاملين أرواحهم على أكفهم لإحضار أمر ما من السيارة أو من بقايا السيارة المحطمة.
وبقينا نعد اللحظات التي بدت طويلة كدهر حتى عادوا من غيبتهم.. كانوا يحملون حقيبة والدتي وبلا أي حرف وضعوا الحقيبة أمامها وعادوا لأخذ مواقعهم..
نظرت أمي بامتنان كبير.. فقد كان في تلك الحقيبة كل ما تبقى لها من حطام الدنيا.. مجوهراتها الخاصة وسيولة نقدية قد تحتاج لها في حالك الأيام القادمة.. وكان فوقها كنزها الأكبر.. مصحفها الخاص..
كان المصحف مليء بشظايا الزجاج المحطم بين أوراقه إلا أن أوراقه نفسها لم تتأثر..
حتى الكتب السماوية والقيم لم تسلم من حقد بوش الصغير وحربه التي ستبقى علامة تخزيه إلى الأبد..
هدأت أصوات الصواريخ مرة أخرى وطال الهدوء هذه المرة أكثر من الفترات البينية التي كانت بين الصواريخ الأثنى عشر والأربع عشر السابقة.
كنا نسمع جملا مختلطة وغير مفهومة خارج الملجأ..
بدأنا نتوضحها كلما اقتربت من مكمننا "طلعلياهم" ميزنا هذه الكلمة التي تكررت اكثر من مرة.. قال الحرس لوالدتي "إنه الرائد علي هل تخرجون له أم تحضره هنا؟"
وكان تردد الحرس في اتخاذ القرار منبعه خوفهم من المخاطرة بإخراجنا خارج ملجأنا.. حيث يمكن لتكنولوجيا الغزاة ان ترصد سيارة الرائد علي فتعاود القصف وبدقة أكبر هذه المرة.. وهو الأمر الذي قد يؤدي لمقتلنا جميعا لا محالة..
ولا تسلم الجرة في كل مرة..

أشارت والدتي للحرس لكي يصمتوا فتصيخ السمع وتتأكد من الصوت وبالفعل ميزت صوته.. لقد كان الرائد علي فعلا..

قالت أمي وبتأثر شديد وإحساس بالعاطفة وبوجود الحماية من جديد "إنه الرائد علي لنخرج بسرعة.. أكيد قصي دازه".

كان منبع تأثر والدتي هو إحساسها بأن خالي"قصي" يتذكرنا ويفكر فينا وهو في قمة انشغاله بالدفاع عن وطنه "ولدٌ أضيع.. وبلدةٌ رهن العذاب".

لا يوجد ما هو أصعب من أن تدافع عن أسرتك ووطنك في جبهتين مختلفتين..

الفصل الثاني عشر المغادرة: الهروب إلى سوريا ومغامرات البقاء على قيد الحياة

أخذنا الرائد علي وأبناء الخال عدنان في سياراتهم، ونحن متعبون ويعلونا الغبار. كانت السيارات تدور بطريقة عشوائية في البداية في شوارع بغداد، وكانت تقوم بالتمويه كثيراً. فهمنا أنهم يفعلون ذلك احتياطاً؛ في حال كانت السيارات مراقبة من قبل بعض الأقمار الصناعية...

نزلنا في منزل به مرأب واسع جداً. لم نعرف المنطقة، ولكنها كانت قريبة من المطار. كان من الواضح أنه أحد المنازل البديلة ذات المواصفات الخاصة. فقد كان المرآب الواسع مائلاً بزاوية كبيرة، حيث لا تظهر حركة السيارات ودخولها أو خروجها من المنزل..

قبل الحرب بيومين، ولأن سيارات الدولة معروفة نوعاً ما، تم تجهيز عدد من سيارات البيجو الصغيرة احتياطياً. لم تكن تحمل أي أرقام أو صفات مميزة لكي لا تعرف. ومشكلتها أنها كانت صغيرة جداً، ما اضطرنا إلى التخفيف بشكل كبير من مقتنياتنا.. وفي كل انتقال كنا نخفف من كمية الأغراض أكثر، حتى أصبحت أغراض العائلة كلها في شنطة كبيرة واحدة..

كان لدى أمي خمسة أطفال، ولخالتي رنا أربعة أطفال؛ ما جعل الجلوس في تلك السيارات مع السائق والمربية معاناة بحد ذاتها. أصرّت المربية الأرمنية على البقاء معنا، كانت شديدة الإخلاص والولاء..

اختلف موقف العمالة بحسب حالة كل منهم. ونحن أعطيناهم مطلق الحرية في اتخاذ القرار. البعض قرر البقاء بانتظار انقشاع الأزمة، والبعض الآخر قرر المغادرة واللحاق بأهله..

كان الأمر بشكل عام يشبه يوم انتظار وصول إعصار كبير؛ فالكل يعرف أن هناك كارثة مقبلة، لذا فضل أغلب العراقيين قضاء الأيام الأخيرة مع أسرهم..

لم يعلم العراقيون أن أسوأ ما في القصة..

سيكون بعد وصول الإعصار!

بعيداً عما يحدث خارج المنزل الآمن، كنا نمارس هوايتنا المعتادة حين بدأنا في الاستقرار به؛ أي محاولة كشف أسرار أصحاب المنزل.. ذكرتنا أمي وخالتي بأنه من الممنوع قطعياً الضحك بصوت مرتفع.. كان الضحك ناجماً عن رغبة منا بتنفيس الاحتقان والخوف المبهم في دواخلنا.. وكنا قد اعتدنا على أن نضحك ونتحدث في كل ظرف..

لم تكن هناك طاقة كهرباء في بغداد، وكان الماء يصل لمدة ساعة واحدة كل يوم.. لذا، كنت أستغل تلك الساعة لكي أغسل شعري وأقوم بعمل «سيشوار» له بينما الجميع يضحك مني ويعلق علي بالقول: «بأي حالة نحن»، فكنت أرد عليهم بإخراج علبة «المناكير» والبدء بصبغ أظافري.. وهو الأمر الذي سندفع ثمنه غالياً بعد أيام..

كانت والدتي تجلس وفي يدها مذياع صغير تسمع منه أخبار الحرب عبر المحطات العالمية..

وكل يوم أو يومين، كان واحد من الحرس يخرج لإحضار الاحتياجات الضرورية جداً فقط.. وكان خروجه يتم بطريقة لا تلفت الانتباه إلى

وجود سكان في هذا البيت؛ فالمنزل بالنسبة للجيران منزل مهجور منذ فترة طويلة..

كان طعامنا في تلك الأيام كلاسيكياً، وهو عبارة عن الأرز الأبيض «التمن» والحساء، وتوافرت لدينا الأمور الأساسية فقط، بالإضافة إلى أدويتي بالطبع..

كانت المربية تقوم أحياناً بالطبخ، وفي الأحيان الأخرى تطبخ والدتي والخالة رنا.. وفي أحيان أخرى، من شدة الضرب على المنطقة وعلى بغداد، لم يكن أحد يستطيع الطبخ..

كان القصف على بغداد متواصلاً، وألقي عليها عدد مهول من الصواريخ والقنابل وقوة النيران. لم يكن أهل بغداد ينامون ليلاً أو نهاراً.

* * *

وفي أحيان قليلة جداً، كانوا يسترقون بضع ساعات للنوم في ظل هدوء مؤقت. كانت حرباً وحشية استثنائية...

عند كل انفجار بحسب قربه أو بعده، كنا نحاول تخمين المعلم الذي تم قصفه: مدرسة، منشأة عسكرية، مستشفى، مصنع..

كان أغلب الضربات والقصف يركز على البنية التحتية؛ أي الشوارع، والتقاطعات المفصلية، ودوائر الكهرباء والمياه، وبيوت بعض الناس بشكل عشوائي. كما تم قصف القصر الجمهوري أكثر من مرة، وقصف منزل خالتي حلا للمرة الثانية.

كان لخالتي حلا منزل آخر ضُرب أيام الرئيس الأمريكي بيل كلينتون في حملة عام ثمانية وتسعين، ولم تعاود السكن فيه، حيث سكنت منزلاً آخر..

كما تم قصف قصر خالي قصي في الجادرية، وضُرب منزل خالي عدي وتم تدميره بالكامل، وقصرنا في الجادرية تم قصفه بثلاثة صواريخ أيضاً، ولكن ضُرب فيه طرف واحد فقط؛ لأنهم ضربوه من جهة واحدة. إلا أن والدتي لم تقم أصلاً بتجهيز الملجأ الموجود فيه لأن خيار البقاء فيه لم

يكن مطروحاً أصلاً لأن المجمع كله سيتعرض للقصف العنيف بحسب اعتقادها؛ وهو الاعتقاد الذي كان في مكانه.. حيث إن كثرة القصف لنقطة معينة قد تؤدي إلى ضغط على الملجأ؛ رغم أنه كان يجهز وينظف بشكل دوري، وفيه كل المستلزمات والاحتياجات.. إلا أن والدتي ألغته حيث بنت بابا له..

أتت على العراق في تلك الأيام سحابة رملية ضخمة وغير مسبوقة؛ فكثرة القصف على أرضه أخلت بالكثير من الموازين البيئية. ومن خلف ستار المنزل، كنا نشاهد الدنيا حمراء في الخارج. وبمجرد رؤية اللون في الخارج، كانت نوبات الربو عندي تتضاعف، فتطلب منهم والدتي إغلاق الستائر. كما كانت حالتي تتحسّن إن لم أشاهد المنظر في الخارج..

كنا نحاول «تزجية» الوقت بلعب لعبة إلكترونية اسمها «تيتريلز» نتناوب عليها جميعاً؛ حتى نفدت البطارية. لذا، طلبنا من الحرس إحضار بطاريات جديدة، ولكن أمي قالت منزعجة: «مو وقته!».

في المنزل، كان هناك تلفاز واحد صغير كنا نضعه في وسط الصالة ونشغله ظهراً وبصوت منخفض جداً، وكنا نشاهد فيه تصريحات وزير الإعلام العراقي آنذاك «محمد سعيد الصحاف». ولكن، بدا أنه مثلنا لا يعرف إلا ما نعرفه؛ على الرغم من أنه كان يؤدي عمله بشكل جيد. ولكن العراقيين شعب واع لذا لا يمكنك استغفالهم.. ولا تستطيع أن تُغيّب الحقائق عنهم.. غير أن تصريحات الصحاف رفعت المعنويات بالفعل..

ورغم أن كلام الصحاف لم يكن منطقياً، إلا أن الطرف الآخر أيضاً كان خداعه وكذبه غير منطقيين بشكل أكبر. ولا يمكن لوم الصحاف على جهوده في رفع معنويات المقاتلين والعراقيين؛ فالحرب المعنوية جزء لا يقل أهمية عن الحرب على الأرض..

كانت حرباً إعلامية بامتياز..

كان حرسنا يجلسون في داخل المنزل، وهم الحرس أنفسهم الذين حمونا بأجسامهم في مزرعة الدورة. اخترت لنفسي زاوية من المنزل كانت عبارة عن جلسة صغيرة أسفل السلم، إذ كنت أصاب بنوبات ضيق تنفس بسبب القصف، وكنا نبتعد عن كل ما هو زجاجي. وحين يبدأ القصف، كنا جميعاً نجلس على السلم لأنه قريب من الأبواب؛ بناء على تعليمات الحرس، وكانت هناك صالة كبيرة أيضاً.. وطاولة طعام نأكل عليها في المنزل ذي الغرف الثلاث..

حين تداهمني أزمة قوية، كان أحد الحرس يأخذني بصفته عمي ويذهب بي إلى أحد المستشفيات الحكومية، وكان اسمه ابن الهيثم، حيث آخذ إبرة لمدة ثلاثة أيام، ثم نعود إلى المنزل نفسه من طريق مختلف، وننزل في مكان بعيد عن المنزل، ثم نكمل الطريق إليه مشياً.. كنت أرى المصابين في الممرات الطويلة.. وكانت الغرف ملآى بمصابين آخرين بسبب القصف.. وكنت لا أخلع نظارتي الشمسية لكي لا يظهر بكائي عليهم.. كانت مناظر مؤلمة جداً، ولم أكن أذكرها لأهلي حين أعود كي لا يصيبهم الإحباط..

وفي الطريق، كنت أخاطب الحارس وأناديه عمّو خوفاً من الجواسيس؛ فقد كانت مشكلة الجواسيس في الحرب الأخيرة مشكلة رئيسة. جاء خالي قصي في نفس اليوم ليلاً ليطمئن علينا، وكان يلف رأسه بالشماغ العراقي، ودخل إلى المنزل للاطمئنان علينا. كان خالي قصي تقريباً في هذه الحرب هو قائد العمليات. احتضن خالي أمي وخالتي رنا، وبكينا عند رؤيته، ولكننا لاحظنا أن معنوياته عالية. سألنا عن صحتنا، واطمئن على أمورنا، ثم غادر بعد أن أعطانا وصية مهمة: «لا تقفوا عند الشبابيك.. ولا تنادوا بعضكم بعضاً بأسمائكم الحقيقية.. فالأمريكان وجواسيسهم يبحثون عنكم بالاسم..».

كنا سعداء جداً بالأخبار التي نسمعها في بدايات الحرب عن الصمود التاريخي لأم قصر، وكلما قالوا إنها لا تزال صامدة أكثرنا من التهليل والدعاء، ثم سقطت أم قصر..

وحزنا جداً لهذا الخبر..

وسقطت المحافظات الجنوبية بسرعة..

هناك أمور كثيرة وحقائق بقيت طي الكتمان في هذه الحرب. فبعد ما عرف بمعركة المطار، جاء خالي قصي وقال لوالدتي: «أخوانك أبلوا بلاء حسناً في معركة المطار.. ذبحنا العدو ذبح الكلب». فأجابته فرحة: «الحمد لله.. لكن، لا تكثر حضورك كي لا تتم متابعتك. فبقاؤك إلى جانب والدي في هذه الظروف وحول العسكر أهم منا... دعائي معك أخي الحبيب». وكانت والدتي وخالتي تحتضنانه بسعادة، وقد قال عدة جمل كان منها:

«لقد أخذنا بثأركم..»

«أصبح دمهم إلى الركب..».

وعندها، ذكر خالي قصي أن جدي كان يقود المعركة بنفسه، وأنها كانت معركة منظمة أبدى فيها جميع الجنود ضرباً من الإخلاص والإعجاب بإقدام جدي صدّام حسين وشجاعته، واستخدامه للآر بي جي باحترافية.. تلك المعركة التي أفشلت مخطط الإنزال الأمريكي في المطار..

كانت معنويات الجيش العراقي عالية فيها؛ فرجل في عمر جدي كان يقود المعركة بشكل مباشر، ولا يكتفي بالإشراف عليها. وللتاريخ، يجب علي أن أسجل حقيقة..

فخالي قصي على الرغم من شجاعته وبقائه في الصفوف ومروره على الفيالق إلا أنه ارتكب خطأً عسكرياً تكتيكياً. وقد جاءت نتائجه عكس ما يتمني في ما بعد ذلك، وأدت إلى إبادة فيلقين كاملين من الجيش

العراقي، فانهارت بعدها معنويات الجيش.. وذلك حين أمرهم بالتقدم في مكان لم يكن لهم أن يتقدموا فيه..
كان الفرق التكنولوجي كبيراً في ما يتعلق بالتقنيات العسكرية والسيطرة الجوية الأمريكية في هذه الحرب.. والحروب التي سبقتها بالطبع.. كنا نعرف أن ما يسقط من المحافظات لن يعود، ولكن عزاءنا كان في أن بغداد لن تسقط وستبقى، وسيبقى العراق.. أو هكذا كنا نتخيل..
كانت أمي تعيش في حالة من العزلة التامة، ومذياعها في يدها، ولم تكن تسمع مثلنا تصريحات الصحاف في التلفاز، ولهذا كانت معنوياتها أدنى من معنوياتنا بكثير، وكانت تكرر: «أنا أعرف غير عنكم، وأرى ما لا ترونه». وذلك بسبب متابعتها المستمرة للكثير من الأخبار على قناة مونتي كارلو. وكانت معلوماتها عن الحرب حديثة وسريعة..
كان الصحاف يرفع معنويات من يسمعه، وبدأت الأناشيد الوطنية تذاع في التلفاز..
كانت اللحظات الوحيدة التي تتفاعل فيها والدتي معنا حين يشدو قاسم السلطان ببعض الأغاني، فتضرب صدرها وتقول: «أويلي»، ثم تبتسم.. كانت تلك هي المرة الأولى التي تفقد فيها أمي تفاؤلها..
كان لديها إحساس عال بأنها ستكون حرب جدي الأخيرة..
لم تستطع والدتي وخالتي إخفاء خوفهما على جدي وحبهما له. وفي كل يوم، كانتا تسألان الحرس عن جديد الأخبار.. وكنا نفتح التلفاز كثيراً لعلنا نرى رسالة أو بياناً منه..
وكم كانت مشاعرنا جياشة حين ظهر. أحببنا معنوياته العالية، وآلمنا اشتياقنا له. كنا ننتظر الإعادة لنملأ عيوننا منه؛ سواء أحصل ذلك عبر تلفزيون «الشباب» أو القناة «العراقية».
أدركت حينها أن والدتي وخالتي رنا ورغم الزعل الشديد لم يجد الحقد يوماً طريقه إلى قلبيهما... ما جعل احترامي لهما يزداد. وكانت تلك هي

المرة الأولى التي تعلمت فيها أنه لا مبرر للحقد أياً كان السبب، ولا أعطي الحق لأي كان حين يتكلم بصيغة الكراهية، لأن ما مرت به أمي وخالتي كان مبرّراً كافياً، إلا أنني في الظروف الصعبة لم أشهد أي حقد، بل رأيت حباً كبيراً حل محل الزعل والغضب خلال كل السنوات التي مضت.
بالعودة الى الحرب، كان الجميع يتوقع صموداً استثنائياً لبغداد، إلا أنني أسررت إلى أمي بأنني أتوقع أن تسقط بغداد أسرع من المحافظات..
فأهل المحافظات عُربان يتقنون استخدام السلاح، بينما أهل بغداد أهل مدن، والحرب أصبحت تعتمد على السكان بقدر اعتمادها على الجيش؛ وخاصة بعد أن تم تحييده في الحرب..
نحن كأسرة -أنا وأمي وخالتي- كنا نعرف أن الجيش قد تعب. ولو كانت الحرب على الأرض فلربما كانت لا تزال دائرة إلى اليوم، ولكن ضربات الطيران الأمريكي قصمت الظهر بكل ما للكلمة من معنى.. كانت قوة الضربات لا توصف..
ذات مرة، كانت والدتي تتناول الشاي وظهرها للشباك، وجاءت ضربة قوية بدا معها زجاج الشباك وكأنه انتفخ ثم عاد إلى مكانه..
عندها، قامت أمي مذهولة مما حدث... ثم حمدت اللّه لأن الزجاج لم يتكسر..
أحببنا «تزجية» الوقت في معرفة أصحاب المنزل..
ولمن كان؟
من عاش فيه؟
وكيف كانت ذكرياتهم؟
لم تكن في المنزل أية صورة عائلية أو شخصية..
ولا أية أوراق ثبوتية..
ولا فواتير.. لا شيء مطلقاً..
رأينا بالقرب من السلم اسم «فاروق»، وقد كتب بخط رديء كنوع من الذكرى..

فأسمينا المنزل فوراً: «بيت فاروق ومرته!».
كنا نتسلى بتخيل العائلة، وقررنا أن «فاروق ومرته» والدان لطفلين، وأخذنا نتخيل أشكالهم ونضحك..
حين يتوقف القصف لمدة عشر دقائق، كنا نحاول استعادة حياتنا، ونضحك..
ومن الأمور التي لا ننساها أن خالي «قصي» -رغم مشغولياته- كان يتابع أخبارنا بشكل دقيق ومستمر في تلك الفترة..
قبل سقوط بغداد، جاء الرائد علي من طرف خالي قصي لزيارتنا مرة أخرى، وأبلغنا بضرورة الإخلاء والذهاب إلى مكان جديد سيأخذنا إليه الحرس. ذهبوا بنا على وجه السرعة إلى منطقة مطوقة أمنياً لا توجد فيها نقاط يمكن استهدافها وتسمى منطقة «الأربع شوارع». دخلنا إلى منزل واسع وكبير وجميل، أثاثه مرتب ويبدو أنه جديد، ويعود لأناس هاجروا. رأينا هناك لمى وأبناءها، ففرحنا بهم بشكل كبير واحتضناهم، ولكننا فهمنا أن الأزمة قد وصلت إلى ذروتها؛ وهو ما دفع بهم إلى جمعنا مرة أخرى. كانت لمى في ذلك الوقت صديقة الأسرة، وكنا نحبها وتحبنا. أصبحنا مدللين جداً في هذا البيت.. حيث لا تسمع فيه أصوات الصواريخ على الأقل..
كان مكوناً من طابقين، وزجاجه عازل للصوت والرصاص؛ ما يجعلك تحس بعزلة عن أصوات القصف والصواريخ في الخارج..
كانت غرف الأطفال في الأعلى، وتوجد غرفة لمصطفى ابن خالي قصي الذي أصبح لا يتنقل إلا ورشاشه في يده، وتحت قدمه خمس رشاشات أخرى أو ست..
تحسنت معنوياتنا جداً حين رأينا مصطفى؛ فقد كان بطلاً حقيقياً..
تحدثنا إليه ونحن نضحك ونصفه بالقول «أبو بطن» لكثرة ما يتحدث عن الطعام ويحبه، فجأة، قال لنا: «أشتهي كباب».

استغربنا طلبه هذا.. فضحك وقال لنا إن الحياة مكتوب ما فيها، وعلينا أن نعيش ونحب حياتنا إلى آخر لحظة. وقبل أن نجيبه، طلب من السائقين أن يحضروا للجميع وجبة كباب عراقي أصلية..

كان المطار قريباً نوعاً ما، وفي غرفة مصطفى كنا نسمع صوت القصف بالرغم من عازل الصوت؛ وهي إشارة غير جيدة. وصلت وجبة الكباب العراقي.. كانت لذيذة جداً..

استمر القصف القوي، ونمنا في ذلك اليوم في حجرة لمى، ونام الأبناء في غرفة مصطفى. كانت والدتي وخالتي رنا عصبيّتين جداً، وترغبان بالمعرفة، ولا معلومات لديهما عمّا يحدث..

في الليل، كانت زوجة خالي لمى تعتقد أنني نائمة.

وأنا لم أكن نائمة. وكنت أسمع بكاءها وابتهالاتها في صلاتها على السجادة...

بأن يحفظنا اللّه!

ربما كانت آلامها أكبر من آلامنا؛ فزوجها يقود العسكر بنفسه، لذا كانت تقلق عند سماعها أي انفجار في الخارج. كنت أكره نظرة الحزن في عينيها، فأحاول المزاح معها، وأسألها: «إذا جاء الجنود الأمريكيون إلى المنزل، ماذا سنقول لهم؟».

فتقول لي: «نسوي أنفسنا مو إحنا...».

الشعور المشترك لدى الجميع كان الرغبة في ألا يأتي اليوم الذي نرى فيه الجنود الأمريكان يطأون أرض بغداد... وحتى إن حدث ذلك، كنا نتمنى ألا نكون في بغداد حينها.

في آخر ليلة لنا في هذا المنزل، طلب لنا مصطفى وجبة كباب مرة أخرى، فأحضر لنا الحرس صحناً مليئاً بوجبة شهية، ولكن شهيتنا للطعام لم تكن كما هي عادة. كنا قد أوقدنا الشموع لأنها لاتُظهر الإضاءة، وكان مصطفى إيجابياً وضحوكاً دائماً. ولكنه بعد العشاء قال جملة سلبية أتت على ما تبقى من معنوياتنا..

فقد قال لنا مصطفى بدون أن يتردد وهو المتفائل بطبعه: «اكلوا.. اكلوا.. اشبعوا، فهذه آخر وجبة كباب عراقي سنأكلها في العراق معاً».
صمتنا بعدها.. غضبنا منه متهمينه بالتشاؤم.. فيجيب علينا بهز رأسه مع كتفه: بكيفكم، لا اتصدكوني.. وكانت نبوءة..
نبوءة صادقة إلى حد مخيف..
نبوءة العشاء الأخير...
مصطفى ابن خالي قصي ذو الأعوام الأربعة عشر... الفتى الشهيد... كان رجلاً في جسد طفل. كان ذا مسؤولية عالية تجاه الجميع، وكنا نعتمد عليه في الكثير من الأمور، ونحس بالحماية بوجوده. حتى إن والده كان يعتمد عليه في أمور لا يعتمد فيها إلا على الرجال...
كان ينام ورشاشه تحت قدميه. ومع كل قصف في منتصف الليل، كان يفزع من نومه «يفز»، ويأخذ رشاشه بسرعة، ويوجهه باتجاه الخارج، فنضحك عليه كثيراً، بينما هو يدير عينيه بيننا ليتأكد بأن الجميع بخير، ثم يسأل أمه وعمّتيه: «أمي بخير؟ عماتي زينين؟».. ويقضي الليل متنقلاً ما بين الطابق العلوي والأرضي ليطمئن على الجميع أو يخرج للحرس للاطمئنان عليهم أيضاً ومتابعة المتسجدات معهم.. كان غالباً ما يرجع وتعلو وجه علامات الحزن، نعرف جيداً أنه سمع أخباراً سيئة، نسأله؟ يرفض أن يجيب خوفاً على معنوياتنا.
كان صديقاً للجميع، ويحب الأمور الشعبية. إذ كان يحب الأكل في المطاعم الشعبية، بل ويحب تناول الفطور في أكشاك الشوارع، باقلاء بالدّهن أو ساندويشات فلافل وغيرها... وحين كنا نسأله عن كيفية قدرته على القيام بذلك، كان يجيب ضاحكاً: «أصلا الساندويش يصير طعمها أحلى من توقف عليها ذبانه».. لكن سرعان ما تنسينا صدمتنا لوصفه ضحكته المميزة المعدية.. ولم يكن له باع في الألبسة أو الموضة؛ إذ كان يحب ارتداء قميص عادي وبنطال شعبي لا أكثر، ويقضي

مع الحرس جل وقته، ويأكل بيديه، ويجلس دائماً على الأرض، ويكنى والده قصي به... «أبو مصطفى!».
كان حنوناً جداً، وصاحب روح فكاهية، وبراءة سرعان ما ترتسم على وجهه مع ضحكته. وقد تعرض لتحجيم في الخروج من المنزل بعد محاولة الاغتيال التي طالت خالي «عدي». لديه أصدقاء معيّنون من مدرسة الشبيبية، وهم غالباً من أبناء أقاربه أو معارفه. اشترى له خالي قصي سيارة «فولكس واكن» ذات لون أخضر فاتح. وكان يقودها داخل المجمع ويسميها «الدعسوقة». وكانت من طراز حديث جداً في ذلك الوقت أهداه إياها أبوه.
كان لديه صوت خشن مميز جداً. وفي أيام الامتحانات، كان يختبئ في تلك الدعسوقة، وأحياناً يتصل من داخل مجمع القصور بالرقم الرباعي المخصص لقصرنا، ويقول لي إنه قادم، فنقوم بجولة في السيارة. كان أخاً لي، ويحب تسليتي والترفيه عني. وكنا نضحك كثيراً، ويجبرني على الاستماع إلى الأغاني العراقية في سيارته، وقد كان يطرب لها على عكس بقية الأحفاد الذين يفضلون الأغاني العربية في ذلك الوقت. كان يتواجد معنا في «الاجتماعات» التي نعقدها دائماً، والتي تكون كارثية النتائج...
كان جدي صدّام حسين لديه المقدرة على منح جميع الأحفاد شعوراً بالمساواة، وبأنهم جميعاً مميزون لديه، ولكنه كان يعتمد على مصطفى في الكثير من الشؤون؛ رغم صغر سنه...
فمنذ طفولته، وفي الأيام الجميلة في منزل الرضوانية، حين كان مصطفى طفلاً صغيراً، كانت جدتي ساجدة تطفئ جميع الأنوار، فيصبح المنزل مظلماً بطريقة مخيفة، ونغني ونحن نلعب الورق، ونضحك ونقول: «يوجد في الأسفل آيس كريم، من يذهب ويحضره لنا؟». وكان الأمر منتهياً بالنسبة لنا، فمن الذي سينزل في هذا الظلام الدامس المخيف؟! إلا أن مصطفى كان يذهب دائماً للأسفل ويحضره... وكنت

دائماً أقول عنه: «هذا الولد شجاع ولا يخشى الظلام». كان مصطفى على قدر عال من المسؤولية، بل الأكثر مسؤولية تجاه الأسرة ووالدته بين الأحفاد.

مصطفى الذي لم يخذل جده وقدم حياته للعراق أثناء حياة جده... كان سيفتخر به شهوراً طويلة قبل أن يرتقي ويجتمع به... بالحديث عنه، لابد لي من أن أذكر حقيقة لطالما آلمتني.. فمع الوقت، تقبلت فقدان الجميع، واستطعت تخطي هذا الأمر؛ إلا غياب مصطفى واستشهاده. فأنا لم أتخطه لأنني لم أجد سبباً مقنعاً لكي يستشهد صديقي البريء في عمر الرابعة عشرة. ما زلت أفتقد إليه. غاب عني ولم يغب.

أرسل جدي بعض حرسه إلينا ومعهم سيارات، وطلبوا منا الاستغناء عن الحاشية؛ أي ترك المربيات وحرسنا الخاص والذهاب معهم...

لم نثق بهم، ورفضنا، وقلنا لهم إنه لا دليل لديكم، ولكنهم أصروا وقالوا إنها أوامر «السيد الرئيس».

عندها، «تهسترت» زوجة خالي لمى، وصاحت بنا، وطلبت منا الانصياع للأوامر، وذكرتنا بأن المكتوب لنا سيحدث. صعدنا إلى السيارات، وكان التخلي عن الحاشية الموثوقة والذهاب مع غيرهم خطوة صعبة جداً علينا..

في الطريق، كنا نسألهم: «إلى أين؟» ولا جواب... عانينا من الجوع والعطش والرغبة في استخدام دورات المياه. ومع اتضاح معالم الطريق، عرفنا أننا نتوجه نحو العوجة... لم نتوقف ولا لحظة..

وصلنا إلى العوجة مسقط رأس العائلة، وتم إدخالنا إلى بيت بسيط بدا أنه لأحد الأقارب الذي تطوّع لاستقبالنا فيه...

في المنزل، التقينا الجدة ساجدة وخالتي حلا. وعندها، عرفنا أننا وصلنا إلى قمة أعلى من قمة الأزمة التي كنا بها قبل أيام..

بقينا هناك ليومين، ولكن المعنويات كانت «صفر». ذهب حرس جدي، وكان حرس جدتي ساجدة موجودين، ولكننا لم نكن نثق بهم أيضاً...

مرضت والدتي وآلمتها معدتها، وكانت الدنيا قد أصبحت دافئة في العوجة... لذا، كنا نستغرب كل هذا البرد والنوافذ مغلقة. وبعد فترة، اكتشفنا أن النوافذ أغلبها مكسور، فقامت جدتي بتكوير بعض الجرائد وإغلاق الفتحات المكسورة في النوافذ بها..

أخذت جدتي عاملتين، ونظفت المنزل البائس قبلنا...

لم نكن نحب الحرس الخاص بجدتي ساجدة، ولا نحس بلحظة من الأمان معهم..

كان هناك في المنزل حليب مصنع وعسل نأكله مع خبز ونشرب من الحليب. طبخت جدتي مرتين، ولكن أحداً منا لم تكن لديه شهية لتناول الطعام.. في المطبخ، أخبرت أخي «علي» أن والدتنا مريضة ومنهارة، وعلينا أن نمنحها القوة والتصبر، ونخرج من هذا المنزل ونأتي «بوِلدنا» أي حرسنا الذين نثق بهم. قررنا أن نخبر أمي لكي نأخذ موافقتها، وتحدثنا في هذا الأمر أنا وعلي ومصطفى. وكنا مُجمِعِين على أنه إذا حانت اللحظة، فهؤلاء الحرس لن يتوانوا عن التواطؤ مع العدو لتسليمنا مقابل مكافأة..

ذهبنا أنا وأخي علي إلى حيث كانت أمي تستلقي مريضة على أريكة بدائية الصنع، واحتضناها وقبلناها، وقلت لها إنها كانت وستبقى قوية طوال عمرها، وذكرتها بأننا في مرحلة حرجة جداً وصعبة، وعلينا أن نكون مع من نثق بهم.. «معنوياتك العالية تهمنا وتصبرنا. وإذا انهرتِ فلن نستطيع ترتيب أمورنا.. ماما، شدي حيلج وقومي، إحنا محتاجيج».. فنظرت لنا والدتي وبالدقيقة نفسها استجمعت قوها وقالت لي: «يالله، كنت أفكر في هذا الأمر نفسه للتو». كنا متفقتين على أن بيجي التي ينتمي إليها حرسنا قريبة من العوجة. طلبت والدتي من جدتي ساجدة أن تطلب من حرسها إحضار حرسنا، ولكن جدتي رفضت بشكل قاطع. جدتي ساجدة لم تكن تتصور أنه يمكنها الثقة بالغرباء، وكانت تثق في حرسها «الأقارب» فقط، وتعرفهم منذ زمن طويل..

أخبرتها والدتي رغد بأنه علينا ألا نضع كل بيضنا في سلة واحدة..
كنا نختلف عن جدتي ساجدة وعن زوجة خالي لمى التي لديها أكثر من خيار؛ منه إخوانها ووالدها ماهر عبد الرشيد، أما نحن فالخيارات أمامنا كانت جميعها ضمن حلقة الأصدقاء..
توجهت جدتي ساجدة بسؤالها إلى أمي: «أين ستذهبين؟». وكان القلق والحيرة ظاهرين عليها، وبدا أنها مشوشة التفكير..
فأجابتها والدتي: «لا تقلقي، لي معارف كثر.. سأتدبر أمري».
وفعلاً ذهبنا مع بيت خالتي رنا إلى الخارج ليلاً. وفي هذا اليوم، وفي هذه المرحلة، كان القرار للنساء..
حيث كان رجال العائلة مشغولين جميعاً في أرض المعركة.. يقارعون العدو والاحتلال. هنا جلست والدتي عند قدم والدتها قائلة لها: «ماما احنا كيكة بالكريم بالنسبة للعدو.. عدوج شرس ولا نعرف ما سيحدث وستختلط الأمور كثيراً..
أبي وأخوتي في أرض المعركة.. وعلينا نحن إدارة معركتنا الخاصة..
علينا نحن أن نتخذ قراراً نخرج فيه بأقل الخسائر».
نظرت جدتي وهي في حيرة من أمرها، حيث اعتادت أن يقرر رجال العائلة عنها..
وافقت جدتي على رأي أمي على مضض..
وفعلاً، بدأنا بتحضير أغراضنا، وتوجه كل منا إلى السيارة المخصصة له بعد توديع بعضنا بعضاً..
وهنا حصلت مشادة بين أحد أقارب جدتي (حرسها) مع أخي علي..
كانت والدتي تحمل الرشاش على كتفها عندما حصلت تلك المشادة بين الحارس وعلي، فأزاحت والدتي «علي» بيدها اليمنى، ووضعته خلفها وقالت لقريب جدتي: «إياك أن تتجاوز أو تسمح لنفسك بأن تتجاوز على أي فرد من عائلتي وإلا.. -ووضعت يدها على السلاح- فسترى ما لا يعجبك».

حينها، رأينا الحرس وقد تغيرت وجوههم ولهجتهم، وطلبوا منا العودة إلى الداخل، وقالوا لنا إن الرئيس قد طلب منهم عدم السماح لأحد بالخروج وإلا سوف يقص رؤوسهم..

ما أقلقنا فعلاً هو نظرات عيونهم؛ إذ كانوا لا يستطيعون النظر إلى عيوننا، والآن ينظرون بكل صلافة. تحدثوا إلينا بعنجهية، وطلبوا منا العودة إلى الداخل..

خرجنا في سيارتين إحداهما يقودها حارس من حراس خالتي حلا، والأخرى يقودها أحد حراس جدتي ساجدة، ولكنه ليس من الحقراء واسمه أركان.. كنا نتبعه لكي يوصلنا إلى الدور، ثم إلى بيجي حيث يمكننا أخذ حرسنا من هناك والتصرف..

قمنا برمي حقائبنا الكبيرة، واحتفظ كل منا بحقيبة صغيرة جداً بها الاحتياجات الضرورية فقط. وعلى الرغم من صعوبة الموقف وحساسيته، كان ذلك الحارس/ السائق أكثر شخصية كوميدية رأيناها في العراق لحد مغادرتنا. كان كما يقول الأجانب: يعرف كل شيء عن اللا شيء، مزيج من الليمبي و«مستر بن»..

لم يكن يعرف الشوارع ولا الطرق ولا التقاطعات ولا كيفية القيادة. وكل دقيقة، كان يكرر عبارة: «لا تخافون أنا أعرف الطريق»..

بسبب توهانه الكثير مررنا بنقاط فيها قوات من البيشمركه؛ والتي كانت تعتبر معادية في تلك الحرب، فعرفنا أن بغداد قد سقطت. لم نكن نشك في إخلاص السائق، ولكننا نشك في قدراته إن كانت موجودة.

ساعات طويلة في الطريق، ثم: «لا تخافون، أنا أعرف الطريق».. كانت جميع الطرق مغلقة، وبدأ الظلام. وكان السائق ينام فعلياً أثناء قيادته، فتحدثه والدتي كي لا ينام: «أنت نائم يا أركان؟» يرد: «لا.. ولا تخافون أنا أعرف الطريق»... أضاع خالتي رنا في السيارة الأخرى، ما أدى إلى ضياع ساعة ونصف أخرى حتى عثرنا عليهم..

كان السائق يرتدي قميص «تي- شيرت» في رأسه، ما زاد من الكوميديا السوداء للمشهد..
كلما مررنا بأحد كان أركان ينزل من السيارة ويسأل عن الطريق ثم يعود، فتسأله أمي: «أركان، هل أنت تعرف الطريق أم تزمط؟». أي تبالغ..
يغضب أركان بشكل مضحك والقميص في رأسه من الأعلى، وكأنه «غتره» أضاعت عقالها «أم علي.. أقسم إنني لا أزنط». يقولها بالنون لأنه لا يعرف الكلمة.. يكاد أركان يبكي لما اعتبره إهانة، بينما نحن نمنع أنفسنا من الانفجار ضحكاً.. تأخذ والدتي بخاطره وتقول له: «لا تزعل.. ولكن أوصلنا». فيكرر مرة أخرى: «لا تخافون أنا أعرف الطريق»..
وصلنا إلى «الدور» بشق الأنفس، حيث كانت والدتي ترغب بالذهاب لدى صديقتها هوازن عزت إبراهيم، كبرى بنات صديق جدي.. وأخبرتهم والدتي وخالتي بأنهما «فلانة» و«فلانة»، أي بأسماء ليست أسماءنا الحقيقية؛ لما تتطلبه المرحلة، ولكي لا ينتشر خبر وصولنا.. ومباشرة، أنزلنا أهل «الدور» في منزل شعر، ولكنه مرتب بطريقة حديثة، يعلوه جريد النخيل، وفي منتصفه باحة مفتوحة، وخصص لنا به سجاد عراقي بلاستيكي، وعدد من الأرائك والجلسات. كان أهل الدور أصحاب موقف وأهل ولاء عال، وأخذوا يكررون علينا أنهم رهن إشارتنا في أي أمر نحتاج إليه. واختلف الناس في أيهم أحق باستضافتنا، وأكرمونا بكل ما نحتاج إليه، وسمعنا للمرة الأولى بأن البعض أخذ ينزل العلم العراقي ويرفع العلم الأمريكي في بعض مناطق العراق.. وعلى الرغم من هوسنا بالنظافة، إلا أن رحلة «أركان» التي طفنا بها نصف العراق جعلتنا نلقي بأنفسنا على الأرض كيفما اتفق، ونغيب في نوم عميق، ولا يعلم أحدنا على ساق من رقد!..
من التعب أحسست بحشرة متناهية الصغر دخلت عيني، فلم أكلف نفسي عناء إخراجها، ونمت ونامت في عيني.. نمنا على حسيس التسبيح والتهليل من والدتينا..

في الصباح، استيقظنا حوالي السابعة.. كان الجو منعشاً وبارداً على عكس الجو الخانق في بيت فاروق ومرته. أحضروا لنا الفطور خبزاً ساخناً وطعاماً، وأخبرونا بعدم إمكانية العودة إلى بغداد مع الأسف..
عرفنا هنا أن بغداد قد سقطت..
وبشكل رسمي..

* * *

هنا عندما حضر أفراد عائلة السيد عزت إبراهيم، وبعد أن جلسوا مع والدتي -فهم إخوة وأصدقاء منذ الطفولة- قررت والدتي أن تترك المكان في اليوم نفسه.. حيث أخبرها أحمد عزت أن المكان لن يكون آمناً لفترة طويلة.. فقررت ترك المكان، لكن دون أن تبلغ أحمد بالوقت الذي تنوي ترك المنزل فيه.. وفعلاً، تركنا المكان في المساء، وجاؤوا بعد ذلك في اليوم التالي ليجدوا المنزل فارغاً وقد تركه الجميع..

شعرت والدتي أن أحد الأشخاص الذين كانوا معنا يمكن أن يخوننا، حيث ظهر عليه الاضطراب، ولم تكن تريد أن تترك الدور معه.. كي لا يعلم الآخرون بالطريق الذي سنتوجه إليه.. فقالت له: «شكلك قلق على زوجتك؟؟». قال لها: «لدي ابنة صغيرة، وقد اشتقت لها جداً»... وبكى... هنا، تأكد لها أنه خائف من مصيره القادم معنا.. فقالت له: «ليش ما تروح من الصبح مبكراً إلى زوجتك تطمأن وترجع. وإحنا ننتظرك لحد ما ترجع ونغادر لمكان آخر». فأجابها: «أكيد أروح وتنتظروني؟؟». فقالت له: «ننتظرك أكيد».. كي تعفيه من المسؤولية أمام العائلة؛ حيث شعرت أنه غير مهيأ ولا مؤهل لتلك المسؤولية.. وتأكد لها ذلك عندما حاورته.. فقرر أن يذهب إلى أهله. وعند ذلك، قررت والدتي ترك المكان بسرعة قبل عودته.. وفعلاً تركنا المكان متوجهين إلى كركوك.. في الطريق، تاهت عنا سيارة خالتي رنا مرة أخرى.. والمشكلة هنا أكبر، حيث كانت هناك نقاط سيطر عليها حرس البيشمركة على الطريق بين الحين والآخر.. وقد

أوقفونا لغرض التفتيش، ولكنهم لم يعترضونا لكون السيارة فيها نساء وأطفال.. هذا الموقف يُحيّر لهم؛ فتلك صفات الرجولة الحقيقية للرجال، بغض النظر عمّا إذا كنا نختلف أم نتفق معهم.

بدأ الحرس بالتحدث وجمع المعلومات من أهل الدور، ومن الذين كانوا يحرسون منزلنا، والذين أبلغوهم أن المنطقة غير آمنة ومحسوبة على الأستاذ عزت الدوري، وهناك الكثير من العيون المفتوحة... فجاءنا الحرس وقالوا لنا إنه علينا التحرك بسرعة..

فبوجود «وِلدنا» أحسسنا أن نصف الهم قد أزيح. في الأزمات، لا يوجد ما هو أفضل من أن يكون بجوارك من تحس أنك تستطيع أن تضع ثقتك به...! كانوا سنداً حقيقياً لنا...

تعبنا جداً في الطريق، فأنزلنا الحرس في منطقة على الطريق فيها بيت من طين، عند بعض العرب. كان البيت صغيراً جداً، وصاحب البيت يعرفه أحد الحرس. نزلنا من السيارات، وعرف الحارس عن والدتي بأنها زوجة أخيه، وعرف عن خالتي رنا بأنها شقيقة زوجة أخيه، وكنا بالطبع أبناءهما. أبلغهم أننا ذاهبون لزيارة أقاربنا في الموصل، وقد مررنا بالطريق لكي نرتاح ونبيت لديهم لمدة ليلة واحدة. عند وصولنا إلى منزل على الطريق في منطقة كركوك، كانت هناك امرأة متوسطة في السن. رحبت بنا، وجذبت أنظارنا نظافة البيت الشديدة؛ إذ كان «يلمع» كما نقول على بساطته. كانت هناك «فرش» رفيعة تعرف «بالجودليات» موضوعة بنظام على الأرض؛ وهي عبارة عن صوف يتم برمه للجلوس عليه. لا أذكر اسم المنطقة، ولكن المرأة الكبيرة كانت ذات فضول عال، وكانت تسأل باستمرار، ثم تسرح بعيداً وهي تحلل وتفكر. أحضرت لنا المرأة العشاء على صينية عليها خبز وبيض وجبن. كانت صحونها نظيفة جداً، وكان أكلها نظيفاً، ولديها حمام شرقي نظيف أيضاً..

كانت أظافري مصبوغة كالعادة. وحين وضعت المرأة الصينية لم أمد يدي للأكل بسرعة لكي لا تلاحظها المرأة. فلم يكن شكل يدي شكل

يد امرأة فلاحة، أو امرأة تقوم بالأعمال؛ كان من الواضح أنها يد لا تعمل. ولكن المرأة لم تفتها هذه الملاحظة، فقد أمعنت النظر في يدي وفي جميع أيادينا ولم تعلق. كنت قد انتبهت إلى يدي، ورغبت بتنبيه أخواتي وبنات عمي، وتذكرت قصة انستاسيا ويديها ولكنني خشيت أن أنبههن وتعرف ربة المنزل.. تناولنا الطعام، ونمنا لديها بعضنا فوق الآخر كالعادة..

قبيل الفجر، كانت أمي تريد إدخال أحدنا إلى دورة المياه لكي لا يتسخ المنزل النظيف، وسمعت والدتي المرأة وهي «تتبسبس» مع زوجها، وتحدثه بصوت منخفض.. هو يسألها: «هل أنت متأكدة بأنها هي؟».. وهي ترد عليه بقوة وثقة: «جاي أقولك.. هم..» تقصد والدتي.. ثم تجيبه: «متأكدة.. فقد شاهدتها سابقا في إحدى مزارعهم مع زوجها». كانت تطلب منه أن يذهب بسرعة، وهي بهذه الأثناء ستقوم بإلهائنا.. فقد كانا يخططان لأمر ما..

كان خيط الفجر قد بدأ بالظهور.. والساعة السادسة صباحاً..

في الأزمات، تظهر المعادن وتبان النفوس؛ فيظهر الطيب كما يظهر الجانب المظلم عند البعض. لقد أرادت هذه المرأة تسليمنا لجهة ما والحصول على مكافأة.. كان هناك مخطط ما لنا.. ففي أيام الرخاء، يكون الجميع طيباً ومسالماً وجميلاً، ولكن عند الأزمات يتمايز الناس.

كان البيت صغيراً جداً، والصوت ينتقل فيه بسرعة. قامت أمي بتحذيرنا وإيقاظنا بلا صوت، وانتظرت أمي بعد أن قدرت الطريق إلى نقطة البيشمركة؛ لكي يصل رسول المرأة إلى نصف الطريق لكي نتحرك. فهكذا، سيكون إرسال أحد في إثره غير مجد.. وعندها، طلبت منا أمي الخروج فوراً إلى السيارات.. ولم نكن قد شبعنا من النوم وبنا رغبة للعودة والنوم... وليعتقلونا بعدها...

لم تكن لدينا رغبة بتوديع المرأة التي كانت تردد: «أين تذهبون؟ للإفطار!... هل ضايقتكم؟ هل قصرت في شيء ما؟ افطروا ثم اذهبوا..» شكرناها على ضيافتها بعجل، وكانت تنظر إلينا متحسفة على الكنز الذي ضاع منها..

انطلقنا بسرعات جنونية، وحسبنا الطريق بأنه حتى لو تم التبليغ عنا فلن يلحق بنا الآخرون..

أوصلنا حرسنا إلى الموصل.. كانت الموصل آمنة جداً، ولم تتعرض للقصف أو أصوات الصواريخ المستمرة، ولم تتضرر في الحروب السابقة كثيراً، ولها أجواء تختلف عن بقية العراق بخضرتها وطبيعتها الخلابة. كانت تلك زيارتي الأولى لها، وانبهرت بها جداً..

ثلاثة أسابيع كانت متبقية على يوم ميلاد جدي صدام حسين. وعندها، تناثرت الإشاعات هنا وهناك عن اقتراب حدث مهم.. عندما وصلنا إلى المناطق فوق الموصل حيث بقينا لحوالي ثلاثة أسابيع، وقبل أن نغادر البلد كنا نسمع من يسكنون البيت يقولون إن الرئيس يهيئ لعمل عسكري كبير..

ذهبنا بناء على نصيحة من إحدى صديقات والدتي إلى شيوخ ربيعة. وكانت صديقتها قد أشارت عليها بضرورة التوجه إلى شيخ من شيوخ ربيعة، وقالت لها إنه ليس لديها إلا أن تذهب إليه. وبالفعل ذهبنا إلى ديوانه، حيث استقبلنا استقبال الفاتحين. كانت ضيافتهم أكثر من رائعة، وتم تخصيص الطابق الأعلى من مضيف الشيخ لنا لكي يخفينا عن الفضوليين والجواسيس. كانت الذبائح تنحر لنا في كل يوم، واهتموا بأدق التفاصيل. وكانت زوجة الشيخ تجلس معنا بشكل دائم، وتركز على الكرم العربي الأصيل، بل وحرصت على أن لا نشاهد التلفاز، ورفعته من غرفتنا بحجج مختلفة كي لا تتأثر معنوياتنا.. خاصة في ذلك اليوم الذي كنا نجلس فيه على الدرج ونشاهد التلفاز..

لم نشاهد حتى اللحظة صور المرتزقة وبعض ضعاف النفوس في العراق وهم يسقطون تمثال جدي. ربما سقط التمثال، وهو في النهاية مجرد حجر، ولكن ذكراه لن تسقط كانت قريبة شيخ الربيعة ذات نفس طيبة وشخصية مرحة. حين يزورها ضيوف، كنا نخرج ونجلس على السلم، بزاوية لا يرانا فيها الضيوف، ولكن نرى الشيخة منها. لم نكن نريد المجازفة.. كانت مضيفتنا شيخة عرب بامتياز، وكلما سمعت والضيوف خبراً في التلفاز... انفجار هز بغداد.. كانت تكرره بفرح لكي نسمع... «يقلك انفجار هز بغداد»..

جاءت العمة سهام لتطمئن عن أخبارنا، ولكن خوفاً علينا، أنكرت ربة المنزل وجودنا.. ورأينا العمة سهام تغادر من موقعنا على السطح..

أحسسنا أننا بين أهلنا، بينما كان أبناء الشيخ يتناوبون على خدمتنا وأخذنا في جولات وغيرها..

للحرب النفسية جوانب عديدة، فمن «تكتيكاتها» إعطاء الأمل ثم سحبه؛ الأمر الذي يحطم المعنويات. وهي القصة كما في إشاعة العمل الضخم في ذكرى ميلاد جدي؛ فحين مرت دون أن يحدث أي شيء تأثر الكثيرون وأحبطوا..

وكذلك أصوات انفجارات بغداد من الجانب الآخر كان وجودها مهماً لأنها تعني أن الحرب لم تنته بعد..

ظللنا ننعم بكرم العائلة الكريمة وولائمهم التي لا تنقطع.. كان بيتاً لا تنطفئ النار فيه كما يقول العرب.. أبدى فيه الصغير قبل الكبير الكثير من الاحترام والتقدير لعائلة صدام حسين. وكان كل يوم لنا هناك وكأنه اليوم الأول في حسن استقبالهم..

كان لديهم الكثير من العمال بين الثانية عشرة والستين من أعمارهم، وكانوا يتغيرون باستمرار. وعلى الرغم من تغييرنا أسامينا إلا أن العدد كان كبيراً، والخرق الأمني وانتشار المعلومة كانا واردين جداً...

بالفعل، سويعات قليلة وانتشر خبر في الإعلام بأن بنات صدّام حسين قد التجأن إلى شيخ من شيوخ ربيعة فوق الموصل. وكان في هذا خطر حقيقي، فالناس الذين أكرمونا قد نسيء إليهم دون قصد بسبب وجودنا لديهم، وقد نحرجهم ونؤذيهم بوجودنا..

سمعت نبع الحوارات التي تدور بين شيخ ربيعة وبين والدتينا..

وقد سمعت الشيخ وشقيقه حين جاءا وتحدثا مع والدتي، وقال الشيخ مخاطباً والدتي: «.. واللّه، لو جاءنا من جاء فلن نقوم بتسليمكم. لدينا مقاتلون من ثماني سنوات إلى ثمانين عاماً. كل من يحمل السلاح سيقاتل كي لا يمسكم أي أذى. ولكن، في النهاية سيصلون إليكم بعدتهم وعتادهم؛ رغم أن ذلك لن يتأتى لهم إلا بعد المرور على جثثنا واحداً بعد الآخر. ولكنهم في النهاية سيصلون، ونحن من مبدأ الحرص عليكم وليس الخوف أو التراجع عن حمايتكم سنعيدكم إلى الموصل، ونرسلكم إليهم لحين عودة الريس..».

كان الرجل يتكلم بصدق وبأدب.. رفضت والدتي العودة إلى الموصل نهائياً، وقررت الذهاب الى سوريا قائلة: «لن أعود خطوة واحدة الى الخلف..».

ثم أبلغته والدتي بأننا لا نملك أي جوازات سفر، فأخبرها بأنه لا مشكلة في ذلك، ويمكننا دخول سوريا «تهريب» بمساعدة أبناء عمه.. طلبت منا والدتي أن نأكل بشكل جيد لأن وراءنا «مشواراً»..

ثم غادرنا مضارب ربيعة في وقت بين الظهر والعصر، وركبنا في سيارتي نصف نقل..

علمنا بعدها أن الأمريكان قد داهموا المنزل بالفعل بعد فترة من مغادرتنا، بل وقامت مروحية عسكرية بالإنزال على السطح الذي كنا عليه.. وسألوا عنا.. واستجوبوا بعض الأطفال ظناً منهم أنهم نحن إلى أن تأكدوا أنهم أبناء أصحاب المنزل..

وقد عرضوا مكافأة كبيرة على أهل المنزل إن أخبروهم إلى أين توجهنا..

وما هي خطتنا، ولكنهم رفضوا..
كانت الأرض في الطريق غير مستوية، وكانت الرحلة مشقة حقيقية؛ حتى وصلنا إلى الحدود السورية أو ما يعرف بالساتر.. هناك نزلنا من السيارات، وبدأنا بالمشي نزولاً وصعوداً..
وكانت مدة الاستراحة عند تبديل «الورديات» تبلغ عشرين دقيقة فقط، ويجب علينا العبور خلالها..
كان الوقت قبيل الفجر، وأحذيتنا قد ملأها الطين؛ وهو ما كان يثقل من مشينا، بالإضافة إلى أن الأرض لم تكن مستوية. التقينا أحد ضباط الحدود السوريين الذي كان شخصاً مرتشياً، وقد طلب منا مبلغاً من المال مقابل إخراجنا وإيصالنا إلى إحدى القرى السورية..
ولكننا كنا محتاجين إليه لكي يدلنا على الطريق، فأي تحرك على الحدود كان حرس الحدود سيقومون بفتح النار عليه مباشرة؛ حيث كانت هناك دوريات شرطة حدودية بين الحين والآخر. كان بحوزة أمي هاتف ثريا أعطتها إياها الشيخة، وطلبت منها أن تطمئنها لدى وصولها. كان حرسنا يحملون متاعنا الخفيف..
كان المهرب بين الحدود يمشي بسرعة كبيرة، بينما اضطررت أنا للوقوف لالتقاط أنفاسي.. فقد تعبت أنفاسي بسبب الربو..
كما كانت خطوات أخوي بنان وصدّام الصغير صغيرة على قدرهما، فصرخ فينا المهرب مطالباً إيانا بالمشي السريع. توقفت لأخذ بخة من ((الفانتولين)) فسقط مني في الطين وبدأت أبحث عنه، فقال المهرب: «سأذهب... وهي مشكلتكم وحدكم إن لم تلحقوا بي».. أمسكنا بأيدي بعضنا بعضاً وبدأنا بالسير خلفه، وتناوبنا على حمل الصغار، وصلنا إلى إحدى القرى السورية..
نظرت خلفي إلى أرض السلام التي لم تعد كذلك منذ ذلك اليوم..
نظرت إليها للمرة الأخيرة..
ولم أر العراق بعدها قط!

بعد الحدود السورية، جلسنا في غرفة استراحة في منزل من الطين معلقة عليه صورة حافظ الأسد -رئيس سوريا آنذاك- لنلتقط أنفاسنا... تطلعت والدتي إلى خالتي رنا وسألتها: «هل تفكرين في ما أفكر فيه؟». فابتسمت خالتي رنا وقالت: «نعم».. فقد فهمت ما قصدته والدتي سريعاً..
تذكرت والدتي وخالتي قصص جدي صدام حسين حين عبر الحدود هرباً من السلطة بعد محاولته اغتيال عبد الكريم قاسم. فقد هرب جدي من النقطة نفسها وبالطريقة نفسها..
وبمعاونة مهرب مرتش وطماع أيضاً..
رفع تذكر القصة معنوياتنا جميعاً..
جاءت سيارات تتبع لمشايخ من قبيلة شمر لأخذنا، وتم إسكاننا في شقة أرضية في بناية سكنية في مدينة حلب مكونة من غرفتين وصالة، وصالة مشتركة، ومطبخ. بدأنا بتقسيم أيام التنظيف..
كالعادة، كان من شروطي للتنظيف ألا أقوم بتنظيف الشرف الخارجية، ولا أي شيء به غبار، وأكتفي بغسل الصحون بسبب وضعي الصحي. لذا، تم تحديد غسيل الصحون كمهمة لي ولنبع ووهج، وأمي وخالتي للطبخ، بدأت غسل الصحون! ولم يكن الأمر سهلاً، فقد كانت تلك هي المرة الأولى لنا في تجربة غسيل الصحون..
بعد مدة، أي في الأيام التالية، بدأ الجو يسخن. بينما جئنا بثيابنا الشتوية،
لذا كان لا بد لنا من شراء ثياب جديدة..
وللحفاظ على السرية، أجلنا موضوع شراء الثياب أكثر من مرة، وكنا ننام بملابس ليست صيفية. ولكن بعد فترة، أصبح الأمر أكثر صعوبة.. وبعد موافقة والدتي، كان لا بد لي من الذهاب إلى محلات «بينتون» لشراء بعض الملابس مع خالتي وبدون والدتي؛ وذلك حتى لا يلاحظ أحد مكان

وجودنا في حلب. ذهبنا لشراء بعض الملابس والغيارات، ذهبت مع أمي، وكانت قد أوصتني بألا أناديها ماما، وتم إعطائي اسماً آخر غير حرير..
وفي غرف قياس الملابس، طلبت مساعدة إحدى الموظفات، وفجأة سألتني: «ما اسمك؟»... تأخرت لحين اختيار اسم غير حرير، وفي النهاية ضحكت وقلت لها إنني قد نسيت اسمي..
ناديت خالتي رنا لأريها شيئاً ما باسمها البديل كما اتفقنا: «فلانة.. تعالي وانظري». وبعد قليل، وفي غمرة الاختيارات النسائية التي تجعلنا ننسى كل شيء، نادت نبع خالتي: «ماما»..
كان الناس في العادة يستغربون من مناداتنا أمي وخالتي بكلمة ماما؛ وذلك لصغر سنهما حين تزوجتا..
بدأت العاملة في المحل تشك في هذه العائلة الغريبة، إلا أن خالتي رنا بررت كل شيء، وحاسبنا بالدولار الذي لم نكن نملك عمله غيره، وبدأنا نخشى أن يلاحظ أهل المدينة وجودنا؛ لأن أهل المدينة يتعارفون في ما بينهم.. وقد يميز الناس أننا لسنا من «سكنة» هذا البلد، ويلاحظون بعض الأمور بمرور الوقت، فتخسر الحالة الأمنية التي كنا نحرص على الحفاظ عليها..
أصبحت والدتي ترسلني كل فترة لشراء احتياجاتنا. وفي كل مرة، كنت أنزل إلى الشارع ومعي مائة دولار أمريكي لشراء بعض المواد الغذائية. ولأن الأسعار في سوق سوريا ليست مرتفعة مقارنة بالأسواق الأخرى في غيرها من الدول.. فهذا المبلغ لشراء بعض الأساسيات للمطبخ والمنزل كان مبلغاً كبيراً بالنسبة إلى طفلة، وكان لا بد أن يجذب الأنظار..
بدأ العمال في «بنيتون» يستنطقونني: من أنت؟ ما هو عمل والدك؟ أين تعمل أمك؟
أما بالنسبة لحرسنا فكانوا قد عادوا إلى العراق، وبقي معنا حارس واحد.. كانت هناك شكوك في المنطقة حول العائلة الغريبة، ولكن لا وجود لتحرك رسمي..

ذات مرة، ذهبت إلى «بنيتون» لكي أقوم بشراء مناشف قبل سفرنا إلى الأردن، مناشف ذات ألوان مختلفة.. ذهبت وقمت بشراء عدة ألوان من المناشف لي ولنبع ولوهج، فجاءت إحدى العاملات لمساعدتي. قلت لها: «ساعديني في اختيار لون مناسب..» وفجأة سألتني: «ما لون غرفتك؟».. سرحت وأنا أتذكر بخيالي ألوان الغرف التي سكنتها وبتأثر.. حتى وصلت بذاكرتي إلى غرفي في العراق.. كنت أردد ألوان الغرف في سري.. وأحاول التذكر..

«كانت حمراء».. قلت ذلك بتأثر.. فردت علي العاملة: «هلا شو صارت؟»..

أجبتها: «صارت خضراء»..

كان من الواضح أن أمرنا قد انكشف..

بينما كانت نبع تقف على مقربة مني وقد دمعت عيناها بسبب الضحك..

ليس هناك ما هو أجمل من ابنة خالة متعاونة!

بدأ الصيف، وكان البيت بلا مكيفات. الأطفال الصغار راحوا يبكون من الحر في أحيان كثيرة. أما نحن فكنا نقوم بتبليل رؤوسنا لكي نحصل على بعض البرد. كنت أبلل «البيجامة» وأنام فيها كي أحصل على بعض البرد..

قررت أمي شراء مكيفات، وتبديل الدش الذي يملأه الصدأ، وإجراء بعض التعديلات الخفيفة لجعل حياتنا أسهل..

بدأنا بإحضار مكيف واحد وضع في الغرفة الكبرى، والتي كان الكل ينام فيها أثناء الليل.. كما بدأنا بالعودة إلى الشجار بسبب الوضع النفسي السيئ.. فالتوتر في طبيعة الحال كان يجعل أعصابنا مشدودة جداً.. كنا نشاهد الأخبار يومياً..

ونشتري جميع احتياجاتنا من «سوبرماركت» يسمى «سوبرماركت وليد».

كنا نشتري منه الأطعمة والمستلزمات والحلويات والألعاب..

بعد فترة، قام «سوبرماركت» مجاور لمكان السكن بشراء المحل الذي إلى جانبه والتوسع، فكنا نقول لبعضنا ضاحكين: «كله من ورانا!».
كان هناك رجل يدعي الجنون أصبح ملازماً لباب البناية بشكل دائم، ويرصد كل شاردة وواردة بحجة جنونه..
كان مجنوناً يراقب بشكل دقيق..
مجنوناً حكومياً إذا صح التعبير...
بدأنا نخرج أكثر. وكنا نذهب لشراء الأغذية.. كان الطعام الحلبي بشكل عام متميزاً، وقد أحببناه كثيراً.. التجربة كلها كانت جديدة علينا بكل تفاصيلها..
كنا نذهب بكثرة الى شارع به الكثير من المطاعم، وسكانه مرتبون ومثقفون، وبه نسبة كبيرة من السكان المسيحيين..
حلب.. ربيعة.. بغداد.. لقد دمروا كل جميل في هذه الأمة.. ثم يقول البعض إن «المؤامرة» نظرية فقط!!
كان الشارع يخصص للمارة صباحاً.. ومساء، يبدو أن سمعته لم تكن جيدة.. تعرفنا على امرأة محجبة كانت تسألنا عن أحوالنا كثيراً.. وتلح في السؤال.. أحببناها و«تبسطنا» معها.. وحين نقلنا ما حدث معها لوالدتنا، طلبت رقمها منا والذي كنا قد سجلناه على ورقة ثم قطعته.. شكت والدتي في أنها كانت من النسوة اللاتي يستدرجن البنات.. أُصبِنا بالصدمة ونحن الذين صدقنا أنها كانت ترحب بنا كبنات لها!.
ذات يوم، ركبنا في سيارة أجرة في طريقنا إلى المنزل، وأخذ السائق يكيل الشتائم للرئيس العراقي «الذي دمر البلد».. سكتنا ولم نكشف عن هويتنا، وبقي السائق يسترسل في مسباته.. ودمنا يغلي.. كان الأمر يختلف عن الأردن التي يعشق فيها سائقو سيارات الأجرة صدام حسين بشكل استثنائي..
وفجأة، فقد شقيقي أعصابه وقال للسائق: «ما أسمحلك!».. فوجئ السائق وقال: «انتو شعب تحبون اللي يظلمكم».. غمزني شقيقي،

وقررنا أن نلقنه درساً. لذا، هبطنا أمام بناية أخرى بعيدة نسبياً عن منزلنا، وأطلقنا سيقاننا للريح دون أن ندفع..
كنا نختتم كل خروج لنا بشراء «بوظة» حلبية شهية.. وبالطبع، لا ننسى شراء «بوظة» للمجنون القابع أمام بوابة البناية..
كثيراً ما يسألنا السوريون حين يعرفون أننا عراقيون. «أتحبون صدّام؟». كنا نستغرب هذا السؤال الذي نعتبره سخيفاً، ونجيب عليه بسرعة. «طبعاً!».
من المشاكل التي تعانيها المجتمعات العربية أنها تقيمك بناء على ما تحب وما تكره. فإن تطابقت مع رأي السائل فأنت إنسان جيد، وإن لم تتطابق فأنت إنسان سيئ..
وإذا أردنا لمجتمعاتنا أن تتقدم فلا بد من تغيير هذا الأمر؛ وهو من الأمور التي تبدأ من قمة الهرم أولاً. وهذا أيضاً من الدروس المستفادة مما حصل في العراق..
ذات يوم، صحونا من النوم على أصوات بكاء وصياح وعويل، ونحن نسمع «عدي... قصي... إخوتي».. رأينا خالتي رنا وأمي تبكيان وهما تطالعان الأخبار التي نقلت مقتل خالي عدي وخالي قصي في أحد منازل العوجة.. كانت خالتي تبكي وتقول: «ما الذي فعلوه بإخوتنا؟».. مادت الأرض بنا..
ذهبنا إلى الأسفل بسرعة، واتصلنا بأحد أقاربنا من الحلقة القريبة، فرد علينا ضاحكاً وهو يقول ما معناه: «هل صدقتم هذ التأليف؟! إنها دعاية أمريكية، جثث أحضروها من عندهم للتأثير على معنويات الرئيس صدّام». كان يتحدث بالشيفرة بالطبع.. أعجبنا أن نصدقه.. فقد أردنا في دواخلنا أن نصدقه..
عز الدين بدوره الذي ضحى والدي بحياته وعلاقته مع خالي عدي وقصي من أجله، بدأ فجأة يتصل بأمي بإلحاح، ويحاول إقناعها بالهجرة إلى «لندن»، ويقول لها إنه قد رتب الأمور.. وسيكون لها مسكن وراتب كبير

وحراسة على مدار الساعة.. على أن تفعل ذلك كشخصية متضررة في زمن صدّام..
غضبت أمي ورفضت بشدة.. وأغلقت الحوار مع عز الدين وحسمته وهي تقول له: «لن أفعل أي شيء ينال من والدي في ظل هذه الظروف! ويعتقد أنني تركته ثانية.. وينال من معنوياته». كان الكل يريد أن ينال من معنويات جدي.. اتصلت صديقة لأمي، وكانت أمي تثق بها ثقة كبيرة وتستشيرها، وسألتها عن سبب الرفض، فقالت لها أمي: «كيف ألجأ للمحتل؟ وما زال والدي يقاتلهم على الأرض؟ بالتأكيد، إن الأمر سيؤثر على معنوياته في القتال».. فأيدتها صديقتها الحكيمة في رأيها..
لم نسمع بعدها صوت عز الدين الذي كان اتصاله «للاطمئنان» مرة أخرى!

* * *

لم نكن ننوي البقاء في سوريا. قررت أمي لقاء آصف شوكت؛ الشخص المسؤول عن الملفات الأمنية في سوريا. لذا، قامت والدتي بشراء زي رسمي، وقبلناها وودعناها ونحن ندعو لها بالتسهيل، ثم ذهبت إلى دمشق بالسيارة لمدة أربع ساعات. تم إدخالها إلى مكتبه، وأخبرته أن كل ما نرغب في الحصول عليه هو التواصل مع جهات عربية تمكننا من مغادرة سوريا، فاستغرب وسألها: «ألا ترغبين بالبقاء هنا؟؟». فقالت له: «أبداً لا أرغب في البقاء في سوريا. ونحن سنتدبر أمورنا». وقد وعد بتوفير جوازات سفر بديلة لنا لتسهيل انتقالنا خارج سوريا. آصف شوكت الذي تصفه أمي بأنه كان لطيفاً ولكنه غير ودود.
بالطبع لم يقم آصف شوكت بالوفاء بأي من الوعود التي قطعها. كان كلاماً القصد منه كسب الوقت فقط.. علماً أنه وعدها كذلك بأنه سيتواصل مع الجهات الرسمية العربية التي رغبت بالتواصل معهم، وعلى رأسها الأردن، كي يقوموا باستضافتنا هناك..

اتصل عمي جمال بوالدتي من بغداد. لم يكن عمي جمال عسكرياً، وقام بفتح مضيف في بغداد، تكية للدراويش نوعاً ما، حيث إنه لم يكن محسوباً على نظام جدي صدّام حسين، بل ربما يتم تصنيفه من قبل البعض كمعارض له لكونه شقيقاً لوالدي وسُجن في العراق أثناء وجود والدي في الأردن. أخبر عمي أمي بأنه تعرف على صحفي أردني اسمه سعد السيلاوي كان يعمل مع قناة العربية، ويبدو أن لديه علاقات واسعة في الأردن، وطرح على أمي إمكانية الانتقال إلى الأردن. وكان شرط سعد السيلاوي الوحيد هو أن تمنحه أمي انفراداً بلقاء صحفي إذا تمت الصفقة..

كان الأردن خياراً رائعاً لطبيعته المتطورة، وهو ليس غريباً عنا لأننا زرناه عام ١٩٩٥. بقيت مشكلة الجوازات التي لم نستطع استخراجها من بغداد بسبب فوضى الدوائر الحكومية، وكره المسيطرين على مقاليد الدوائر الجدد لجدي صدّام حسين وعائلته..

بدأت بقراءة سورة «يس» أربعين مرة بنية الحاجة والفرج للمرة الثانية في حياتي. كانت هناك عشرات الاتصالات تجري بيننا وبين عمي جمال، ومع السوريين الذين أصروا على وضعهم في الصورة بشكل كامل عند أي تحديث لمجريات الأمور مع الأردنيين، ومع شيوخ عشائر شمر في سوريا.

كان النظام السوري حين تحدثه السلطات الأردنية يقول إنه ليست لديه أي فكرة عن وجودنا في أراضيه. وحين نتصل به يقولون لنا إن جوازاتنا جاهزة ولكن ينقصها «ختم»، وقد أصدرنا جوازات عراقية مزورة!!

وإن الأردن لم يتصل بهم بأي شكل من الأشكال، والأردن كدولة مؤسسات لم يستطع التحدث إلا عبر القنوات الرسمية، والعراق بمؤسساته الرسمية غارق في الفوضى.. كان يجب أن يكون بشكل رسمي بين الدولتين..

الصورة لدينا كانت واضحة. فالحكومة السورية ترغب ببقائنا لكي نكون ورقة ضغط تستخدمها متى رأت حاجة إليها. قام السوريون ذات

يوم بالتحقيق مع حرسنا، وسئلنا عشرات المرات عن المبالغ التي بحوزتنا (...).. كان هاتفنا مراقباً دائماً، وكنا نسمع فيه الكثير من الوشوشة..

وحين وصلنا إلى نقطة اللا عودة، أرسل الملك عبد الله الثاني شقيقه الذي نحبه علي بن الحسين في طائرة عسكرية خاصة هبطت في مطار دمشق، وكلف الأمير علي بإحضارنا مهما كلف الأمر..

وصلنا الخبر، فخرجنا من حلب في «باص» وسيارة أجرة. ولا أنسى ذلك الموقف حين رأينا الأمير «علي» في المطار بزيه العسكري، يرافقه عمي جمال. كان موقفاً لا ينسى من الأمير علي الذي حرص على مرافقتنا والتأكد من سلامتنا والاطمئنان علينا. وهكذا هي المواقف التي تكشف المعادن. فأين من خاطر بحياته لنقلنا، ومن كان كل همه أن يعرف «كم نحمل معنا من الكاش»؟!!

كانت في الطائرة كراس عسكرية، وصعدنا إليها الصغار بعد الكبار. كنا نتعثر بالأرضية غير المستوية، وكان هناك قماش بلون أخضر زيتوني يغطي كل شيء. رفعه شقيقي علي، وأشار لنا بأن الطائرة كانت ملأى بالأسلحة. ويبدو أن الأمير «علي» كان يهيئ نفسه لاحتمال حدوث مواجهة..

وفي الأردن، تم نقلنا إلى قصر الندوة مباشرة. كان استقبالنا في الأردن استقبالاً رائعاً... لم نشعر ولو ليوم واحد بالغربة هناك. وبعد يوم من وصولنا، سمعنا البيان الذي أصدره جدي بخصوص مقتل خالي عدي وخالي قصي، والذي قال فيه للعالم كله إنه لو كان يملك مائة ابن لما تردد لحظة واحدة في أن يقدمهم فداء للعراق.. لكن مع ذلك، تم إبلاغ والدتي وخالتي بأن كل ذلك غير صحيح، وهو فقط لتمويه العدو وصدقنا الأمر لمدة طويلة.. أواه يا جدي.. ما أكبرك!!

كانت عواطفنا متأرجحة بين فخرنا برد صدّام حسين على محاولة النيل من صموده، وبين خوفنا من أن تكون قصة مقتل الخالين

حقيقية.. نتساءل، وتمتزج مشاعرنا عندها: لماذا يقول جدي هكذا؟ جدي لا يكذب أبداً.. فلماذا ينعى ابنيه!؟
هل الخبر صحيح؟
والخبر الصاعقة الذي آلمنا هو ذكر الكثيرين لصحة قصة مقتل مصطفى معهم..
مصطفى بطلنا الصغير... نحن أحفاد صدّام حسين.. عرفنا من العائلة في ما بعد أن خالي عدي كانت حركته صعبة، فلازمه شقيقه خالي قصي، وطلبت زوجة خالي لمى من ابنها مصطفى أن يلتحق من اليوم ليكون مع أبيه وعمه لتقديم المساعدة..
وكانوا يتنقلون بين جيوب المقاومة التي بقيت..
تذكرت المرة الأخيرة التي رأيت فيها مصطفى وهو يشهر سلاحه..
فالقصة تقول إن أحدهم كان في المنزل مع خالي عدي وخالي قصي ومصطفى، وقال لخالي إنه خارج ليحضر خبزاً، ولكنه تأخر، فقال خالي عدي لخالي قصي: «لقد تأخر صاحبنا. أعتقد أنه ذهب للإبلاغ عنا»..
وقرروا الخروج. وحين أرادوا الخروج اكتشفوا أن المنزل محاصر..
قاوموا بالسلاح الموجود لديهم لأكثر من ست ساعات، وقاتلوا ككل بطل في عائلتنا قتال الأبطال.. ونالوا النهاية التي تليق بهم..
لا هاربين ولا خائفين..
بل شجعاناً مقاتلين..
ورحل معهما مصطفى..
ويبدو لي أن مصطفى كان يخفي عنا الكثير من مهاراته القتالية، وتدريبه، وربما صفته الحقيقية في كتائب «فدائيو صدام»..
أذكر المرة الأخيرة التي رأيت فيها مصطفى.. كان أطول ما عرفته..
أضخم ما عرفته..
أجمل ما عرفته..
كان قد حلق شعر رأسه بالكامل..

كان عريساً لم يزف إلى الشهادة بعد... ولكنه يعرفها وتعرفه..
وأي فوز بعد الشهادة!
التقينا بعد تلك الأحداث بفترة بجدتي ساجدة وخالتي حلا، وبدأتا تقصان علينا ما تعرضوا له؛ ما جعلنا نحمد الله. فكل له مصيبة خاصة، وتعرض لمواقف لا يحسد عليها..
ففي العوجة، نزلت جدتي ساجدة وبقية نساء الأسرة في منزل إحدى القريبات، وتعرضن للسرقة في ذلك المنزل، ثم استبدلنه ونزلن في منزل آخر. حصلت مداهمة للمنزل الذي كانت به جدتي ساجدة، ودخل الجنود وهم يحملون صورة لجدتي، وعرفوها رغم لبسها الخمار.. ثبتت خالتي حلا، وكانت تجيب عن الأسئلة التي يطرحها الجنود بقوة وشجاعة تليق بابنة صدّام حسين، واستمر التحقيق معها لمدة ثماني ساعات في صالة ذلك المنزل. وكان الجنود الأمريكان سعداء لأنهم وقعوا على الكنز الذي يبحث عنه الجميع؛ إذ شاء الله أن جدتي كانت قد دفنت أموالها ومقتنياتها من الذهب والألماس في باحة ذلك المنزل. وأثناء التحقيق، وبينما كان الجنود الأمريكان يفتشون المنزل بحثاً عن الأسلحة، أعطى الجهاز إشارة إلى وجود معدن مدفون، فاستخرج الجنود الأمريكان الأموال والذهب والألماس، وعلموا أنهم إذا أعلنوا القبض عن جدتي وخالتي فسيكون هناك محضر تسليم واستلام يشمل هذه الأموال والذهب. لذا، اجتمعوا ثم قرروا تحت نظر جدتي أن يقتسموا تلك الأموال في ما بينهم، وألا يظهروا أنهم عثروا على جدتي..
وبالفعل، بدأوا باقتسام الأموال والألماس والذهب في ما بينهم.. وجدتي تنظر إليهم غير مصدقة أن هذا الجيش ليس إلا عبارة عن مجموعة من اللصوص.. وقطاع الطرق.. أخذوا كل الرجال الموجودين في المنزل كأسرى وضمانة..
وتركوا النساء اللواتي قررن مغادرة المنزل الذي كان داخل المزرعة بسرعة..

بعدها، انتقلت جدتي إلى سوريا، وكنا نحن قد ذهبنا إلى الأردن، فلم نلتقِ في سوريا. ولكن، كان من الواضح أن السوريين قد أدركوا ما أحدثته المعاملة التي لم تكن كما نتمنى معنا، لذا لم يكرروا الخطأ نفسه مع جدتي ساجدة، وتم استقبالها بشكل رسمي بكل التفاصيل، وأعطيت قصراً، وتم السماح لها بإدخال كل ما بحوزتها من سيارات وخلافه. وكان الرئيس السوري يسأل عنها بشكل مباشر، وأخبرها أنهم على الرحب والسعة إن أرادوا البقاء لسنة أو لعشر سنين. لم تطل إقامة جدتي في سوريا، وبعدها ذهبت مع كل أفراد العائلة إلى قطر التي ما زالت تستضيفهم إلى اليوم..

* * *

بدأنا نسمع أخبار جدي من القادمين.. فهنا قصة تصف المقاومين الذين رأوا شبحاً يقاتل ببسالة في منتصف الليل ويطلق قذيفة على دبابة أمريكية، وحين نقلوه اكتشفوا أنه صدّام حسين..

وآخر يروي أن جدي مر على مقاومين، وقد رآهم يائسين فأعطاهم ساعة الصفر لإطلاق عملية معينة. وفي ساعة الصفر، عاد إليهم فلم يجدهم قد نفذوا، وقالوا له إن بغداد سقطت فما الفائدة من التنفيذ؟ فغضب عليهم غضباً شديداً، وأخبرهم أن صوت البارود يكفي لإبقاء شعلة المقاومة متقدة في نفوس العراقيين..

قال أحد المسؤولين الأمريكان إن طباع العراقيين صعبة. وصار العراقيون يتداولون المزحة التي تقول: «أنتم تحتاجون إلى ثلاثة صدام حسين للتعامل معكم...» فعلاً، نحن العراقيون نعرف جيداً فيما بيننا أن لنا طبيعة ليست سهلة، وقد استطاع جدي أن يتعامل معها ويحافظ على وحدة مكوناتها.. ووحدة أرض العراق التي تجمعهم..

بعد فترة، رأينا كما رأى العالم كله صور القبض على جدي، ولكننا عرفنا منذ اللقطة الأولى بأنه مخدر. فجدي لا يحرك رأسه بهذه الطريقة، ولا يحرك يديه هكذا.. وكنا نعلم أنه لو اتحد العالم ضده فهو لا يخشى

الموت، ولكننا استغربنا من سذاجة البعض في تصديقهم قصة القبض عليه في حفرة.. وشاء الله أن يبرئه بعدها، وذلك حين رأى الناس حقيقته في المحاكمات وفي نطقه للشهادة..

مثل ذلك الرجل.. لا يمكن أن يختبئ في حفرة.. ولا يمكن أن يكون مذعوراً بسبب القبض عليه من قبل بعض الجبناء الغزاة..

مثل ذلك الرجل يقاتل حتى آخر رمق..

يتتصر أو يموت..!

حين نقلنا الأخبار إليه وعنه والرسائل، أكد لنا جدي صدام حسين أنه لا يذكر أي شيء عن عملية القبض عليه، وأنه كان منوماً تماماً..

بدأت الكتب تغزو الأسواق من أسماء تدعي أنها عاشت مع الأسرة أو كانت قريبة منها. وكانت المؤتمرات تفتح لهم في العالم.. فهنا محام لجدي، وهناك بديل لخالي، وهنا صديقة لأمي؛ وكلهم كاذبون. ولكنّ همنا في تلك الفترة كان أكبر من الرد على هذا وذاك..

بدأت الفوضى الحقيقية تضرب أطنابها في العراق.. وما زالت إلى اليوم..

وعد أحدٌ واسمه بهاء الأعرجي العراقيين بهدية في عيد الأضحى..

بعد أن سلم هو وأمثاله العراق للأعداء المحتلين منهم والخبثاء..

من هؤلاء..

لا يعرفون شيئاً عن العراق..

خرجوا من جحور مجهولة..

لم يثبتوا حتى نزاهة سياسية أو مالية..

لم يبنوا جسراً، ولم يؤسسوا مدرسة..

لم يزرعوا نخلة أو زهرة واحدة..

ليست لهم أصول ولا أنساب..

وكل رصاصهم وسكاكينهم الحاقدة موجهة إلى من يفترض أنهم أبناء وطنهم..

ثم يدّعون حب العراق!! بئس الحب.. ونعم المحبوب!

الفصل الأخير النهاية إعدام الجد وانتهاء العراق الحديث

في صباح عيد الأضحى الموافق

للثلاثين من ديسمبر عام ألفين وستة..

... تم إعدام العراق!